الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

* جامعة عنابة *

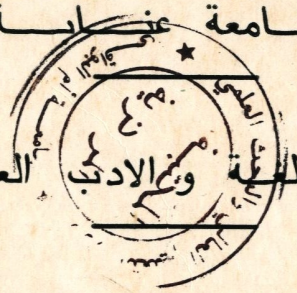

معهد اللغة والأدب العربي

فن الهجاء في الشعر الاندلسي

رسالة لنيل الماجستير في الأدب العربي القديم

تقدم بها :

موسى مريان

أشرف عليها الاستاذ الدكتور :

مختار نويوات

19/A
12

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

* جامعة عنابة *

معهد اللغة و الادب العربي

فن الهجاء في الشعر الاندلسي

رسالة لنيل الماجستير في الادب العربي القديم

تقدم بها :
موسى مريان

أشرف عليها الاستاذ الدكتور :
مختار نويوات

- 1409 هـ / 1989 م -

بسم الله الرحمن الرحيم

صدق الله العظيم

(من الكهف آية: 10)

الإهداء

إلى روح الذي حباني بالحب والحنان
وتعهدني بالتربية والتعليم في السنوات
العجاف ورحل قبل موسم القطاف.
إلى روح والدي أهدي هذه الباكورة.

موسى

المقدمة

المقدمة

شهد التراث الثقافي الأندلسي في العقود الأخيره اهتماما واضحا من الباحثين العرب ،و يزداد هذا الاهتمام نشاطا و نماء بمرور الأيام .

و تتجلى هذه العنايه في ثلاثه مظاهر كبيره : تحقيق المخطوطات و ترجمه المؤلفات الأجنبيه و التأليف .

و الحقّ أن حركه التحقيق الزاميه الى احياء ما أبدعته عقول الأندلسيين و قرائحهم قد استخرجت كنوزا ثمينه ظلت دفينه يعلوها الغبار و يلفّها النسيان ردحا من الزمن . فعرفت النور مصنّفات كثيره في اللغه و الأدب و الفقه و التاريخ و التراجم و غيرها .

ونقلت حركه الترجمه الى العربيه ،و بالأخص من الاسبانيه و الفرنسيه ، مؤلفات عديده ، ليطالعها العرب و يطّلعوا عمّا خطّت أقلام المستشرقين - المنصفه وملها و الحاقده - عن تاريخ أجدادهم و تراثهم .

و لعلّ التأليف أنشط هذه المظاهر و أغزرها ،و بخاصه في التاريخ و تأريخ الأدب و النقد . ففي مجال تأريخ الأدب صدرت عشرات الكتب،وظهرت دراسات كثيره على صفحات المجلات ،انكبّ فيها الباحثون على دراسه الأدب الأندلسي و أعلامه .

وفي هذا المجال يمكن تمييز نوعين من الدراسات : دراسات عامه و دراسات خاصه .

أمّا الدراسات العامه فتناول فيها أصحابها الأدب الأندلسي في عصوره المختلفه ، مركّزين على بعض الفنون و الأغراض الشعريه التي تجلّت فيها أصاله الأندلسيين و عبقريتهم كالموشحات و الأزجال و وصف الطبيعه ،مشفوعه بترجمه مشاهير الأدباء. و أمّا الدّراسات الخاصه فاهتمّ فيها أصحابها بأدباء و علماء محدّدين كابن عبد ربّه و ابن حزم و ابن زيدون و المعتمد بن عباد و ابن خفاجه ،و غيرهم من أعلام الأدب و الفكر في الأندلس . أو بفنون محدّده كالموشحات و الأزجال . أو

بتأريخ الأدب في فترة تاريخية محدّدة ، متّخذه عند بعضهم طابع التّسلسل لتكون في الأخير سلسلة متّصلة الحلقات.

ولم يحظ الهجاء - فيما أعلم - الآن بدراسة الدكتور فوزي سعيد عيسى : " الهجّاء في الأدب الأندلسي "[1]. وهي دراسة جيّدة في ثلاثة أبواب، تناول فيها بالبحث الهجاء في الشعر و النّثر الأندلسيين ، و خصّص بابها الأخير لدراسة لغة الهجاء و صوره.

أمّا أغلب الدّراسات العامة فانها لم تنزل الهجاء الأندلسي المنزلة التي يستحقّها ، بل عالجه أصحابها معالجة سطحية ثمّ حكموا عليه بالضعف والكساد و بالقصور و التأخر عن الهجاء المشرقي . وهي أحكام لا تخلو في نظري - من تعسّف . و من هذه الأحكام قول بطرس البستاني[2] : ((. . . و أكثر الشعراء الذين ظهروا في الأندلس اصطنعوا الهجاء و لكنهم لم يبلغوا فيه مبلغ المشارقة . فكان هذا الفنّ ضعيفا عندهم)) . ونجد صدى هذا الحكم في قول جودت الرّكابي[3] : ((. . . وعلى الجملة فان الشعراء الذين مارسوا هذا الغرض لم يبلغوا فيه شأن المشارقة)) .

بدأ اهتمامي بهذا الموضوع يوم طالعت قول موسى ابن سعيد[4] : ((هجاء و الأندلس : المخزومي[5] ،

---

(1) اطلعت على هذه الدراسة بعد أن قطعت مرحلة لا بأس بها في البحث.

(2) أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث (ط 6 ، بيروت : دار المكشوف و دار الثقافة ، 1968م) ص: 53.

(3) في الأدب الأندلسي (د . ط ، القاهرة : دار المعارف ، د . ت) ، ص: 115-116 .

(4) هو موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ، والد أبي الحسن علي آخر مؤلفي " المغرب ". توفي في سنة 640هـ/1243م.

(5) هو أبو بكر محمد الأعمى المخزومي ، من شعراء الأندلس الحوّالين المتكسبين بالهجاء . ترجم له الحجاري في " المسهب " وقال عنه : ((بشّار الأندلس إذا باعا ولسنا وأذاه ، وهو الذي أحيا سيره الخطيئة بالأندلس فمقت ، وكان لا يسلم من هجوه أحد)) . (عن المغرب 1 : 228) . توفي في سنه 541هـ/1147م . للتوسع راجع : الخريدة 2 : 255 ، 3 : 579 ، وزاد المسافر ص: 117 ، والمغرب 1 : 228 ، والإحاطة 1 : 424 ، ونفح الطيب 1 : 190 ، 3 : 205 ، وتاريخ الأدب العربي لعمر فرّوخ 5 : 271 ، وغيرها .

و اليكي (1)، و الأبيض (2))). أحسست يومها بالتناقض أو التصادم بين قوله و بين آراء بعض أصحاب الدراسات العامه التي استقرّت في ذهني منذ مدّه من الزمن . وقام في نفسي منذ ذلك اليوم سؤال ملحّ لا يشغل فكري : كيف يكون الهجاء الأندلسي ضعيفا مع أنه عرف ثلاثه من كبار الهجّائين ؟ .

و ولّد ذلك السؤال في نفسي فكره البحث عن أخبار أولئك الهجّائين الثلاثه و أشعارهم و جمعها ، و دراستهم دراسه تكون موضوع رسالتي . ولكن اتّضح لي - بعد مدّه من البحث و الجمع - أن ماسلم من اشعارهم من الضياع مقطوعات قليله لا تكفي لاقامه دراسه مستقله . الاّ أنّ الرّجوع الى المراجع و المصادر المرّه بعد المرّه هيّأ لي الاطلاع على اشارات و أحكام تتصل بهجاء شعراء آخرين ، و الوقوف على مقطوعات و قصائد جيّده تدحض رأي القائلين بضعف الهجاء الأندلسي و كساد سوقه . زاد كلّ ذلك في الحاح السؤال عليّ و أغراني بالبحث عن حقيقه الهجاء في الشعر الاندلسي .

---

(1) هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن سعد اليكي نسبه الى حصن "يكّه" (yecla) الواقع شمال مرسيه (murcia). من شعراء القرن السادس الهجري المشهورين بالهجاء. توفي بعد سنه 560هـ/ 1165م. للتوسع راجع : الخريده 3 : 580، وزاد المسافر، ص: 119، وبغيه الملتمس، ص: 488 (ترجمه رقم 1479)، وبدائع البدائه، ص: 100، ومعجم البلدان 4 : 231، و المطرب ص: 125، 132، و الحله السيراء 2 : 266، ونفح الطيب 3 : 205، 324، 345، و دراسه :

henri pérès . " la poesie à fes sous les moravides et les almohades". hesperis (1934) , 18 : 33-44 .

(2) هو أبوبكر محمد بن أحمد بن محمد الانصاري الاشبيلي و اشتهر بالابيض. شاعروشّاح ألهج بهجاء الزبير بن عمر أمير قرطبه الى أن ظفر به وقتله. وكان ذلك على الارجح بعد سنه 530هـ/ 1135م. للتوسع راجع : الخريده 2 : 258، 3 : 580، وزاد المسافر، ص: 108، و المطرب، ص: 76، و المغرب 2 : 127، ونفح الطيب 3 : 489، 7 : 7، وتاريخ الادب الاندلسي : عصر الطوائف والمرابطين، ص: 145، وغيرها .

(3) المغرب في حلى المغرب . تحقيق شوقي ضيف (ط3، القاهره : دار المعارف د . ت)، 1 : 230 . (نشير اليه بـ "المغرب") .

ومن تلك الاشارات قول مقدّم بن معافى[1] لمن سأله عن سبب احجامه عن هجاء مؤمن بن سعيد[2] : ((لا أهجو من لو هجا النجوم ما اهتدى أحد بها))[3].

ومنها قول ابن بسام في ترجمه ابن ساره الشنتريني[4] : ((... ولقد رأيت له عدّه مقطوعات في الهجاء ، تربي على حصى الدّهناء ، وهو فيه صائب السّهم ، نافذ الحكم ، طويت عليه كشحا ، وأضربت عن ذكره صفحا ... ولو استجزت أن أثبت في هذا الكتاب ، بعض ما له في هذا الباب ، لتحققت أنه بالحطه بائقه مناحاه ، وصاعقه مهاجاه))[5]. ومنها قول ابن سعيد عن ابن حزمون[6] : ((صاعقه من صواعق الهجاء ... وأكثر قوله في طريقه التوشيح))[7].

---

(1) هو مقدّم بن معافى القبري ، من شعراء الاندلس في عهد الامير عبد الله المرواني (275-300هـ/888-912م) ، أدرك عصر الخليفه عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) . يعزى اليه اختراع الموشحات . راجع : بغيه الملتمس ، ص: 460 (ترجمه رقم 1386) ، والحله السيراء 1 : 156 وتاريخ ابن خلدون 1 : 1138 ، ونفح الطيب 3 : 538 ، 7 : 6 ، وفي الادب الاندلسي ، ص: 287 ، وغيرها .

(2) هو أبو مروان مؤمن بن سعيد بن ابراهيم بن قيس " دعبل الاندلس " . من شعراء القرن الثالث الهجري المشهورين بالهجاء . توفي في سجن الأمير محمد بن عبد الرحمن (238-273هـ/852-886م) في سنه 267هـ/880م . للتوسع راجع : المقتبس (تحقيق محمود علي مكي) ، ص: 166 ، وفي صفحات أخرى متفرقه ، وبغيه الملتمس ، ص: 456 (ترجمه رقم 1376) ، والمغرب 1 : 132 ، وغيرها .

(3) المقّري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . تحقيق احسان عباس (د . ط ، بيروت : دار صادر ، 1388هـ/1968م) ، 3 : 538 . (نشير اليه بـ " نفح الطيب ") .

(4) هو أبو محمد عبد الله بن ساره (أو صاره) الشنتريني نسبه الى مدينه شنترين (santarem) الواقعه شمال شرق لشبونه عاصمه البرتغال حاليا . ترجم له ابن بسام في (الذخيره 2/2 : 834) وأثنى عليه بقوله : ((ناثر و شاعر مفلق ، و شهاب متألق ، نثر فسحر ، ونظم فنمنم ، و أولع بالقصار فأرسلها أمثالا ، ورشق بها نبالا ... وأوصاف أبدع فيها ، و آخترع كثيرا من معانيها ، ومدح في شكوى زمانه فسلّ بها على علوّ شانه ...)) . توفي في سنه 517هـ/1123م . للتوسع راجع : القلائد ص: 299 ، و الذخيره 2/2 : 834 ، و الخريده 2 : 315 ، وزاد المسافر ، ص: 108 ، و المطرب ، ص: 78 ، 138 ، و المغرب 1 : 419 ، و الروايات ، ص: 64 ، ونفح الطيب 1 ، 2 ، 3 ، 4 في صفحات متفرقه ، وغيرها .

(5) ابن بسام ، الذخيره في محاسن أهل الجزيره . تحقيق احسان عباس (د . ط ، ليبيا / تونس : الدار العربيه للكتاب ، 1981م) ، 2/2 : 835 . (نشير اليه بـ "الذخيره") .

(6) هو أبو الحسن علي بن حزمون المرسي ، شاعر وشاح مشهور بالهجاء . توفي عام سنه 614هـ/1217م للتوسع راجع زاد المسافر ، ص: 106 ، والمعجب (اختيار أحمد بدر) ، ص: 192 ، والمغرب 2 : 214 ، ونفح الطيب 3 : 465 ، 7 : 9 ، والأعلام 4 : 271 ، وغيرها .

(7) المغرب 2 : 214 .

ويهدف البحث الى دراسة الهجاء في الشعر الاندلسي دراسة موضوعية باعتماد أكبر قدر من النصوص لاستجلاء صورته . وليس الغرض منه اثبات ما اذا كان الأندلسيون تقدّموا المشارقة في هذا الغرض أو جاروهم فيه أو تأخروا عنهم .

وقد وزّعته على ثلاثة فصول ، يسبقها مدخل و تتلوها خاتمة عامة .

تناولت في المدخل التأثير السلبي لتمجّح الحكّام و النّقد الأخلاقي و موقف بعض المؤلفين في الهجاء الاندلسي . مستغنيا بذلك عن "معنى الهجاء في اللغة و الاصطلاح و تطوّره في الشعر العربي و الآداب الأجنبية"[1] . تجنبا للتكرار و درءا للاستثقال .

ودرست في الفصل الأول "الهجاء الشخصي" و تعرّضت فيه الى خمسة نقاط :

1 - هجاء أصحاب السّلطة و أعوانهم .

أ - هجاء الحكّام .

ب - هجاء الوزراء .

ج - هجاء القضاة .

2 - هجاء أصحاب العاهات الجسدية .

3 - هجاء شواعر الأندلس .

أ - ولادة بنت المستكفي .

ب - مهجة بنت التيّاني .

ج - نزهون بنت القلاعي .

4 - هجاء الشعراء و تهاجيهم .

5 - هجاء الذّات و الأهل و الأقارب .

وعالجت في الفصل الثاني "الهجاء الاجتماعي" و تعرّضت فيه الى ثماني نقاط :

---

(1) من أراد الاطلاع على ذلك فليراجع : الهجاء و الهجّاؤون في الجاهلية ، و الهجاء والهجاؤون في الاسلام لمحمد محمد حسين ، و الهجاء الجاهلي : صوره وأساليبه الفنية لعباس بيومي عجلان ، و غيرها .

1- هجاء الفقهاء .

2 - هجاء الفلاسفه .

3 - هجاء الشعراء .

4 - هجاء البخلاء .

5 - هجاء المشغولين بعيوب الغير .

6 - هجاء المدن .

7 - هجاء النشاء .

8 - هجاء المجتمع و البشريه عامه .

و خصّصت الفصل الثالث " للهجاء السياسي " و تعرضت فيه الى ست نقاط :

1 - هجاء الحكّام .

2 - تهاجي العرب و المولّدين من العجم .

3 - هجاء البربر .

4 - هجاء النصارى .

5 - هجاء المرابطين .

6 - هجاء اليهود .

وخصّصت " خاتمه البحث " لتفسير الظواهر الفنيّه العامه للهجاء في الشعر الاندلسي و تسجيل نتائج البحث .

ويقوم منهج البحث على أساس دراسه الأشعار و توزيعها بحسب مضامينها على فصول الرساله ، مع مراعاه ترتيبها الزمني . ويحاول في الآن نفسه الاستفاده من نتائج علم النفس و بخاصه عند التصدّي لتفسير دوافع الهجاء عند الشعراء .

وقد صنت الدراسه عن الألفاظ البذيئه بحذفها من النصوص الشعريه والنثريه واضعا مكانها ثلاث نقاط بين حاصرتين " ... " . ورغم ذلك تبقى حدّ واضحه للقارئ الكريم .

و تنوّعت مصادر البحث و مراجعه بتنوّع الموضوعات المدروسه . و يمكن توزيعها على خمس مجموعات كبيره :

1 ـ دواوين الشعراء .

2 ـ كتب التراجم .

3 ـ كتب الأدب العامه .

4 ـ كتب التاريخ .

5 ـ مرجع عربيه و أجنبيه .

وقد واجهتني صعاب كثيره أهمها ثلاث : أولاها ـ قلّه الماده ، لأنّ كلّ من عرف بالهجاء لم يبلغنا منه ديوان . و أغلب ما وجدته من الهجاء مقطوعات أثبتها أصحاب المصادر تبعا لأذواقهم أو بحسب ما أسعفتهم به ذاكرتهم . و ثانيها ـ قلّه الأخبار المتعلّقه بالشعراء ، لأنّ أكثرهم منمورون . وثالثها ـ سعه الموضوع و تشعبه ، لأن البحث يتتبّع خطى الهجاء من فتح الأندلس الى سقوطها .

و الحقّ أنّ البحث ـ على الرّغم من كلّ ذلك ـ كان رحله ممتعه عظيمه الفائده ، هيّئت لي الاطلاع على كثير من أحوال العرب و المسلمين السياسيه و الاجتماعيه و الثقافيه في مختلف أطوار وجودهم بالأندلس .

و أغتنم هذه الفرصه لأتوجّه بالشكر الجزيل الى أستاذي المشرف الدكتور مختار نويوات على ما بذل من جهود ، و أنفق من وقت ، و أسدى من توجيهات و نصائح ، حتى ظهر البحث على هذه الصوره . كما أشكر زملائي الأساتذه الأفاضل على ما قدّموا لي من مساعدات . و ما توفيقت في البحث فتلك غايتي ، و ان قصّرت فحسبي أنني لم أدّخر جهدا .

و على الله قصد السبيل من التوفيق .

والله ولي التوفيق .

المدخل

المدخل

كلف أهل الأندلس كلفا شديدا بالشّعر . و مارسه منهم شعراء و شواعر من طبقات اجتماعية متباينة ، و أصول مختلفة ، ينمّ عددهم عن الحصر ، يتفاوتون فيما بينهم في مجال الاهتمام و في درجة الاجادة و الاحسان .

وقام الحكّام - و بالأخص العرب منهم - بدور مهمّ في ازدهار الأدب عامة و الشّعر خاصة ، و لاسيما في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . و بيّن المقّري شغف الأندلسيين بالشّعر و ما للفحول من الشّعراء من حظوة عند الحكّام بقوله (1) : ((و الشّعر عندهم له حظّ عظيم ، و للشّعراء من ملوكهم و حماته ، و لهم عليهم وظائف . و المجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ، و يوقّع لهم بالصّلات على أقدارهم ، الاّ أن يختلّ الوقت و يغلب الخلل في حين ما ، و لكن هذا الغالب)) .

و اذا كان بريق القصور قد أغرى كثيرا من الشّعراء فانجذبوا اليه ، و بالأخص في القرن الخامس الهجري ، حين تنافس ملوك الطوائف في اختيار الألقاب ، و بناء القصور و تقريب الشّعراء ، ((حتى ان أحد شعرائهم (2) بلغ به ما رآه من منافساتهم في مدائحه (3) أن حلف أن لا يمدح أحدا منهم بقصيده الاّ بمائة دينار (4))) ، و وقفوا بأبواب الأمراء و الملوك و الأعيان و مدحوهم و تسلّموا جوائزهم و قبلوا وظائفهم ، فاننا نجد شعراء آخرين قد نالوا بشعرهم من الحكّام و أصحاب السلطة و النفوذ و شهّروا بهم و نددوا بأعمالهم .

و تباينت ردود أفعال الحكّام و أصحاب النفوذ ممّن هجاهم . و على الرّغم من جنوح أكثرهم الى الانتقام باستخدام أفظع الأساليب ، فانه يمكن تمييز

---

(1) نفح الطيب 1 : 322 .

(2) هو أبوعلي ادريس بن اليماني العبدري . راجع : الذخيرة 3 / 1 : 336 ، والمغرب 1 : 400 .

(3) في الأصل : أمداحه . و التذكير باشارة من الاستاذ المشرف ، لان المدح مصدر كما نصّ على ذلك كثير من المعجمات (راجع مثلا : أساس البلاغة ولسان العرب وتاج العروس) و المصدر لا يثنى و لا يجمع .

(4) م.ن ، 3 : 190 .

ثلاثة مواقف مختلفة : العفو والتهديد والانتقام .

فممّن آثر الحكمة وصفح عمّن هجاه الصّميل بن حاتم[1] الذي هجاه أبو الأحرب جعونة بن الصّمّة[2] ، ((فلمّا حصل في يده عفا عنه فنسخ هجوه بمدحه))[3].

وممّن لجأ الى التهديد والتخويف ابن حجّاج[4] أمير اشبيليه ، أخذ محمد بن يحيى القلفاط[5] في هجائه بقرطبه فأرسل اليه من قال له عنه[6] :

((والله الذي لا اله غيره ، لئن لم تكفّ عمّا أخذت فيه لآمرنّ من يأخذ رأسك فوق فراشك ! فارتاع ، وكفّ)).

---

(1) هو الصّميل بن حاتم بن شمر بن ذي الحوشن . وقيل : الصّميل بن حاتم بن عمرو ابن جندع بن شمر بن ذي الحوشن ، مضري من قيس . دخل الاندلس في الجند بلج ابن بشر ، وشارك في الفتنه التي اشتعلت بين المضريه واليمنيه في عصر الولاة . ذكره المقّري في (نفح الطيب 3 : 53) وقال : انه ((كان شاعرا كثير السكر أميّا لا يكتب . ومع ذلك انتهت اليه في زمانه رياسه العرب بالاندلس ، وكان أميرها يوسف الفهري كالمغلوب معه ، وكانت ولايه الفهري الاندلس سنه تسع وعشرين ومائه ، فدانت له تسع سنين وتسعه أشهر ، وعنه . . . انتقل سلطانها الى بني أميّه)) ، قتل الصّميل في سجن عبد الرحمن الداخل في سنه 141 هـ/ 758م . راجع : البيان المغرب 2 : 34 ، ونفح الطيب 1 ، 3 ، في صفحات متفرقه .

(2) هو أبو الاحرب جعونه بن الصّمّة الكلابي " عنتره الاندلس " . من شعراء الاندلس في عصر الولاه . راجع ترجمته في : جذوه المقتبس 1 : 293 (ترجمه رقم 362) ، والمغرب 1 : 131 ، ونفح الطيب 3 : 177 ، 255 .

(3) المغرب 1 : 131 .

(4) هو أبو اسحاق ابراهيم بن حجّاج بن عمير بن حبيب اللّخمي . من كبار الثّوار القائمين على السلطه الأمويه في عهد الأمير عبد الله . توفي في سنه 288 هـ/ 901م . راجع : الحلّه السيراء 2 : 376 ، والبيان المغرب 2 : 125 ، ونفح الطيب 3 : 140 وغيرها .

(5) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن زكريا ، و " القلفاط " لقب عرف به . اشتهر بحفظه اللغه وتبحره في النحو ، ويقول الشعر لاسيما الهجاء . توفي في سنه 302 هـ/ 915م . راجع ترجمته في : طبقات الزبيدي ، ص : 278 ، وجذوه المقتبس 1 : 160 (ترجمه رقم 165) ، والمغرب 1 : 111 ، وتاريخ الادب الاندلسي / عصر سياده قرطبه ، ص : 176 ، ومختارات من شعر الاندلس ، ص : 88 ، وغيرها .

(6) م . ن ، 1 : 111 . وراجع : الحله السيراء 2 : 377 ، والبيان المغرب 2 : 128 .

وأمّا من عاتب من هجاه و انتقم منه فكثير . منهم هشام بن عبد الرحمن الداخل الذي قطع لسان[1] أبي المخشي عاصم بن زيد[2] و سمل عينيه[3] بسبب قوله من قصيده مدح بها أخاه سليمان (وافر) :

((وليس كمثل من ان سيم عرفا . . يقلّب مقله فيها اعـــوار)) . (4)

وبما أن هشاما كان أحول ، وكانت بينه و بين أخيه سليمان ((مباعده و منافسه))[5] ، توهّم على أبي المخشي أنه عرّض به في البيت ، فأشطّ في عقوبته و مثل به .

ومنهم المعتد بن عبّاد[6] الذي باشر قتل وزيره أبي بكر بن عمّار[7] بيده ، بسبب غدره به و محالفته اياه[8] .

---

(1) المغرب 2 : 123 .

(2) هو أبوالمخشي عاصم بن زيد بن بحر التميمي ، من شعراء عصر الاماره الاموية المشهورين بالهجاء . أثبت له أبوعامر ابن شهيد بيتين من شعره في كتاب "حانوت عطّار" وقال عنه : ((وأما المخشي فانه قديم الجود و الصنعه ، عربي الدار والنشأه ، وانما تردّد بالاندلس غريبا طارئا ، وهو من فحول الشعراء القدماء المتقدمين)) . (عن بغيه الملتمس، ص: 513) توفي أبوالمخشي حوالي 180هـ/ 796م في عهد الامير الحكم بن هشام . راجع: تاريخ ابن القوطيه ، ص: 56 ، وبغيه الملتمس، ص: 513 (ترجمه رقم 1543) ، و المغرب 2 : 123، و الادب الاندلسي : من الفتح الى سقوط الخلافه ، ص: 98 ، ومختارات من شعر الاندلس، ص: 41 ، و غيرها .

(3) ابن القوطيه ، تاريخ افتتاح الاندلس . تحقيق ابراهيم الأبياري (ط 1 ، القاهره : دار الكتب الاسلاميه و دار الكتاب المصري و بيروت : دار الكتاب اللبناني ، 1402هـ/ 1982م) ، ص : 56 . (نشير اليه بـ " تاريخ ابن القوطيه") .

(4) ع.س، 2 : 124 .

(5) ع.س.ص.ن .

(6) ملك اشبيليه من سنه 461هـ/ 1068م الى سنه 484هـ/ 1091م .

(7) هو أبوبكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري (422 ـ 477هـ/ 1031- 1084م) . من فحول الشعراء و كبار الوزراء في عصر ملوك الطوائف . للتوسع راجع: القلائد ، ص : 93 ، و الذخيره 2/ 1 : 368 ، و الخريده 2 : 71 ، و المغرب ، ص: 169 ، و الحله السيراء 2 : 131 ، و المغرب 1 : 389 ، و الرايات ، ص: 55 ، ونفح الطيب 1 ، 4 ، في صفحات متفرقه ، وغيرها .

(8) راجع خبر قتله في : الذخيره 2/ 1 : 429 ، و المغرب 1 : 390 ، و نفح الطيب 4 : 212 .

ومنهم الزبير بن عمر[1]، أمير قرطبه، الذي أمر بقتل أبي بكر الأبيض لهجائه اياه و تحرّشه عليه في مجلسه .

ولم يكن قمع الحكّام العامل المثبط الوحيد للهجاء الاندلسي، و انّما كان الى جانبه تشدّد النقاد الأخلاقيين [illegible] و ردت في بعض الأعمال الأدبيه و كتب التراجم آراء نقديه بيّن فيها أصحابها رأيهم في الشعر و أغراضه . و سأكتفي بذكر رأي ابن حزم (ت 456هـ/ 1064م) و ابن بسام (ت 542هـ/ 1147م) في الشعر عامه و الهجاء بصوره أخصّ.

ألّف ابن حزم رساله بعنوان " مراتب العلوم " أوضح فيها أن أفضل العلوم ما أدّى الى فوز الانسان و نجاته في الآخره. وقاده الموضوع الى الحديث عن الشعر، فدعا الى روايه ((الأشعار التي فيها الحكم و الخير))[2] كشعر حسان ابن ثابت و غيره من شعراء الدّعوه الاسلاميه . ونصح بتجنّب أربعه أضرب من الشعر وهي[3] : الاغزال و الرّقيق، و الأشعار المقوله في التغزل و ذكر الحروب و أشعار التشرّب، و صفات المفاوز و البيد المهامه، و الهجاء، لـ ((أنه يهوّن على المرء الكون في حاله أهل السّفه من كناسي الحشوش، و المعلناه لصنعه الزمير المتكسبين بالسّفاهه و النّذاله و الخساسه و تمزيق الأعراض و ذكر العورات و انتهاك حرم الأبناء و الأمّهات وفي هذا حلول للدّمار في الدنيا و الآخره))[4].

انطلق ابن حزم في رأيه - كما يلاحظ - من منطلق ديني أخلاقي، لايمانه بتأثر الانسان بما يروي . و نظر الى سلوك الانسان نظره تتسم بالشموليه، ولذلك لم يفصل بين روايه الشعر و بين الغايه من وجود الانسان . وجعل الهجاء أفسد الأغراض، لأن لهجته تتنافى مع مبادئ الاسلام و قيمه.

---

(1) هو أبومحمد الزبير بن عمر، أمير قرطبه في عهد المرابطين . ذكر العماد الاصفهاني في (الخريده 2: 259) أنه استشهد سنه 537هـ في حرب الفرنج في موضع يقال له " وادي الدروع" .

(2) (3) (4) رسائل ابن حزم الاندلسي . تحقيق احسان عباس (نشر مكتبه الخانجي بمصر - دون تاريخ)، ص: 65-67. نقلا عن: تاريخ النقد الادبي في الاندلس لمحمد رضوان الدايه (ط 2، بيروت - مؤسسه الرساله، 1401هـ/ 1981م)، ص: 311-312.

وذهب ابن بسام في "ذخيرته" منحى ابن حزم . فقد عزا - في مقدمه كتابه - عزوفه عن الشعر و عدم الاكثار من قوله الى عزّة نفسه ، وبيّن سبب زهده في الأدب - شعره و نثره - لان ((أكثره خدعه محتال ، و خلعه مختال ، حدّه تمويه و تخييل ، و هزله تدليه و تضليل ، و حقائق العلوم ، أولى بنا من أباطيل المنثور و المنظوم (1))) .

واذا فسّرنا عزوفه عن تداول الشعر بأنه تبرير منه لقلّه " موهبته " أوضعفها ، فاننا نعجب حقّا من دعوته المبكّره الى نبذ الأدب و الاشتغال عنه بحقائق العلوم . و ان كنّا لا نوافقه في ما ذهب اليه ، لاعتقادنا بأن الفنّ بمختلف أنواعه و العلم بمختلف فروعه قطاعان متكاملان ، و لا ينبغي لأيّه أمّه من الأمم أن تهتمّ بقطاع منهما و ترعاه على حساب الآخر .

و أمّا موقفه من الهجاء فأقلّ تشدّدا من موقف ابن حزم ، لأنّه يفرق بين أسلوبين من الهجاء : الصّريح الفاحش و التعريضي . وقد أقصى النّوع الأول من "ذخيرته" ولم يثبت شيئا منه . يقول (2) : ((ولمّا صنت كتابي هذا عن شين الهجاء ، و أكبرته أن يكون ميدانا للسّفهاء ، أحريت هاهنا طرفا من مليح التعريض في ايجاز القريض ، مما لا أدب على قائليه ، و لا وصمه أعظم على من قيل فيه)) .

و من التعريض قول ابن شهيد من قصيده خاطب بها بعض اخوانه بعد عتاب شديد (3) (طويل) :

((وانّي على ما ساء صدري وغاظني . . ليأمنني من كان عندي له سرّ)) .

وكان وقع البيت أشدّ على صديقه من عضّ الحديد - على حدّ قول ابن شهيد - ولم يزل يقلق به حتى بكى اليه منه بالدّموع (4) .

---

(1) الذخيره 1/1 : 18 .
(2) م.ن ، 1/1 : 544 .
(3) (4) م.ن ، 1/1 : 547 .
(4) م.ن ، 1/1 : 544 .

ويرى ابن بسام أن الهجاء ينقسم قسمين : هجو الأشراف و السّباب .

فأمّا " هجو الأشراف " فـ ((هو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مقذعا و لا هجرا مستبشعا ، وهو طأطأ قديما من الأوائل ، و شلّ عرش القبائل ، انما هو توبيخ و تعيير ، و تقديم و تأخير)) (1) ، كهجاء النّحاشي الحارثي في بني الححلان (2) ، وهجاء الحطيئة للزّبرقان بن بدر (3) ، و هجاء الأعشى لعلقمه بن علاثه (4) ، وغيره .

وهو هجاء سلب فيه أصحابه بعض الأشراف و السّاده الفضائل النفسيه و القيم الرفيعه التي كانت تعتزّ بها العرب و تمجّدها . وقام على بعض الأساليب التي حملته من أنكى الهجاء و أشدّه كالتفضيل و التشكّك و التّحامل و غيرها .

و أمّا " السّباب " فهو الهجاء الصّريح الفاحش ، و عبّر عنه بـ " شين الهجاء " و نبز أصحابه بـ " السّفهاء " ، و صان " ذخيرته " عنه ، لا بمانه بأن روايته تشين المصنّف و انما يحامى عليه المؤلف (5) . و كان اذا اضطر الى ايراد قصيده في الهجاء اكتفى بذكر الأبيات العفيفه منها و اعتذر لنفسه . من ذلك أنه لمّا أورد أبياتا من لاميه ابن عمار في المعتمد ابن عباد أتبعها بقوله (6) : ((وبعده أضربت عنه رغبه بكتابي عن الشّين ، و بنفسي أن أكون أحد الهاجيين ، فقد قالوا : الرّاويه أحد الشّاتمين)) .

---

(1) الذخيره 1/1 : 544 .

(2) ومن لاميته فيهم قوله (طويل) :

((وما سمّي الححلان الا لقيلهم . . خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل)) .

(راجع : الشعر والشعراء 1 : 330-331) .

(3) من سينيته فيه قوله (بسيط) :

((دع المكارم لا ترحل لبغيتها . . واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي)) .

(راجع : الشعر والشعراء 1 : 327-328) .

(4) منه صاديته التي يقول فيها (طويل) :

((تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم . . وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا)) .

(راجع : ديوان الأعشى الكبير ، ص : 199) .

(5) م.ن ، 1/1 : 546 .

(6) م.ن ، 1/2 : 414 .

ودعاه موقفه الأخلاقي الى اقصاء تراجم هجّائي الاندلس في عصره من "ذخيرته" .وكان اذا ترجم لمن له بد في الهجاء أقصى هجاءه كلّه أو ذكر ما عفّ منه ،ونبّه على ذلك .

ولم يكن ابن بسام الوحيد الذي أقصى الهجاء من مصنّفه وحرمنا من نصوصه، بل هنالك مؤلفون آخرون نحوا منحاه ،منهم عبد الواحد المراكشي الذي يقول بعد أن اثبت أبياتا لابن حزمون في هجاء ذاته وهجاء أحد قواد الاندلس:(1)

((وله في هذا المعنى أحسن من هذا كثيرا الاّأنه أقذع فيه فلذلك لم أودعه هذه الأوراق لأني لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عنّي)) .

وهكذا كان ليقظة الرّقابة الرّسميه و تصحبها و لتشدّد الرّقابه النّقديه الأثر السيئ على الهجاء الاندلسي . كما أن اقصاء بعض المؤلفين للنصوص الهجائيه من مصنفاتهم أدّى الى ضياع الكثير منه . فاذا أضفنا الى هذا العامل عاملا ثانيا وهو عبث الايدي بالمؤلفات الأدبيه و العلميه أثناء قيام الفتن بين المسلمين ابّان وجودهم ،وموقف بعض الاسبان العدائي من تراثهم بعد رحيلهم،(2) تبيّن لنا أن أيّة محاولة لرسم صوره متكامله للهجاء الاندلسي تبقى ناقصه قاصره ان لم نقل انها مالب عسير المنال .

والسؤال أو المشكله هي : كيف كان الهجاء في الشعر الاندلسي بالرغم من ذلك كله ؟

والاجابه عن هذا السؤال وغيره في فصول هذا البحث و خاتمته .

---

(1) عبد الواحد المراكشي ،المعجب في تلخيص أخبار المغرب.اختيار أحمد بدر (د.ط، دمشق : وزاره الثقافه و الارشاد القومي ،1978م) ،ص: 197 (المختار من التراث العربي ، 6).

(2) راجع : محنه العرب في الاندلس لأحمد هيكل (ط1 ،بيروت :المؤسسه العربيه للدراسات و النشر ، 1400هـ/1980م) ،ص : 157 .

الفصل الأول

البناء الشخصي

تفرض الحياه على كل انسان سويّ التعامل مع غيره من الناس ، وعقد علاقات مختلفه معهم ، لقضاء مآربه ، وتحقيق وجوده . وأثناء معاشرته لهم ، يعاني لهم و يأخذ منهم ، ويؤثر فيهم و يتأثر بهم ، ويتفق معهم مره و يختلف أخرى ، و يرضى عمن يحسن منهم فيمدحه و يثني عليه ، و يسخط عمن يسيء فيذمه و يقدح فيه . لبع جبل عليه الانسان .

و الشاعر باعتباره انسانا لا يشذ عن هذه القاعده ، بل قد يكون أكثر تأثرا و انفعالا بما يجري من حوله من غيره لرهافه حسه ، ورقه شعوره . وهو محبر - كغيره - على مد شبكه من العلاقات المختلفه مع أفراد مجتمعه . غير أن علاقاته تلك لا تخلو موشحه بالتفاهم التام و الانسجام الكامل مع كل من يربطه به سبب ، فقد يؤدي تعارض المصالح أو اختلاف المواقف ، أو غير ذلك الى تعكير علاقاته ببعضهم ، أو فسادها وانبتاتها نهائيا .

واذا كانت خصومات الافراد غالبا ما تتأجر في سوره الغضب الى السباب ، أو الى ما هو أخطر منه ، فان الشاعر يلجأ عندما يغضب الى الهجاء . وهو من أشد الاسلحه تأثيرا على الخصم .

ان هذا لا يعني أبدا أن وراء كل هجاء دائما غضبا ، فقد يهجو الشاعر بدافع الاستهزاء أو الاحتقار (1) .

والهجاء الشخصي ((هو الشعر الذي يدور حول شخص معين لانه ارتكب اثما أو اكتسب جريره أو أتى ما يغضب الشاعر ، وان كان محسنا عند نفسه)) (2) . وهو تعبير عن انصداع و عدم انسجام ، يحدد فيه الشاعر موقفه من أحد أفراد مجتمعه .

---

(1) محمد محمد حسين ، الهجاء و الهجّاءون في الجاهليه (ط 4 ، بيروت : دار النهضه العربيه ، 1391 هـ / 1971 م) ، ص : 16 .

(2) عباس بيومي عجلان ، الهجاء الجاهلي : صوره وأساليبه الفنيه (د . ط ، القاهره : دار المعارف ، 1982 م) ، ص : 163

لقد مارس الشعراء الأندلسيون هذا النوع من الهجاء ، بل و يعد من أظهر الأنواع عندهم من حيث الكثره . ويمكن أن نميز فيه عده أقسام .

هجاء الحكام و أعوانهم .

1 - هجاء الحكام

يختلف هجاء الحكام الشخصي عن هجائهم السياسي في كون الشاعر لا ينال من النظام السياسي القائم ممثلا في شخص الحاكم باعتباره أساس ذلك النظام و واحمته ، مشيرا الى أوجه الخلل و الفساد فيه معبرا بذلك عن سخط الرعيه و نقمتها ، وانما ينال من الحاكم كشخص مجرد عن مركزه السياسي ، كاشفا عيوبه و مساوئه المختلفه ، صادقا في ذلك أو متزيدا أو كاذبا .

لقد انتجع أغلب شعراء الاندلس الحكام - بمختلف ألقابهم - و وقفوا بأبوابهم طمعا في صلاتهم ، أو رغبه في وظائفهم ، أو أملا في قضاء حوائجهم ، معتمدين في ذلك مواهبهم الأدبيه ، أو كفاءاتهم العلميه ، أو صداقتهم القديمه . ومنهم من قرّب و أكرم ، فنال حظوه و جاها و ثروه رد حا من الزمن ، و منهم من أدنى ، ثمّ غضب عليه لأمر ما و لقي بلاء شديدا ، و منهم من قبل بالصد و الاعراض من أول وهله و لم ينل شيئا .

و ممن فشل في ربط أسبابه بالحكام محمد بن يحيى القلفاط ، و كان ((كثير الثلب لأعراض الناس ، شديد التعرض لهم ، كثير الهجاء للأدباء .))(1) .

قصد ابراهيم بن حجاج ، أمير اشبيليه (SEVILLA) و قرمونه (CARMONA)

---

(1) الزبيدي الاندلسي ، طبقات النحويين و اللغويين . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (ط2 ، القاهره : دار المعارف ، د . ت) ص: 280 . (نشير اليه بـ " طبقات الزبيدي ") .

في عهد الأمير عبد الله المرواني (275- 300هـ/888- 912م) ، وكان بن حجاج كريما ، ((ممدحا ، يرتاح للثناء ويعادي الشعراء ، ويضاهي في فعله كبار الامراء))[1] . ومدح بقصيده مطلعها[2] (خفيف) :

((أزفت رحلتي فأهمت جفونا .. ..))[3]

ويبدو أن القلفاط حاول استغلال الخلاف الناجم بين ابن حجاج والامير عبد الله لفائدته ، فخصص جزءا من قصيدته لهجاء أهل قرابه وساداتها وعلماء دولتها ، ليعلو مقامه عند ممدوحه ، غير أنه أضر بنفسه من حيث كان يتوقع نفعها ، لأن ابن حجاج استوحش منه ، ومقته لذلك ، ولم يكرمه . فرجع القلفاط الى قرابه خائبا منكسر الخاطر ، وما ان وصلها حتى أنشأ قصيده في هجائه ، مطلعها[4] (كامل) :

((لا تنكري للبين أول باكئ .. فالبين برّح بي وعزّ عزائي))[5]

ومنها قوله[6] :

((أبغي نوال الأكرمين فما ولا .. أبغي نوال البومه البكماء))

ولم تثبت المصادر ، التي بين ايدينا ، من هذا الهجاء سوى هذا البيت ، وبالرغم من ذلك يمكن القول : ان الدافع على هذا الهجاء هو الحرمان واحساس الشاعر العميق بخيبه الامل والاحباط . وكان يرمي من ورائه الى غايتين :

---

(1) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ج .س. كولان وا. ليفي بروفنسال (ط 2 ، بيروت : دار الثقافه ، 1400هـ /1980 م) ، 2 : 167 . (نشير اليه بـ " البيان المغرب ") .

(2) المن ، 2 : 128 .

(3) بياض في الأصل .

(4) المن ، ض من المراكشي ، ..... .

(5) ورد عجز البيت في " مختارات من شعر الأندلس" لشاكر الفحام (د .ط ، دمشق : المطبعه التعاونيه ، 1396هـ/1976م) ، ص: 89 .

(6) المغرب 1 : 111 .

النيل من ابن حجاج ، تخفيف آثار الغيبه و الاخفاق في نفسه ، محاولا في الوقت نفسه ايهام المحبو بأنه يترفع عن جبذاه .

وقد وفق الشاعر في النيل من ابن حجاج ، عندما شبهه بـ " البومه البكماء " ، لكثره ماتوحي به العباره .

وسارت الابيات ، وبلغت ابن حجاج ، فغضب غضبا شديدا ، و أوصى من قال للقلفاط عنه : ((لئن لم تكفّ عما أخذت فيه لآمرنّ من يأخذ رأسك و أنت فوق فراشك بقرابه (1))) . فارتاع ، وكفّ عن محائه .

ولقي الأديب أحمد بن فرج الحبّاني (2) (ت نحو 366هـ / 976م) ، صاحب كتاب " الحدائق " (3) بلاء شديدا من الخليفه الحكم المستنصر بالله (350 - 366 هـ / 961 - 976م) لأمر نقمه عليه (4) ، أو لكلمه ((عاميه نطق بها نقلت عنه)) (5) أو لمحائه اياه (6) ، فأودعه السجن ، حيث أمضى سبعه أعوام أو أزيد (7) .

---

(1) ابن الأبار ، الحله السيراء . تحقيق حسين مؤنس (ط 1 ، القاهره : **الشركه العربيه** للطباعه و النشر ، 1963م) ، 2 : 377 . و راجع : المغرب 1 : 111 ، و البيان المغرب 2 : 128 .

(2) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الحباني . من أدباء القرن الرابع الهجري (10م) ألف كتاب " الحدائق " للحكم المستنصر بالله . وذكر الحميدي في (جذوه المقتبس 1 : 169) أن له كتابا آخر في (المنتزهين و القائمين بالأندلس و أخبارهم) . للتوسع راجع : جذوه المقتبس 1 : 169 (ترجمه رقم 176) ، وكتاب الصله 1 : 4 ، وبغيه الملتمس ، ص : 140 (ترجمه رقم 331) ، والمطرب ، ص : 4 ، والمغرب 2 : 56 ، والزاهيات ص : 104 ، و مختارات من شعر الأندلس ، ص : 142 ، وغيرها .

(3) الحدائق : كتاب عارض به أحمد بن فرج الحباني كتاب " الزهره " لأبي بكر محمد ابن داود بن علي الأصبهاني (ت 296هـ / 908م) ، أودع فيه أشعار الأندلسيين ، ولم يثبت فيه لغيرهم شيئا . جعله في مائتي باب ، في كل باب مائتي بيت ، بينما يقع كتاب " الزهره " في مائه باب ، في كل باب مائه بيت . وقد أثنى ابن حزم على المؤلف و أشاد بكتابه بقوله : ((وأحسن الاختيار ما شاء ، و أجاد فبلغ الغايه . فأتى الكتاب فردا في معناه)) (جذوه المقتبس 1 : 169) .

(4) الحميدي ، جذوه المقتبس في تاريخ علماء الأندلس . تحقيق ابراهيم الأبياري (ط 2 ، القاهره : دار الكتب الاسلاميه ، دار الكتاب المصري ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، 1403هـ / 1983م) ، 1 : 170 (نشير اليه بـ " جذوه المقتبس ") .

(5) ابن بشكوال ، كتاب الصله (القاهره : الدار المصريه للتأليف والترجمه ، 1966م) ، 1 : 5 . (نشير اليه بـ " الصله ") .

(6) المغرب 2 : 56 .

(7) عوض على من .

وليس بأيدينا من هذا الهجاء شيء - ان صح أنه هجاه - ومع ذلك تبقى محنته دليلا على تشدد الحكام و قمعهم للشعراء خوفا من ألسنتهم، و محازاه لهم على تحرشهم عليهم .

و من النماذج الجيده لهجاء الحكام في عصر ملوك الطوائف أبيات للاديب عبد الملك بن غصن الحجاري (1) (ت 454 هـ/1062م) التي هجا بها المأمون بن ذي النون (2) ، وهي (3) (طويل) :

((تلقبت بالمأمون ظلما ، وانني .·. لآمن كلبا حيث لست مؤمنه

حرام عليه أن يجود ببشره .·. و أما الندى فندب منالك مدفنه

سطور المخازي دون ابواب قصره .·. بحجابه للقاصدين معنونه)) .

و تستمد الأبيات جودتها من عفة مذهبها ، و توفيق الشاعر في اختيار مواطن الهجاء الحساسة ، وهي : اللقب السلطاني (المأمون) ، وكان ملوك الطوائف مولعين باتخاذ الألقاب ، فسلبه اياه ، و رأى أنه انتحله لنفسه ظلما ، وهو غير جدير به لأنه غير مأمون الجانب ، وجعل الكلب آمن منه ، و البخل الشديد ، الذي لا يقتصر على المادي منه ، فهو يضن على الوافدين عليه حتى بطلاقة وجهه ، و رداءة حجابه الذين لا يصلحون . فهو كتاب غث رديء ، لا فائدة فيه ، وحجابه عنوانه الذي يوحي بضحالته .

---

(1) هو أبو مروان عبد الملك بن غصن الخشني ، من أهل وادي الحجارة (GUADALAJARA) من أدباء القرن الخامس هجري (11م) المشهورين . ترجم له الحجاري في (المسهب في غرائب المغرب) ، ومما قال عنه : ((هذا الرجل يفخر به اقليم لا بلد ، ويقوم بانفراده مقام الكثير من العدد ، فانه كان أحد أعلامها في الادب والتاريخ والتأليفات الرائقه التي تبهر الالباب ، . . .)) (عن المغرب 2 : 33) .
للتوسع راجع : الذخيره 3/1 : 331 ، و الخريده 2 : 166 ، وبغيه الملتمس : 514 (ترجمه رقم 1546) ، والمغرب 2 : 30 ، 33 ، ونفح الطيب 3 : 363 ، 423 ، والاعلام 4 : 161 " Henri Pérès. la poesie Andalouse en Arabe classique au Xie siecle (2e ed, Paris: Adrien- Maisonneuve, 1953), P. 444.

(2) هو يحيى بن اسماعيل بن ذي النون (المأمون) ، ملك طليطله (435 - 467 هـ/1043 - 1075م) .

(3) نفح الطيب 3 : 363 .

ولما تمكن المأمون منه سجنه و ضيق عليه ، فاستعطفه بـ (رساله السجن و المسجون و الحزن و المحزون) أودعها ألف بيت ، موزعه على قصائد و مقاوعات. منها قوله (1) (منسرح) :

((وألف بيت من القريض اذا . مات جميع الأنام لم تمت

لو أن شعر الورى ينظام فو . عقد لكانت بموضع السّطه (2)

سائره حيث لم يسر قمر . ولا سرت أنجم ولا حرت)) .

و ألف له رساله أخرى سماها (العشر كلمات) . ولما يئس من عفو عنه ، بعث بقصيده الى المقتدر ابن هود (3) يشرح له فيها حاله ، ويدعوه لانقاذه من محنته ، منها قوله (4) (طويل) :

((أيا راكب الوحناء بلغ تحيه . أمير حذام من أسير مقيّد

ولما دهتني الحادثات ولم أحد . لها وزرا أقبلت نحوك أعتدي

ومثلك من يعدي على كل حادث . رمى بسهام للردى لم ترصّد

فعلّك أن تخلو بفكرك ساعه . لتنقذني من طول همّ محدّد

وها أنا في بطن الثرى وهو حامل . فيسّر على رقبى الشفاعه مولدي

حنانيك ألفا بعد ألف فانني . حملتك بعد الله أعظم مقصدي))

ولما اطّلع المقتدر على القصيده ، رقّ لحاله ، وخلّصه بشفاعته (5) ، فقصده الشاعر وأنشد بين يديه شعرا نوّه فيه بفضله عليه و أشاد بذكره ، شعرا طرب له المقتدر فاستوزره ، وجعله من أعلام مملكته. (6)

---

(1) الذخيره 3/1 : 333 - 334 .

(2) السّطه واسطه العقد .

(3) هو أحمد بن سليمان بن هود ، ملك سرقسطه (438 - 474هـ/ 1046/1081م)

(4) التشبيه : الطيب 3 : 363 .

(5) (6) المقتبس 3 : 364 ، 364 .

ومن أشهر القصائد التي محا بها ملوا الأندلس على الاطلاق لاميه أبي بكر بن عمار التي نال فيها من صديق عمره وولي نعمته المعتمد بن عبّاد ، ملك اشبيليه ، ومن زوجه وأبنائه .

لقد نشأ ابن عمار في مرحله انحطاط سياسي عميق ، بعد أن سقطت دوله بني أميه ، وتقاسم ارثها طوائف كثيره ، عرف ملوكها في التاريخ بـ (ملوك الطوائف) . اتصل بالمعتمد ، فأعجب به وبموهبته وقرّبه ، ولما أصبح ملكا استوزره وأعلى منزلته حتى صار عنده كجعفر عند الرشيد (1) ، وبما أنه كان بعيد الهمه ، طموحا ، ميكافيليا (2) ، لم يقنع بما لقيه في بلاط المعتمد ، ودا خله الحسب (3) ، واستبدّت به فكره الانتزاء على احدى جهات الاندلس ، والاستقلال بها .

ولما عزم المعتمد على انتزاع شرقيه من ابن طاهر (4) ، وامها الى ملكه ، ندب وزيره ابن عمار لتنفيذ مشروعه ، فوجد ابن عمار الفرصه السانحه

---

(1) المغرب 1 : 389 .

(2) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى المفتح المرابطي (ط 1 القاهره مطبعه لجنه التأليف ، والترجمه والنشر ، 1380هـ/1960م) ، ص: 70 .

(3) ع.س، ص.ن .

(4) هو الامير أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن اسحاق بن طاهر ، من كبار كتّاب الاندلس في عصر ملوك الطوائف . توفي في سنه 507هـ/1113م أو 508هـ/ 1114م . للتوشح راجع : القلائد ، ص : 64 ، والذخيره 3/1 : 24 - 40 ، 44 - 91 ، والخريده 3 : 363 ، وبغيه الملتمس ، ص: 40 ، (ترجمه رقم 23) ، وغيرها .

لتحقيق حلمه الكبير الذي راوده طويلا . فلما استولى عليها بمساعدة القائد عبد الرحمن بن رشيق (1) ، ((مدّ يده وبسطها ، وكفر نعمه ابن عباد وغمطها ، وانتزى له من حينه على مرسيه ، وتعمد بها مقد الرؤساء ، وخاطب سلطانه مخاطبه الأكفاء .)) (2) واتخذ لنفسه منها ومن ضواحيها امارة .

وفي هذه الأثناء أنشأ قصيده يحرّض فيها أهل بلنسيه (VALENCIA) على خلع طاعه الوزير أبي بكر بن عبد العزيز (457-478هـ/1065-1085م) والثوره عليه ، يقول فيها (3) (كامل) :

((بشّر بلنسيه وكانت جنّه ... أن قد تذلّت في سواء النار

حازوا بني عبد العزيز فانهم ... حرّوا اليكم أسوأ الأقدار

ثوروا بهم متأوّلين وقلّدوا ... ملكا يقوم على العدوّ بشار))

. . .

وخصّص قسما من رائيته للافتخار بنفسه ، يقول فيه :

((كيف التفلّت بالخديعه من يدي ... رجل الحقيقه من بني عمّار

رجل تطاعمه الزمان فحساءه ... طرفين في الإحلاء والإمرار

سلس القياد الى الحميل وان يصح ... فدع العنان لعبّه التيّار

طبن بأعراض الامور مجرّب ... فطن لأسرار المكايد دار

ماض اذا برزت اليه مصمم ... حول اذا التفّت عليه مدار

مازال منذ عقدت يداه ازاره ... فسما فأدرك خمسه الأشبار

كشاف مظلمه وسائس أمّه ... نفّاع أهل زمانه ضرّار

عجبا لأشمط راضع ثدي الوغى ... منه ، وطاود في القنا الخطّار

---

(1) راجع أخبار استيلائه على مرسيه وغدره بابن عمار في : الحلّه السيراء 2 : 140 وما بعدها ، ودول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، ص: 177- 180 .

(2) الذخيره ، ق 3 / 1 : 25 ، الحلّه السيراء 2 : 134- 135 .

(3) [illegible] 1/2 : 411-413 .

شرّاب أكواس المدام و تاره . ° . شرّاب أكواس الدّم المـوّار

حرّار أذيال القنا ، فانّوا به . ° . قد زاركم في الحفل الحرّار

وكأنكم بنجومه و رجومـــه . ° . تهوي اليكم من سماء غبـــار)) .

و يعود بعد هذا الافتخار الى تحريض أهل بلنسيه فيقول :

((وأنا النصيح فان قبلتم فاتركوا . ° . آثارها خبرا من الاخبـــار

قوموا الى الدار الخبيثه فاذهبوا . ° . تلك الذخائر من خبايا الدار

و تبوّضوا من صفره خبثيّـــه . ° . بأغرّ وضاح الجبين نضـــار)) .

ولما سمع المعتمد بن عباد القصيده ، و كان حليفا لأبي بكـــر

ابن عبد العزيـــز ، ذيل " بيت ابن عمار الذي يقول فيه :

((كيف التفلّت بالخديعه ، من يدي . ° . رجل الحقيقه ، من بني عمّـــار)) .

بأبيـات - سأتعرض لها في مجاء الوزراء - ((بلغ من التدبير فيه ها (1)

الغـايـــه ، و تجاوز من الدهنز عليه (2) النهـايـــه)) (3) . عند ئذ فلّ

حدّ صبـــره ، و أخـــذ يهجـــوه ، و منـــه لاميته المشهـــوره ، التـــي

يقـــول فيهـــا (4) (متقارب) :

---

(1) في الأصل : فيه . و التغيير من الباحث للتنسيق بين كلا مه و كلام المؤلف .

(2) الطنز : مصدر طنز يطنز طنزا به : سخر منه . نقله الصاغاني . قال الحوفي :

" أظنه مولّدا أو معرّبا " . راجع : الصحاح و اللسان و القاموس و تاج العروس .

و استعمال ابن بسام " على " بدل " ب " تضمين أو تصحيف .

(3) (4) الذخيره 2/1 : 414 .

((ألا حيّ بالنرب حيّا حلالا .·. أناخوا حمالا وحازوا حمـــلا

وعرّج بيومين أمّ القـــــن .·. ونـم فعسى أن تراها خيـــالا (1)

لتسأل عن ساكنيها الرّماد .·. ولم تر للنّار فيما اشتعـــالا))

وتذمم ابن سسام من اثبات بقيه الابيات لفحشها ،واعتذر بقوله: ((وبعده (2)
ما أضربت عنه ،رغبه بكتابي عن الشّين ،وبنفسي أن أكون أحد الماحيين ،فقد قالوا : الراويه أحد الشاتمين)). غير أن مؤلفين آخرين أوردوا غيرها من الابيات.

يقول ابن عمار : (3)

((فيا عامر الخيل يا زيد ها .·. منعت القرى و أبحت العيالا))

ويقول : (4)

((أرا توّري بحبّ النســـا .·. وقد ما عهدتك تهوى الرحـــالا

تخيّرتها من بنات الدهان .·. رميكيّه لا تساوي عقـــــالا (5)

فجاءت بكلّ قصير الذراع .·. لئيم النجارين عمّا وخـــالا

بصفر الوجوه كأنّ استعـــا .·. رماهم فجاءوا حيارى كسالى

قصار القدود ولكنهـــــم .·. أقاموا عليها قرونا طـــوالا)).

---

(1) يومين : اسم القريه التي كانت منها أمليه المعتمد بن عباد .

(2) الذخيره : ج 2 / 1 : 414/ 415 .

(3) المغرب : 1 : 390 ،ونفح الطيب 4 : 213 .و ورد البيت في (الخريده 2 : 82) :

((أيا فارس الخيل يازيدها .·. حميت الحمى و أبحت العيالا)) .

(4) العماد الاصفهاني ،خريده القصر و جريده العصر (قسم شعراء المغرب والاندلس) . تحقيق آذرتاش آذرنوش ، نقّحه وزاد عليه محمد المرزوقي و محمد العروسي المطوي و الحبلاني بن الحاج يحيى (تونس : الدار التونسيه للنشر ،و الجزائر : الشركه الوطنيه للنشر و التوزيع ، 1971م ، 2 : 83 . (نشير اليه بـ " الخريده") .

(5) الرميكيّه : هي اعتماد زوج المعتمد بن عبّاد ،و " الرميكيّه " نسبه الى مولاها رميك بن حجاج . راجع : نفح الطيب 4 : 211-213 .

ويقول (1) :

((أتذكر أيّامنا بالصّبـــا .·. وأنت اذا لحت كنت الملا لا

أعانق منك القضيب الرطيب .·. وأرشف من فيك ماء زلا لا

وأقنع منك بدون الحـــرام .·. فتقسم جهدك أن لا حـــلا لا

سأهتك عرضك شيئا فشيئا .·. وأكشف سترك حالا نحـــالا))

يعدّ هذا النص من النصوص الفريده في الهجاء الأندلسي ،لاسباب عديده. أولها أن ابن عمار (الهاجي) كان من كبار الوزراء و فحول الشعراء ،أو - كما قال ابن بسام - (2) : ((شاعرا لا يجارى ،وساحرا لا يبارى ،اذا مدح استنزل العصم ،واذا هجا أسمع الصّمّ ،وان تغزّل ،ولا سيما في المعذرين من الغلمان، أسمع سحرا لا يعرفه البيان)). وثانيهما أن المعتمد بن عباد (المهجو) كان من عظماء ملوك الطوائف . وثالثهما العلاقه الحميمه التي كانت تربط هما منذ زمن بعيد . ورابعها النّص و خصائصه .

لقد كان ابن عمار بارعا في النيل من المعتمد حتى العظام ، لأنه لم يهجه وحده ،وانما هجا أجداده و زوجه و أولاده كذلك . بدأ بجذوره ثم وصل اليه و الى زوجه و تعداهما الى الفروع . فألقى به من شاهق الى الدرك الاسفل ،لانه هدم الماضي و الحاضر و المستقبل في استهزاء عجيب .

وقد تعددت أساليبه ،واختلفت وسائله الفنيه في هذا الهجاء ،فاستعان بتاريخ الأسره و ماضيها البعيد ،فذكر (يومين) لتذكيره بجذوره و أوليته ، مشبها اياها بـ (أم القرى) ،أي مكه ،على سبيل التندر . وغايته الطعن في ماضيه ،وأنه ليس من بيت عريق في الرياسه و المجد .

واستعان بالتراث فشبهه ببالين من أبطال العرب وفرسانهم (عامر

---

(1) تفريح الطيب 4 : 213 .

(2) الذخيره 2/1 : 369 .

ابن الدافيل و زيد الخيل) ، ثم تهكّم به حين جعله يبخل بالعيّن (القرى) ويجود بالنفيس (العرض) . وحين ندرك هذه المفارقه يتضح لنا خبث هذا الهجاء .

وانتقل بعد ذلك الى جليلته اعتماد الرميكيه (السيده الكبرى) ، فاستعمل الفعل " تخيرتها " ، ولكننا ندرك بسرعه أنه أساء الاختيار ، لأنها وضيعه النسب من (بنات الهجان) ثم ذكرها بنسبتها أو لقبها " رميكيّه " تذكيرا له ولها بماضيها عندما كانت جاريه ، لا شكّ أن ذلك يؤذيها و يؤلمه . ولانها لم تكن حرّه كريمه فهي لا تساوي أصغر الأشياء و أحقرها .

ولم ينجح أبناء المعتمد من هجائه ، فأثبت لهم أقبح الصفات النفسيه و الجسديه فهم " قصار الأذرع " كنايه عن قعودهم عن المفاخر و جلائل الأعمال . وهم "صفر الوجوه " لسقمهم و ضعف بنيتهم ، و ما يترتب عليه ذلك من كسل و خمول . و هم " قصار القدود " .

و رجع الى هجاء المعتمد ثانيه ، فأشار الى ما يستقبح ذكره .

وقد غلب على النص الأسلوب المباشر و التصريح الفاحش . وكان "الماضي" من أهم الأمور التي استغلها ابن عمار في هجائه ، مستلهما التراث القديم . مستخدما "التشبيه" و"الكنايه" لابراز معانيه .

لم يستطع ابن عمار الاحتفاظ بـ"عرش" مرسيه طويلا ، بحيث استغل القائد ابن رشيق خروجه ذات يوم لتفقّد بعض الحصون ، فأغلق أبواب مرسيه في وجهه و منعه من دخولها (1) ، فغادرها ابن عمار هائما على وجهه ، نادما على ما اقترف في حقّ المعتمد الذي قرّبه و أعلى منزلته ، ((وامتزج به امتزاج الماء بالعقار)) (2) .

و قصد - فيمن قصد - المؤتمن بن هود (3) ، و زيّن له أمر الاستلاء على قشوره

---

(1) الفتح ابن خاقان ، قلائد العقيان تقديم محمد العنابي (د.ط، تونس: المكتبه العتيقه ، 1386هـ/1966م) ، ص102 . (نشير اليه "بالقلائد") . وورد في (الحله السيراء 2 : 142 ، 145 ما يخالف ذلك .

(2) الخريده 2 : 82 .

(3) هو يوسف بن أحمد بن هود ، ملك سرقسطه من 474هـ/1081م الى 478هـ/1085م .

و أغراه بهما . فوكل اليه المؤتمن مهمة السير اليهما وفتحهما ، وأعانه بالرجال والمال ، الا أن صاحبهما عتاد الدوله أبا محمد عبدالله بن سهل (1) ، أفشل مسعاه، وتمكن منه و أوثقه بالحديد .

ولما سمع المعتمد بن عباد بنبأ أسره ، سرّ سرورا عظيما ، وسمى للظافر به ، فكان له ما أراد ، بعد أن وعد عتاد الدوله بمال كثير . وسيق ابن عمار منكسر الخاطر ، مقيدا ، الى قرابه ، ومنهما الى اشبيليه حيث أودع السجن .

و من السجن بعث ابن عمار الى المعتمد قصائد استعطافيه آلان بها قلبه (2) ، فوعده بالصفح و العفو . غير أنه ما لبث أن باشر قتله بيده ، اما بسعايه من أعداء ابن عمار ، و اما لافشائه وعد العفو (3) ، وتحريض اعتماد الرميكيّه على قتله (4) .

و انتهت حياه ابن عمار و مخاصرته السياسيه نهايه مأسويه شنيعه في سنه 477 هـ/ 1084م .

وجّهت له تهم كثيره ، كانت كل واحده منها كافيه لانزال العقوبه به ، الا أن الهجاء يبقى أقوى الأسباب التي دفعت المعتمد الى قتله بيده .

ومن هجاء الحكام في عصر ملوك الطوائف كذلك ، أبيات الشاعر حكم ابن الخلوف المشهور بالمحل (5) ، في عتاد الدوله صاحب شقوره "لبيعه" ابن عمار للمعتمد بن عباد .

و أبياته أقرب الى اللوم و العتاب منها الى الهجاء . وقد نعى عليه فيها فعله الذميم بابن عمار ، و متابعته في ذلك لأهل الخشع و الطمع ، و أنه لو فك

---

(1) ورد اسمه في (الذخيره 2/1 : 417) عتاد الدوله أبو محمد بن سهيل . وذكر ابن الأبار في (الحلّه السيراء 2 : 149-150) أن سراج الدوله صاحب معقل شقوره ابن اقبال الدوله علي بن محامد ، صاحب دانيه (436-468هـ/ 1044/ 1086م) لما توفي ، خلفه على حرمه و ولده عبدان : ابراهيم و عبدالجبار ابنا سهيل.

(2) منها حائيته التي مطلعها (الطويل) :
((سحابك ان عافت أندى وأسمح . وعذرك ان عاقبت أحلى و أوضح)) .
(القلائد : ص : 119 ، و الذخيره 2/1 : 420 ، والحله السيراء 2 : 153 وغيرها) .

(3) راجع : الذخيره 2/1 : 429- 430 ، والحله السيراء 2 : 159-160 .

(4) راجع : المغرب 1 : 390-391 ، ونفح الطيب 4 : 212 .

(5) من شعراء شقوره في عصر ملوك الطوائف . راجع : المغرب 2 : 68 .

أسره ، و خلّى سبيله ، لكان خبرا له . يقول[1] (سريع) :

((بعت ابن عمّار بمال وعمل .·. مثل ابن عمّار بمال يباع ؟

عمري لقد تباعت فيه الذي .·. قد جاءه من قبل أهل السّماع

فوطّن النفس على سنّه .·. ينبو - اذا تذكر - عنها السّماع)) .

2 - هجاء الوزراء

لم ينج بعض الوزراء الأندلسيين من ألسنة الشعراء . وقد حفظت لنا بعض المصادر نماذج مختلفة مما قيل فيهم ، وقد تنوعت بواعث الهجاء و معانيه و أساليبه من شاعر الى آخر . من ذلك أبيات أحمد بن محمد بن فرج البلوي المعروف بالبلساري[2] التي هجا فيها حامد الزجالي[3] كاتب الامير محمد بن عبد الرحمن المرواني (238-273هـ/ 852-886م) ووزيره . وكان حامد ((أديبا حليما عفّا جميل الخصال ، غلا أنه كان يعاب بالبخل و الاقتصاد[4])) . وحدث أن اتّخذ صنيعا ((قتّر فيه على من شهده ، و ناقض مروءته[5])) ، فاستغلّ البلساري تلك المناسبة وهجاه بقوله[6] (كامل) :

((فعل اللّئيم وليته لم يفعل .·. و أتى بفعل مثل لم يحمل

ذبح الضّفادع في التّمنيع ولم يدع .·. للنّمل حارحه ولا للقمّل

وضع الطّعام فلو علته ذبابه .·. وقعت لتكمل شبعه لم تكمل

---

(1) المغرب 2 : 68 .

(2) لم أعثر على ترجمته في ما وقع بين يديّ من مصادر .

(3) هو حامد بن محمد بن سعيد الزجالي ، بربري من مدينة تاكرنّا . توفي في سنة 268هـ/ 881م . راجع بعض أخباره و أخبار أبيه الملقب بـ" الأصمعي " في المقتبس ، (تحقيق محمود علي مكّي) ، ص: 32 ، و المغرب 1 : 330 ، ونفح الطيب 3 : 539 .

(4) ابن حيان ، المقتبس من أنباء أهل الاندلس. تحقيق محمود علي مكّي (د . ط ، بيروت : دار الكتاب العربي ، 1393هـ/ 1973م) ، ص: 36 . (نشير اليه بـ"المقتبس" تحقيق محمود علي مكّي) .

(5) (6) م . ن ، ص: 37 .

وكأنما خرطت صحاف طعامه . . . من دقّه ودمامه من خـــردل

و كأن فتره صحفه عن صحفـه . . . في البعد و الابطاء فتره مرسل)) .

ان السبب الظاهر لهذا الهجاء بخل حامد الزجالي ، و تقتيره علـى ضيوفه ، غير أن ابن حيان (ت 469هـ/ 1076م) ذكر سببا خفيا الى جانبه ، وهو أن البلساري أرسل ((آفه على أهل هذا البيت لأمر أوذي به من بعضهم، فعمّم بمحائه و أفحش لهم (1))) .

وهذا الهجاء - على قصره - جيد . وتكمن جودته في مظاهر كثيره منها توفيق الشاعر في شدّ انتباه المتلقي من البيت الأول ، وجعله يتألّع بلهفه وشوق الى معرفه الأمر القبيح الذي أتاه الوزير حامد الزجالي ، وذلك بايراد الفعل " فعل " مثبتا ثم نفيه "لم يفعل" ، وهو ما يعرف في علم البديع بـ "طباق السّلب" ، بعد التمني . ومنها عفّه مذهبها ، لأن الشاعر لم يتّخذ الفحـش سبيلا للنيل من مهجوّه ، وانما ركّز على صفه نفسيه واحده مذمومه ، اشتهر بها بين الناس ، وهي البخل الشديد . ومنها براعته في ابراز شحّه على نحو لا يخلو من مبالغه ، فذكر "المواد" التي أعدّ منها الطعام ، ثم هيأته بعد تحضيره ، والصحاف التي قدّم فيها ، و أخيرا المدّه الفاصله بين صحفه و أخرى .

وهكذا سلب الشاعر حامدا الزجالي صفه الكرم بمقطوعه قصيره ، تمتاز بسهوله الألفاظ و قرب المعاني ، وبالعفّه و المبالغه .

ومن هجاء الوزراء في عصر ملوك الطوائف ، هجاء المعتمد بن عبـاد لأبي بكر بن عمار ، وزيره المنتزي منه بمرسيه . وقصيدته - كما مرّ بنا - تذييـل لأحد أبيات ابن عمار ، من قصيده بالغ فيها في الفخر بنفسه ، والبيت المذيّـل هو :

((كيف التغلّت بالخديعه من يدي . . . رجل الحقيقه ، من بني عمار)) .

---

(1) المقتبس (تحقيق محمود علي مكّي) ، ص: 38 .

فقال المعتمد بعده (1) (كامل) :

((الأكثرين مسوّدا و ملكا .·. و متوجا في سالف الأعصار

المكثرين من الكباء لنارهم .·. لا يوقدون بغيره للساري! (2)

و المؤثرين على العيال بزادهم .·. و الضاربين لهامه الحبّار

النّاهضين من الهجود الى العلا .·. و المنهضين الغار بعد الغار!

ان كوثروا كانما الحسب، أوفاخروا .·. فمن الأكاسر من بني الأحرار!

يضحي مؤلمهم بؤمّل كسبه (3) .·. و يبيت حلرهم عزيز الجار

تبكي عليهم شنّبوس بعبره .·. كأتيّما المتدافع التّيار

يبكي لهما (5) القصر المنيف، تلألأت .·. شرفاته في خضره الأشجار!

ماضاحكته الشمس الاّ خلته .·. نضحت جوانبه بما نضار

تبكي القيان تجاوبت أوتارها .·. في ساحتيه تجاوب الأطيار

ياشمس ذا (6) القصر كيف تخلّصت .·. فيه اليك طوارق الأقدار

لمّا تتلاه شعوب حتى (7) حاوزت .·. غلب الرجال و سامي الأسوار (8)

كم كان من أسد هنالك خادر .·. لك حارس بأسنّه وشفار؟

من قومك الزّهر الوجوه اذا الوغى .·. كست الوجوه الفرّ ثوب القار

من كلّ أشوس خائض في لجّه .·. نحم الكماه بشعله من نار

لمّا نماهم للعلى عمّارهم ، .·. تركوا العداه قصيره الأعمار)) .

وهكذا نال المعتمد من ابن عمار بالتعريض المؤلم، فنسبه الى قوم أمجاد، ملوك وأسياد .و عرّض بقريبته الخاطه " شنّبوس" و بأمه " شمس" مستوحيا صفاتهم الحميده

---

(1) ديوان المعتمد بن عباد . تحقيق رضا الحبيب (د . ط . تونس: الدار التونسيه للنشر، 1975م) ص: 141-142 . وراجع: الذخيره 2/ 1 : 413، والحله السيراء 2 : 156 .

(2) الكباء : عود البخور، أو ضرب منه . (ج) كبا .

(3) في (الذخيره 2/ 1 : 413) و (الحله السيراء 2 : 156) : سبيه .

(4) شنّبوس: اسم قريه بباديه شلب (SILVES)، كانت مقرّ سلف ابن عمار . (عن الذخيره 2/ 1 : 414).

(5) في الذخيره : بها .

(6) شمس: اسم والده ابن عمار . راجع الذخيره 2/1: 414 والحله السيراء 2 : 157 .

(7) ساقطه في الديوان . والزياده من الذخيره و الحله السيراء .

(8) في الديوان : الأسوار . والتصويب من الذخيره و الحله السيراء .

من صفات عرب الجاهليه و قيمهم ، كإيقاد النار ليلا للسارين ، وتمكم به حيـــن جعلهم يوقدون النار بأعواد البخور ، و كالشجاعه ، وحمايه الجار ، وكثره الغاره ، و الافتخار بكثره الرجال و غيرها .

و اما القصيده - كما هو واضح - مدح و باطنها هجاء . وهي ميزه لـــم أجد لها في الهجا الأندلسي مثيلا ، ولذلك قال ابن بسام انها (1) ((من مليـــح التعريض و مقلوب التقريض (2))) .

وكان وقعها في نفس ابن عمار شديدا ، لأن " بني عمار " أسلافه لـــم يكونوا في الواقع كما وصفهم المعتمد بن عباد ، وهذا يعني أنه لم يكن مـــن البيوتات العريقه المعروفه بمجدها الشامخ الأثيل ، ولذلك امتاح واستوحش (3) لأن القصيده قد هتكت ادعاءه الباطل ، و ذكرته بضعه نسبه و خموله ، فاندفع يمحو المعتمد دون تفكير في العواقب .

ومن هجاء الوزراء في عصر بني الأحمر بغرناطه ، هجاء لسان الديـــن ابن الخطيب (ت 776هـ/ 1375م) لابراهيم بن أبي الفتح ، وزير اسماعيل (الثاني) ابن يوسف (الاول) بن اسماعيل بن فرج بن نصر (760هـ/ 1359م) .

وكان الباعث على الهجاء أن ابن الخطيب ، وزير محمد الغني بالله (755-760هـ/ 1354-1359م) ، وقع ضحيه تنازع ابني يوسف الاول على العـــرش ، فسجن وصودرت أمواله ، ثم أطلق سراحه و انتقل الى المغرب بشفاعه السلطـــان أبي سالم المريني (4) ، لاحقا بالغني بالله . ففي 28 رمضان 760هـ/ 21 أوت 1359م وثب أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن فرج على القصر و خلع محمدا الغني بالله ،

---

(1) الذخيره 2/1 : 413 .

(2) في الاصل : القريض . ولعل الصواب ما أثبتناه ، والتعديل باشاره من الاستاذ المشرف .

(3) الحله السيراء 2 : 157 .

(4) أبوسالم بن أبي الحسن حكم من سنة 760هـ/ 1359 م الى 762هـ/ 1361 م .

وأحلس أخاه اسماعيل (الثاني) مكانه .وبعد مضي أقل من سنه ثار عليه وقتله، وتربع على العرش ،واستوزر محمد بن ابراهيم بن أبي الفتح . و أقام الغني بالله و وزيره ابن الخطيب في بلاط بني مرين بالمغرب مدّه ، يتابعان الأحداث من بعيد ،ويسعيان لاسترداد سلطانهما و العوده الى غرناطه .

وانتهت الفتنه بقتل محمد بن اسماعيل بن فرج ،وعوده الغني بالله الى غرناطه . كما انتهت حياة ابراهيم بن أبي الفتح و ابن عمه محمد بن ابراهيم بالجلاء عن الأندلس و الموت في البحر غرقا .

ولما علم ابن الخطيب بمصرعهما ،أنشأ قصيده في هجاء ابراهيم ابن ابي الفتح و الذمّ به . استهلها بالنصح و الارشاد قائلا[1] (منسرح) :

((كن من صروف الرّدى على حذر .·. لا يقبل الدهر عذر معتذر
و لا تعوّل فيه على دعه .·. فأنت في قلعه وفي سقر
فكلّ ريّ يفضي الى ظمأ .·. وكلّ أمن يدعو الى غرر
كم شامخ الأنف ينثني فرحا .·. .....)) (...)

ثم تحدث عن وزاره ابن أبي الفتح المشئومه ومصيره :

((قل للوزير البليد قد ركبت .·. في ربعك اليوم غاره الغير
يا ابن أبي الفتح نسبه عكست .·. فلا بفتح أتت ولا ظفر
وزاره لم يجد مقلّدها .·. عن شؤمها في الوجود من وزر
في طالع النحس حزت رتبتها .·. وكلّ شيء في قبضه القدر
أيّ اختيار لم تأل نصبته .·. في جسد للنحوس أو نظر
بات له المشتري على غير .·. و أحرقت فيه قرصه القمر))

ثم أخذ في تعداد مثالبه :

---

(1) نفح الطيب 5 : 140 - 142 .

((يا ذلا ما عليه من عمل .·. يا شعرا ما لديه من ثمر

يامفرط الجهل و الغباوه لا .·. يحسب الاّ من حمله البقر

يادائم الحقد و الغطاطه لا .·. يفرق ما بين الم و بري

يا كمد اللّون يدافي كمدا .·. من حسد يستطير بالشّرر

ياعدل سرج يا دنّ مقتمد .·. ملآن من ربيه و من قذر

يا واصلا للجشاء ناشفه الليـ .·. ـل وربّ ...في السّحر

من غير لبّ ولا مراقبه .·. لله في مورد ولا صدر

ياخاملا حاهه ... يرى .·. صهر أ لي الحاه فخر مفتخر

كانوا نبيلا في الأصل أوحبشا .·. ما عنده عبره بمعتبر

يا ناقص الدين و المروءه والعقـ .·. ـل ومحري اللسان بالهذر

ياولد السّحق غير مكتتم .·. حديثه يا ابن فاسد ...

يابغل طاحونه بدور بحسا .·. محتمد السير مغمض البصر

في أشعر عشره طحنتهم .·. فيا رحى الشؤم و البوار دري (1)

والله ما كنت با مشوم و لا .·. أنت سوى عرّه من العرر

ومن أبو الفتح في الكلاب وهل .·. لجاهل في الأنام من خاطر

قد ستر الدهر منك عورته .·. وكان لليوم غير مستتر

حانوت بزّ يمشي على فرش .·. وثور عرس يختال في حبر

لا منّه تتّقى لمعتـ ـرك .·. ولا لسان يبين عن خبر

ولا يد تنتمي الى كرم .·. ولا صفاء يربح من كدر

عهدي بذاك الحسين قد ملئت .·. غضونه الغبر بالدّم الهدر

عهدي بذاك القفا الغليظ وقد .·. مدّ لوقع المهنّد الذّكر)) .

---

(1) في الأصل : در . و الصواب أن يقول : دري ، لأنه أحوف لكنه عامله معامله المثال لضروره الشعر . و التصويب باشاره من الاستاذ المشرف.

وختم القصيده بالحديث عن نهايته الفاجعه ، و ما ينتظر أبناءه الصغار و أمهم من معلنـاه :

((أهدتك للبحر كفّ منتقم . . ألقتك للحوت كفّ مقتـــدر

يا يتم أولادك الصّغار ويـا . . حيرتهم بعد ذاك في الكبـر

يا ثكل تلك الصّمّاء أمّهم . . وطاعن الموت غير منتظـــر

واللّه لا نال من تخلّفـــه . . من أمل بعدها ولا وطـــر

واللّه يا مسخفان لا انتقلت . . رحلك منها الاّ الى سقـــر

ألحفك اللّه بالهـــوان ولا . . رعاك فيمن تركت من عـــر

ما عوقب الليل بالصّباح وما . . تقدّم البرق عارض المطـــرا))

تتألف هذه القصيده من ثمانيه و ثلاثين بيتا ، موزّعه على أربعه أقسام واضحه ، ولكنها متكامله ، تكوّن في مجموعها وحده ملتحمه . و هذه الأقسام هي :

1- النصح و الارشاد . (1 - 4)

2- وزاره ابن أبي الفتح المشئومه. (5 - 10)

3- مثالب ابن أبي الفتح و عيوبه. (11 - 31)

4- نهايه ابن أبي الفتح و معاناه زوجه و أبنائه من بعده. (32 - 38)

واذا كان القسم الأول يكاد يكوّن بمفرده وحده مستقله ، فان بقيه الأقسام وثيقه الارتباط ، يجمع بينها خيط رفيع هو الهجاء ، الذي محوره ابن أبي الفتح .

دعا ابن الخطيب في القسم الأول من قصيدته الى ضروره الاحتراس من الزمن و نوائبه ، وعدم الاغترار بالأيام و ان أبدت صفاء وانقيادا ، لأنها ذميمه ، ومن طبعها التغيّر و عدم الثّبات على حال . وعزّز فكرته بحكمه وهي أن بعد كل ريّ ظمأ ، و اثر كل أمن و طمأنينه هلاك .

ودعا أيضا الى ضروره الاعتبار بنهايه الجبابره و الطغاه و المتكبرين الذين أعلاهم الزمان ، فنالهم منهم وقتا ، ثم استيقظ لهم و انتقم منهم شر انتقام ، وأذلهم

ازلالا شديدا .

ولا شك في أنه ذهب الى ذلك و في ذهنه أعمال ابن أبي الفتح أيّام عزّه ، و الذعايه الفظيعه التي انتهى اليها بعد أن جرّد من سلطانه .

و انتقل ابن الخطيب بعد ذلك الى هجاء ابن أبي الفتح و ذمّه بدافع الحقد و الكراهيه . وكان للهجاء السهم الأسد من قصيدته ، اذ نراه يشغل بقيه القصيده .

بدأ الشاعر القسم الثاني من القصيده بقوله : " قل للوزير البليد " و كأنه يكلّف أحدا بابلاغه رساله ، ولكن ما محتوى هذه الرساله ؟ - لقد هوى عزّك و سلطانك أيها الوزير البليد . انك تنسب الى " أبي الفتح " ، ولكنها نسبه عكست ، فلم تأت بفتح و لا نصر . لا تظن أنك نلت الوزاره - التي فرحت بها ، وغرّتك فتهت و تجبرت - بسبب مواهب أو كفاءات معيّنه . لا ، بل لأنها كانت مشئومه ، لا خير فيها ، ما عرضت على أحد الا رفضها ، فحزت أنت رتبتها في " طالع النحس " . وكذلك رأيك ، فما همت بأمر الا " وبات له المشتري على غير ؟ " و " أحرقت فيه قرصه القمر " ؟

لقد سلب ابن الخطيب الوزير أحسن الصفات العقليه (الذكاء و الفطنه) ، و أثبت له بدلها أقبحها و هي البلاده كما استغل نسبته " أبا الفتح " في هجائه ، و تهكم به . و حمل الوزاره مشئومه ، وحاز رتبتها باراده الأقدار في " طالع النحس " .

أمّا القسم الثالث فكله هجاء ، ألقى فيه ابن الخطيب لنفسه العنان لتعبّر عمّا يدور في صدره من مشاعر الحقد و الاحتقار ، فجاء هذا القسم طافحا بالذّم و الشتم الدالين على عداء دفين و حقد مبين .

تبدأ أكثر الابيات بأداه النداء " يا " المختصّه بنداء البعيد ، للدلاله على انحطاط قيمه الوزير ابن أبي الفتح ، وهوان منزلته عنده ، متبوعه بـ " تشبيه " أو " صفه " أو أكثر الداله عن التحقير .

و قد اجتهد ابن الخطيب في أن يثبت لعدوّه كل صفه قبيحه مشينه ، منها :

الجهل و الغباء و الحقد و الحسد و الفاحشه و الظلم ،ونقصان العقل و الشرشره، و الشّره ،والبخل . وطعن في ايمانه ،وغمزه بنسبه فأشار الى جهل أبيه ،و أسفّ حين طعن في عفّه أمّه و جعله ابنا لغير رشده،و رمى أباه بالفجور . كما أسفّ كذلك لما أومأ الى مصدر حامه.

وقد شبهه بالأشجار و الحيوانات ،فهو " شجر بلا ثمر" ،و " بغل طاحونه " و " ثور عرس ".

و أما القسم الأخير فأشار فيه الى نهايته الوخيمه على يد منتقم مقتدر ، و الى معاناه أولاده في الصغر و حيرتهم في الكبر،والى ثكل زوجه " الصماء" بأسلوب لا يخلو من تندّر. ويقسم بأن مصيره جهنّم جزاء ما قدمت يداه. و أخيرا دعا عليه بالخزي و الهوان ،وعلى أولاده بالضياع و عدم الرعايه ما أعقب الليل النهار،وما تقدم البرق المطر.

و قد اتسمت القصيده بطولها و طغيان الأسلوب الانشائي عليها من أمر و نهي و نداء و نفي و استفهام،

3 - مجاء القضاه.

حظي القاضي في الأندلس بمنزله اجتماعيه عاليه (1). و يحدثنا المقري عن خطّه القضاء و أسباب رفعتها قائلا (2) : ((و أما خطّه القضاء بالأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصه و العامه ،لتعلّقها بأمور الدين ،وكون السلطان لو توجّه عليه حكم حضر بين يدي القاضي ،هذا وضعها في زمان بني أميّه و من سلك مسلكهم ،و لا سبيل أن يتسمّى بهذه السمه الّا من هو وال للحكم الشرعي في مدينه جليله ،وان كانت صغيره فلا يطلق على حاكمها الّا مسدّد ، خاصه،

---

(1) الخشني القروي ،قضاة قرطبه .تحقيق ابراهيم الأبياري (ط 1 ،القاهره: دار الكتب الاسلاميه ،دار الكتاب المصري ،وبيروت : دار الكتاب اللبناني ، 1402هـ/1982م) ، ص: 25-26 ،و حسين مؤنس ،فجر الأندلس (ط 2 ،جدّه :الدار السعوديه للنشر والتوزيع، 1405هـ/ 1985م) ،ص: 639-655.

(2) نفح الطيب 1 : 217- 218.

وقاضي القضاه يقال له : قاضي القضاه و قاضي الجماعه)) .

وقد دعي كثير من العلماء الى القضاء فرفضوه ، لتحققهم من أنه أمانه عايمه و مسئوليه ثقيله ، ذكر منهم الخشني عشره في " قضاه قرطبه "[1] ، وذكر أبو الحسن النباهي سبعه منهم وزاد سته آخرين في " تاريخ قضاه الأندلس "[2] .

لم يسلم بعض القضاه من ألسنه الشعراء ، منهم يخامر بن عثمان الشعباني[3] ، الذي عامل الناس ((بخلق صعب ، ومذهب وعر ، وصلابه حاوزت المقدار ، فلم تحتمل العامه له ذلك ، فتسلطت عليه الألسن ، وكثرت فيه المقاله[4])) . ومحاه - فيمن محاه يحيى الغزال[5] ((منتهك الأعراض ، و مخزي الرجال ، فأكثر محوه و ذمّه ، ووصفه بالبله و الجهل ، فحذر بذكره))[6] . و مما قال فيه (طويل)[7] :

---

(1) ص: 27-37 .

(2) تحقيق لجنه احياء التراث العربي في دار الآفاق الجديده (ط 5 ، بيروت : دار الآفاق الجديده ، 1403هـ/1983م) ، ص: 12-21 . (نشير اليه بـ"المرقبه العليا") .

(3) ترجم له الخشني قال : ((هو يخامر بن عثمان بن حسان بن يخامر بن عبيد بن أقنان بن وداعه بن عمرو . ولي القضاء سنه عشرين و مائتين . وهو أخو معاذ بن عثمان ، و معاذ هذا ، والد سعد بن معاذ الفتيه ، وكانا من أهل حيان من قلعه الأشعث ، وكانا انتسابهما في العرب الى حذام ، فيما أحسب ، وكانا ، فيما قيل لي : من جند قنسرين)) . (قضاه قرطبه ، ص: 121) . وذكر أن الامير عبد الرحمن بن الحكم عزله ، لتألب الناس عليه ، لقله مداراته و سوء معاملته لهم . غير أن ابن سعيد ذكر سببا آخر وهو أن يخامر ((لما قعد يحكم و نظر الى عظام يحيى بن يحيى و غلبته على قلوب الناس كتب الى عبد الرحمن . اني قدمت قرطبه فوجدت لها أميرين : أمير الأخيار وأمير الأشرار ، فأما أمير الأخيار فيحيى بن يحيى ، و أما أمير الأشرار فأنت فاستحفاه ، وعزله)) . (المغرب 1 : 149-150) . راجع : تاريخ ابن الفرضي 2 : 947 (ترجمه رقم 1644) وقضاه قرطبه ، ص: 121 ، المغرب 1 : 149 ، و المقتبس (تحقيق محمود علي مكي) ، ص: 63 .

(4) قضاه قرطبه ، ص: 121 .

(5) هو يحيى بن الحكم و "الغزال" لقب عرف به لوسامته . من شعراء عصر الاماره الأمويه المعمّرين . توفي في سنه 250هـ/863م أو 251هـ/864م أو 255هـ/868م . للتوسع راجع : المقتبس (تحقيق محمود علي مكي) ، ص: 433 ، و بغيه الملتمس ، ص: 485 (ترجمه رقم: 1467) ، و المطرب ، ص: 133 ، و المغرب 2 : 57 ، و الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافه ، ص: 153 ، و تاريخ الادب الاندلسي : عصر سياده قرطبه ، ص: 157 ، و غيرها .

(6) المقتبس (تحقيق محمود علي مكي) ، ص: 64 .

(7) ع.س ، ص.ن .

((فسبحان من أعطاك بطشا وقوه ... وسبحان من ولّى القضاء يخامرا)).

يتعجب الغزال ممن أعطاه لمخاطبه القوه و البطش ، كما يتعجب ممن ولّى يخامر القضاء . و نلاحظ تكرار الشاعر للسبحله، و بالرغم من أنه قصد التعريض بيخامر الا أنه يوهمنا بأنه ذكره عرضا . و ينال منه بالأسلوب نفسه في قوله (طويل)[1] :

((فقلت له كلّفتني غير صنعتي ... كما قلّدوا فضل القضاء يخامرا

فأصبح قد حارت به طرق الهوى ... يكابد لحيّا من البحر زاخرا

فقلت : لو استعفيت منها ، فقال لي : ... سأفضح ما قد كان منك مغايرا

فقلت له : رأس الفضوح اقامه ... علينا كذا من غير علم مكابرا

وخبطك في دين الإله على عمى ... خباطه سكران تكلّم سادرا

فلم تحمل الصخر الذباب ولن ترى السّلاحف يزجين السّفين المواخرا)).

وتقوم هذه الأبيات على عنصر الحوار و المبالغه ، وذلك عند قطع الشاعر باستحاله قيام يخامر بالقضاء و عجزه عنه كعجز الذباب عن حمل الصخر ، و السلاحف عن تزحيه السفن .

و قال فيه الغزال ساخرا من جهله[2] (مجتث) :

((لقد سمعت عجيبا ... من آبدات يخامر

قرا عليه غلام ... "طه" وسوره "غافر"

فقال : من قال هذا ؟ ... هذا لعمري شاعر

أردت صفع قفاه ... فخفت صوله جائر

أتيت يوما بتيس ... مستعبر متحاسر

فقلت : قوموا اذبحوه ... فقال : اني يخامر!)).

ولم يكن يحيى الغزال الشاعر الوحيد الذي رمى القاضي يخامر بالجهل و الغفله ، وسخر منه و انما هناك ابن الشّمر[3] كذلك الذي استغلّ هذا الجانب ،

---

(1) (2) المقتبس ، (تحقيق محمود علي مكي) ، ص: 64- 65.

(3) عبد الله أو عبد الرحمن ابن الشمر ، شاعر الأمير عبد الرحمن بن الحكم و نديمه. راجع: نفح الطيب 3 : 130 ، 313.

ونفذ منه، وهجاه . حكى الخشني أن محمد بن عيسى قال :

طرح ابن الشمر بين سحاءة يخامر بن عثمان الشعباني سحاءه مكتوب فيها : يونس بن متى ، و المسيح ابن مريم ، فخرجت السحاءة الى يخامر، فأمر أن يدعى بهما ، فهتف الحاشية : يونس بن متى ، و المسيح بن مريم ، فصاح ابن الشمر : نزولها من اشراط الساعه ، ثم أخذ سحاءه فكتب فيها (طويل) :

يخامر ما تنفك تأتي بفضحه . . دعوت ابن متى و المسيح بن مريما
بما قلت حينا ثم نادا ك صائح . . بأنهما ليسا على الارض فاعلما
فقال قفا حربا ووجهي (1) مسلم . . وعقلك ما يسوى من البعر درهما
فلا عشت مودودا و لا عشت سالما . . ولا مت مفقودا و لا مت مسلما . (2)

ان المغمز الذي ركز عليه الغزال و ابن الشمر هو الجهل و ضعف العقل ، و بالتالي فان يخامر ليس أهلا للقضاء ، لأنه يفتقر الى العلم الذي يعدّ من ابرز أدوات القاضي و شروط القضاء .

و هجا أبوبكر الأبيض ابن حمدين (3) قاضي قرطبه ، فقال (4) (متقارب) :

((يريد ابن حمدين أن يعتفي . . و حسدواه أنأى من الكوكب
اذا ذكر الجود حك استه . . ليثبت دعواه في ثغلب)) .

ويلاحظ أن أبا بكر الأبيض سلب القاضي ابن حمدين احدى الفضائل الحميده ألا وهي الجود . واستغل بخبث نسبه التغلبي ، فاقتبس بيته الثاني من قول جرير في بني تغلب (كامل) :

---

(1) في الاصل : "ووجهه" . وهو تصحيف .
(2) قضاه قرطبه ، ص : 122 .
(3) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي تولى القضاء بقرطبه مرتين ، ((وكان نافذا في أحكامه ، جزلا في أفعاله ، وهو من بيت علم ، و دين ، و فضل ، و جلاله)) . (المرقبه العليا ، ص : 103) . توفي في سنه 521هـ/1127م .
(4) المغرب 2 : 128 .

((والتغلبي اذا تنحنح للقرى ... حكّ استه و تمثّل الأمثـــالا)) .

الذي قيل انه أحسن بيت قالته العرب .(1) و قال عنه حرير صاحبه :(2) ((والله لقد محوت بني تغلب ببيت لو طعنوا في استاههم بالرماح ما حكّوها !)) .

و هجا المخزومي الأعمى أحد قضاه مرسيه بقوله (طويل)(3) :

((تسمّع أمير المؤمنين لنبـأه ... تصمّ لها الآذان في كلّ مشهد

بمرسيه قاض تجاوز حـــدّه ... و أخطأ وجه الرّشد في كل مقصد

يأالبه الأيتام في حلّ مالهم ... و يطلبه في حقّه كلّ مسحـــد

فما بيّضت كفّاك بالعدل لمتزل ... تسوّده بالجور كفّ ابن اسود)) .

وهذه الأبيات أقرب الى الشكوى منها الى الهجاء ،وهي على شكل تقريـر رفعه الشاعر الى الأمير ،يشكو فيه جور قاضي مرسيه و حيفه و عبثه . واعتمد الشاعر ليكون لأبياته تأثير قوي شديد ،فاستهلّها بفعل أمر " تسمّع" ،موجـــه الى أمير المؤمنين ،لنبأ تصمّ له الأذان في كل مكان . وهذا الاستهلال يحمل نفس الانسان ملتهفة لمعرفة هذا النبأ القبيح و الاطلاع عليه . ثم بيّن عدم أهليه القاضي لوظيفته . وبعد التعميم جنح الى التخصيص ،فذكر امتداد يده الى أموال الأيتام و المساجد بغير حقّ . و ختم الأبيات بمقابلة جيدة ،بيّن في صدر البيت عدل الأمير ،و في عجزه ظلم القاضي و جوره .

---

(1) (2) ابن عبد ربّه ،العقد الفريد . تحقيق أحمد أمين و أحمد الزين وابراهيم الأبياري (د . ط) ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ؛ ، 1402 هـ/1982م) ,5:275.

(3) المغرب 2 : 270 .

و هجا الأعمى المخزومي أبا محمد عاشراً[1]، قاضي مرسيه بمقاطوعه، منها[2] (متقارب):

((تأملت تسعه رهط الفساد . . فألفيت عاشرهم عاشرا)).

و نلاحظ اقتباس الشاعر من القرآن الكريم في قوله تعالى[3]: ((و كان في المدينه تسعه رهط يفسدون في الأرض و لا يصلحون)).

و قال أيضاً في أحد قضاه بيّاسه[4] (طويل)[5]:

((أضح للذي لم يأت دهر بمثله . . لعمري ولم يسمع قطّ سامع

لبيّاسه قاض قطيم مشولل . . ثوالبه من أن . . . موانع

فراحته في أن يرى . . . عرسه . . كذي العرّ[6] يكوي غيره وهو راتع)).

يرمي الشاعر القاضي بالفجور، ويصفّه اسفافا ما بعده اسفاف، حين لا يكتفي بذكر شذوذه و انما يطعن في علاقه، و يحمله دبوثا، لا يغار على أهله، بل و يرضى بفجور زوجه، و يجد في ذلك متعه و راحه.

ولعل مما يستلفت الانتباه فيها هو تضمين صاحبها لعجز بيت النابغه الذبياني[7]:

((لكلفتني ذنب امرئ و تركته . . كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع)).

---

(1) أبو محمد عاشر بن محمد بن عامر، أحد قضاة مرسيه و قضاتها. راجع: بغيه الملتمس، ص: 425 (ترجمه رقم 1270).

(2) صفوان بن ادريس التجيبي، زاد المسافر وغرّه محيا الأيب السافر. أعده وعلق عليه عبد القادر محداد (د.ط.، بيروت: دار الرائد العربي، 1980م)، ص: 119. (نشر اليه بـ "زاد المسافر").

(3) س. النمل، آ: 50.

(4) ع.س، ص: 117-118.

(5) بيّاسه: (BACZA) مدينه كبيره تقع شمال شرق جيّان (JAEN) راجع: معجم البلدان (2) 1، ص 513.

(6) العرّ: قروح مثل القوباء تخرج بالابل متفرقه في مشافرها و قوائمها يسيل منها مثل الماء الاصفر، فتكوى الصحاح لئلا تعديها المراض. (لسان العرب، ماده: عرر).

(7) ديوان النابغه الذبياني، جمع وتحقيق وشرح محمد الطاهر ابن عاشور (د.ط.، تونس: الشركه التونسيه للتوزيع، والجزائر: الشركه الوطنيه للنشر و التوزيع، 1976م) ص: 127

وقال ابن حزم عن يحيو القاضي القسطلّي - وكان أخفش - من موشّحه لم يحفظ لنا منها سوى هذا الجزء: (1)

((تخونك العينان يا أيّها القاضي فتظلم

لا تعرف الأشهاد ولا الذي يسهّد ويرسم)).

ومهما حاولنا استنطاق هذا الجزء، فانه لا يبوح لنا بأيّ سرّ ذي بال لقصره، ولكن أهميّته تكمن في أنه يقوم دليلا على أن " الموشح " كان، بالاضافه الى الشكل التقليدي للقصيده العربيه، اطارا مريحا و قالبا مناسبا، أفرغ فيه بعض شعراء الأندلس معاني هجائهم.

هجاء أصحاب العاهات الجسديه

يولد بعض الناس مشوّهين الخلقه، و يولد بعضهم سلماء، ثم يمرضون أو يتعرضون لحادث من الحوادث، فتخلّف الامراض أو الحوادث آثارا سلبيه على أجسادهم فيفقدون بذلك شيئا من حماهم الطبيعي، يبدو في عدم الانسجام و التناسق في أجسادهم كأول الوجه أو الأنف، وكبر الفم، والحدب، والصلع، و القتر، وغير ذلك.

على أن العيوب الخلقيه أو التشويهات العارضه بسبب الأمراض أو الحوادث ليست هي العوامل الوحيده في القبح و السماجه، فهنالك أيضا الكبر وعدم الاهتمام بالهندام وغيرهما، التي تؤثر في سمت الانسان وتجعله يبدو في مظهر قبيح مزر.

عندما يندمج هؤلاء المشوّهون في المجتمع، ترمقهم الأعين بسرعه لتميّزهم أو لذمامتهم، ويضحون غرضا للسخريه فئه من الناس طبعت على التحرش بالغير من أجل الاضحاك منهم و استثارتهم.

وقد اتخذ بعض الشعراء هذه الفئه من الناس موضوعا لبعض أهاجيهم، ويعدّ ابن الرومي (ت 283هـ/ 896م) من أعلامهم. (2)

---

(1) المغرب 2 : 216.

(2) راجع : ابن الرومي لأحمد خالد (د.ط، تونس: الشركه التونسيه للتوزيع، و الجزائر: الشركه الوطنيه للنشر و التوزيع، 1977م)، ص: 127. (الرائف، 2).

ان هجاء أصحاب العاهات الجسديه ليس بالامر الهيّن ، ولا يتيسّر لكل الشعراء لأنه يقوم على تحسيد العيوب و ابرازها في صوره أقبح مما هي عليه ، من أجل الاضحاك ، فهو يتطلب بالاضافه الى الموهبه الاستعداد الفطري و قوه الملاحظه و سعه الخيال .

و لشعراء الأندلس نصيب في هذا اللون من الهجاء . من ذلك قول عبد الله بن كليب[1] في أنف الزمر (سريع) :

((أنفك يا زمريّ في قبحه .·. كأنّه في صوره البوق

يقعد في البيت لحاجاته .·. و أنفه يمضي الى السوق)) . (2)

استطاع الشاعر أن يرسم لنا في البيتين أنف الزمريّ رسما كاريكاتوريا ، أوتصويرا ساخرا[3] مضحكا . وتبدو براعته جليه في أمرين : أولهما ، اهتداؤه الى ايجاد مايشبه شكل الأنف ، وهو البوق في طوله و رقّته من جهه ، و غلظته أو فلطحته من جهه أخرى . و ثانيهما ، المبالغه في التعبير عن طول الأنف مبالغه يبدو معها " خرطوم " الفيل أفطس .

و يربط أبو تمام الحجام[4] بين قصر القامه و ضعف البنيه و بين السلوك القبيح الضار ، فيقول[5] (وافر) :

---

(1) لم أعثر على ترجمته في ما وقع بين يدي من مصادر . و أشار احسان عباس الى أن ابن عذاري ذكر من اسمه عبد الله بن كليب ، و أن وفاته كانت سنه 306هـ في عهد عبد الرحمن الناصر . (كتاب التشبيهات ، ص: 298) .

(2) ابن الكتاني ، أبو عبد الله محمد ، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، تحقيق احسان عباس ، ط 2 ، بيروت و القاهره : دار الشروق ، 1401هـ/1981م) ، ص: 248 . انشير اليه بـ " كتاب التشبيهات ") .

(3) أحمد خالد ، ابن الرومي ، ص: 127 .

(4) هو أبو تمام غالب بن رباح ، و الحجام لقب اشتهر به لممارسته الحجامه . من شعراء القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) . ترجم له الحجاري في " المسهب " و مما قال عنه : ((شاعر القلعه الذي نوّه بقدرها ، ورفع رأس فخرها ، . . .)) (عن المغرب 2 : 40) ، وذكره المقّري في (نفح الطيب 3 : 415) فقال : ((. . . ربيّ في قلعه رباح غربيّ طليطله ، ولا يعلم له أب ، وتعلّم الحجامه فأتقنها ثم تعلّق بالآداب حتى صار آيه ، . . .)) . للتوسع راجع : الذخيره 3 / 2 : 821 ، و المغرب 2 : 40 ، و الرايات ، ص: 82 ، و نفح الطيب 3 : 415 وغيرها .

(5) المغرب 2 : 40 .

و يشبّه انقلاب جفن العين ، و بروزها غارقه في الدمع في لجّه ماء ، كما يشبه انسانها بالملاح الذي هبّت عليه رياح قويه فأمالت أحد جانبي زورقه ، فظل يميل في اضطراب خوفا من الغرق .

و من مظاهر الابداع في هذه الأبيات السؤال الماكر الذي يقصد به الاستهزاء ، و توفيق الشاعر - بقوه الملاحظه و سعه الخيال - فيما يسميه أصحاب البديع" تشبيه ثلاثه بثلاثه": العين الشتراء بالزروق ، و الدمع بالماء ، و انسان العين بالملّاح . بالاضافه الى السهوله و المبالغه في تصوير قبح العين الشتراء .

و صوّر ابن سناره الاشبيلي فم بعض هم و ثناياه ، فقال (بسيط) (1)

((وأمّا الثّنايا فانّي لست مثنيا ، ، عن الثناء عليها آخر الأبد
يبدو لنا رفّا منها حين تبصرها ، ، سنّ كمثل مسنّ الصّيقل الفرد (2)
كأنّ جنّ سليمان بنوا فمه ، ، بنيان تدمر بالصّفاح و العمد (3)
يهدي الى السّمع من ألفاظه نثما ، ، كأنّما نفثات السّحر في العقد
له فم كـ . . . في شكل صورته ، ، ترمي غواربه العبرين بالزّبد)) (4) .

---

(1) الذخيره 2/2 : 846 .

(2) يقتبس من قول النابغه الذبياني :

((كأنّ رحلي وقد زال النهار بنا . . يوم الجليل على مستأنس وحد
من وحش وجر موشيّ أكارعه . . طاوي المصير كسيف الصقيل الفرد)) .

(3) ويقتبس من قوله :

((وخيّس الجنّ انّي قد أذنت لهم . . يبنون تدمر بالصّفاح و العمد)) .

(4) ضمن الشاعر عجز النابغه الذبياني من قوله :

((فما الفرات اذا جاشت غواربه . . ترمي أواذيّه العبرين بالزّبد)) .

يؤكد الشاعر في بدايه مقطوعته أنه لن ينقطع عن الثناء على هذه "الثنايا" والاشاده بها ما دام حيّا . و هذا العزم ،وهذا الاهتمام الشديد يحرّك فضول المتلقي ،فيتالّح بلهفه الى معرفه حقيقيه هذه الثنايا التي سيعكف الشاعر على مدحها و التنويه بها . وربما التجأ الى التخييل فتراءت له كالدّر المنظوم .

و عندما يتّلع على البيت الثاني يكتشف أنها "ثنايا" حقيقه فعلا بالمدح و الثناء ! . فكل ثنيّه منها تبدو للناظر بعجم" مسنّ الصيقل الفرد" ،و تتحول أسنان صاحبها - تبعا لذلك - الى "بناء" ضخم كأن "حنّ سليمان" أقامته بالحجاره والرخام . وقد أثّرت هذه الأسنان "العجيبه" على صوت صاحبها فأصبح صوته قبيحا ،يستعاذ بالله منه عند سماعه . وربما قصد الشاعر بذلك أن صاحبها نمّام .

أمّا فم صاحب الثنايا فكأنه "حرّ" ،الّا أنه واسع كالنهر العظيم الذي ترمي أمواجه الزّبد على جانبيه عند فيضانه ! .

وهكذا رسم ابن ساره بمهاره كبيره أسنان هذا المجهول و فمه رسما كاريكاتوريا مضحكا . وقد استعان لتحقيق ذلك بعناصر فنيه عديده كالتشويق و المبالغه و استلهام التراث الأدبي و الديني . و واضح أنّه كان متعصبا للنابغه الذبياني ،أو مأخوذا - على الأقل - بدالّيته التي مدح بها النعمان بن المنذر ،و التي مطلعها (بسيط)[1] :

((يادار ميّه بالعلياء فالسّند . . . أقوت و طال عليها سالف الأبد)) .

ولذلك اختار لمقطوعته البسيط بحرا ،و الدّال رويّا ،و أكثر من الاقتباس منها ،ولكنه اقتباس كاريكاتوري لأنّ قصيده النابغه جديه تدور حول المدح و الاعتذار ،ومقطوعته هزليه موضوعها الهجاء و الاستهزاء .

كان ابن ساره شاعرا فحلا ،و هجاء مجيدا ،متمكنا من أداته . وقد

---

(1) ديوان النابغه الذبياني ،ص: 76 .

أشار الى ذلك الفتح ابن خاقان معاصره بقوله : (1) ((وكانت له آهاج سدّدها نبالا ، وأورث بها خبالا)) . وكان ولوعا في هجائه بالمقاوعات . و يبدو أنه وجدها الاثار الأمثل للهجاء ، و يتفق في ذلك مع كثير من العلماء القدماء . يقول ابن بسام ، مبينا مذهبه و نوع هجوّيه ، وتأثير هجائه عليهم : (2) ((وأولع بالقصار فأرسلها أمثالا ، و رشق بها نبالا ، لا سيما قوارع كرهها على مرده عصره ، و سم بها أنوف أحسابهم و تركها مثالا في أعقابهم)) . الا أنّ موقف ابن بسام الأخلاقي من الهجاء حرمنا من الاطلاع على آهاجيه ، و لو أنه أثبت لنا كثيرا منها ، لاتضح لنا بأنه كما قال - ((بائقه هجاجاه ، و صاعقه مهاجاه)) . (3)

و من النزر القليل الباقي من هجائه ، قوله يهجو "أبخر" في احدى مزدوجاته (4) (متقارب) :

((وأبخر قصّ حديثا لـــه . . فقال الحضور : فما ذا الحدث (5)

فقلت لهم : بادروا بالقيـــام . . فان الفساء نذير الحـــدث)) . (6)

ويتميز البيتان بأمور منها : قيامهما على الحوار و المبالغه و وجود الجناس بين "الحدث" و "الحدث" .

و كان سواد البشره كذلك باعثا لابن سماره على النيل من "الأسود" . يقول في ذهاب فتى وسيم و مجيء رجل أسود مكانه (7) (طويل) :

((مضت جنّه المأوى وجاءت جهنّم . . فما أنا أشقى بعدما كنت أنعم

وما هي الاّ الشمس حان غروبها . . فأعقبها قطع من الليل مظلـــم)) .

---

(1) القلائد ، ص: 299 .
(2) الذخيره 2/2 : 834 .
(3) م.ن . 2/2 : 835
(4) م.ن ، 2/2 : 845
(5) الحدث : الصغير السّن .
(6) الحدث : النجاسه الحكميه التي ترفع بالغسل أو الوضوء أو التيمم .
(7) القلائد ، ص: 310 .

بنى ابن سناره بيتيه على المقابله بين صوره الفتى الوسيم و الرّجل الأسود الدّميم ، و تأثير المنظرين في نفسه ، فالأول كالجنّه و الثاني كجهنّم . و فتّش عن صوره مشابهه في الطبيعه ، يعقب فيها السواد البياض ، أو القبح الجمال ، أو الظلمه الضياء ، فوجد في غروب الشمس و انحدارها و قدوم الليل بظلامه خير مثال .

و هجا أبوبكر المخزومي الأعمى أحدب ، فقال مشبها اياه بالقوس في انحنائها[1] (متقارب) :

((وأحدب ليس له عمّه . . ولا لذّه في سوى فيشه

يقول أنا القوس في شكله . . فلا تتكروا السّهم في بدرتي

فضولكم أبدا زائد . . أفتحتكم تلك أم فقحتي ؟!)) .

ولعلّ أهم ما يلاحظ على هذه الابيات أسلوبها القائم على الافحاش ، وقال كذلك يهجو أحدهم ، لأنه كان اذا تكلم تطاير لعابه ، فيؤذي جلساءه[2] .

(كامل) :

((لا شيء أشبه من خسيس طباعه . . ان حقّقت بطباع أسد الماء

يمتصّ أفواه . . . بفقحه . . و يبثّها في أوجه الجلساء)) .

استمد الشاعر صورته من البيئه ، فشبه سيئ الطباع هذا بأسد الماء ، وهي تماثيل توضع في الحدائق و الساحات العامه من أجل الزينه و التجميل ، كما مثل مخلصا لمذهبه الذي يستند على الافحاش .

وهجا بعض شعراء الأندلس أصحاب اللحى الطويله ، من ذلك أبيات عبيد يس[3] الكاتب (سريع) :

---

(1) المغرب 1 : 229 .
(2) زاد المسافر ، ص: 117 .

(3) هو أبو القاسم عبيد يس بن محمود التّمنتاني ، من أدباء القرن الثالث الهجري . اتصل بالشاعر عبيد الله بن الشاليه فاتخذه كاتبا له ، ثم فسد ما بينهما ففرّ الى ابن حفصون زعيم المولدين . راجع : بغيه الملتمس (ترجمه رقم 1135) ، والمغرب 2 : 69 ، وكتاب التشبيهات ، ص: 302 .

((يامن عليه للعلا تـــــاج .·. اني الى اللحيه محتـــــاج

وعندكم في وشقه(1) لحيـــــه .·. يحملها المائق حجـــــاج

للثّغر في حانبها مســـــرح .·. فيه من الأنصـــــام أزواج

ومن صنوف الدابر في بعضها .·. بطّ وسمّـــان ودرّاج

يسيل من شاربه فوقهـــــا .·. سلح غزير القلـــر ثجّـــــاج

للبقّ في عثنونه مكمـــــن .·. ومن دبيب القمل أفـــــواج (2)

اذا مشى تبصر أفواجهـــا .·. كأنها في البحر أمـــــواج

يعقدها في شعر وحفائـه .·. فنو اذا ما شاء صنّـــــاج)). (3)

هكذا صور عبيد يس الكاتب لحيه "المائق حجاج الوشقي". وللقارئ أن يتخيل هذه اللحيه التي غدت مرعى واسعا و خصبا لأصناف كثيره من الحيوانات والدابور، و مكمنا للحشرات. انها - بلا ريب - طويله عريضه، ولكنّها حدّ قذره.

وقال ادريس بن اليمان(4) (ت 470هـ/1077م)، في لحيه كثّه (كامل):

---

(1) وشقه ( ) : من مشاهير مدن الثغر الأعلى. وصرفت للوزن.

(2) العثنون : اللحيه. (ج) عثانين.

(3) كتاب التشبيهات، ص: 219.

(4) هو أبو علي ادريس بن اليمان العبدري، أصله من مدينه قسالّه (قسالّه الغرب) التي كان موقعها بناحيه مدينه فارو ( ) البرتغاليه حاليا. انتقل الى دانيه ( ) الواقعه على ضفاف البحر المتوسط بشرق الأندلس، وبها نشأ وتعلم، ومنها تفجّرت قريحته، وانبعث انبعاث السيل - كما قال ابن بسام - ((وصار شعره سمر النادي، و تعلّه الحادي، و تمثّل الحاضر و البادي)). الذخيره 3/1: 336.) . انتقل بعد ذلك الى جزيره يابسه ( )، و أطال المقام بها فنسب اليها. من أعلام الشعراء في عصره، حتى أنه لم يكن بعد ابن درّاج من يجري عند الأندلسيين مجراه. (جذوه المقتبس ص: 262) . انتجع ملوك الطوائف، و كان لا يمدح أحدا منهم الا مقابل مائة دينار. من مشهور شعره قوله من قصيده في مدح اقبال الدوله علي بن محامد العامري (436-468هـ / 1044-1076م) (كامل):

((ثقلت زجاجات أتتنا فرّغـا .·. حتّى اذا ملئت بصرف الرّاح

خفّت فكادت أن تطير بما حوت .·. وكذا الجسوم تخفّ بالأرواح))

(نفح الطيب 4: 75).

للتوسع راجع: جذوه المقتبس (ترجمه رقم 314)، و الذخيره 3/1: 336-345، 352-360، و بغيه الملتمس (ترجمه رقم 530)، و المغرب 1: 400، و الرايات، ص: 126، و نفح الطيب 4: 75، و غيرها.

((لو أنها دون السّماء سحابه ... لم تخترقها دعوة المظلـــوم)) (1)

وكانت" اللحى الطويله " دافعا الى المزاح و المفاكهه عند بعض حكام بني مروان . من ذلك أن الأمير عبد الله (275-300هـ/888-912م) رأى وزيره سليمان بن وانسوس (2) مقبلا عليه ذات يوم - وكان كوسجا (3) - فأنشد (4) (رجز) :

((حلّوفه كأنها حبـــالـــق ... نكراء لا بارك فيها الخالق (5)

للقمل في حافاتها نفائق ... فيها لباغي المتكا مرافـــق

وفي احتدام الصيف ظلّ رائق ... ان الذي يحطها لمائـــق)) (6)

ثم قال له : ((احلس يابربيري (7))) .

ولم تكن النتيجه كما توقع الأمير ، لأن الهزل انقلب الى جدّ و لأن ابن وانسوس غضب و قال للامير (8) : ((أيها الأمير ، انما كان الناس يرغبون في هذه المنزله ليدفعوا عن أنفسهم الضيم ، و أما اذا صارت جالبه للذلّ فلنا دور تسعنا و تغنينا عنكم ، فان حلتم بيننا و بينها فلنا قبور تسعنا لا تقدرون على أن تحولوا بيننا و بينها)) ، ثم خرج من غير أن يسلّم . وغضب الأمير كذلك و أمر بعزله . الاّ أنه تأثر لفقده ، و عمل على ارجاعه حتى استحاب ، ((وردّه الى افضل ماكان عليه (9))) .

---

(1) المغرب 1 : 400 .

(2) هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن أصبغ بن عبد الله وانسوس ، من رؤساء البربر في الاندلس . أظهر الولاء والطاعه لأمراء بني أميه - بخلاف جدّه أصبغ - فأستدت له الأعمال ، وترقى في المناصب حتى بلغ الوزاره في عهد الأمير عبد الله . عرف بعزّه النفس ، وحصافه الرأي ، والدّهاء . وكان الى جانب ذلك شاعرا مطبوعا وكاتبا بليغا . راجع : جذوه المقتبس 1 : 350 (ترجمه رقم 460) ، والحلّه السيراء 1 : 160-161 .

(3) الكوسج : الذي لحيته على ذقنه لا على العارضين . (ج) كواسج .

(4) الحلّه السيراء 1 : 123-124 . والأبيات في جذوه المقتبس 1 : 350-351 ببعض الاختلاف .

(5) الحلّوفه : اللحيه الضخمه الكثيره الشعر . الحوالق : الحدل من صوف أو شعر . (ج) حوالق و حواليق .

(6) المائق : الاحمق .

(7) (8) جذوه المقتبس 1 : 351 .

(9) م . ن ، 1 : 352 .

و من حقّ ابن وانسوس أن يغضب لما في الأبيات من سخريه و لمافي الأمر من تحقير و تمييز عرقي .

و من ذلك ايضا أن الخليفه عبد الرحمن الناصر لدين الله (300-350هـ /912-961م) كان مع وزيره أبي القاسم لبّ و عبد الملك بن جهور فأراد الايقاع بينهما (1) . فدعا لبّا الى هجاء ابن جهور فامتنع عليه ، فدعا عندئذ ابن جهور الى هجاء لبّ فاعتذر . فقال الناصر : فأنا أهجوه ، و أنشد : (سريع) :

((لبّ، أبو القاسم ذو لحيه . . . طويله ، في طولها ميل)) .

ثم دعا ابن جهور الى ترك الاعتذار و ألحّ عليه أن يذيل بيته . فقال حينئذ ابن جهور :

((وعرضها ميلان ان كثّرت . . . و العقل مأفون و مدخول (2)

ولو أنه احتاج الى غسلها . . . لم يكفه في غسلها النيل)) .

فضحك الناصر ، و دعا لبّا الى الردّ عليه ، فقال لبّ :

((قال أمين الله في خلقه . . . لي لحيه أزري بها الطول

وابن عبير قال قول الذي . . . مأكوله القرطيل و الفول

لولا حيائي من امام الهدى . . . نخست بالمنخس (شوقول)) . (3)

غير أن لبّا لما بلغ الى قوله : "شو" سكت ، فقال له الناصر: "قول" . فأتمّ له على نحو ما أراد و أضمر ، فقال له : أنت هجوته يامولاي ! فضحك الناصر و أمر له بصله .

و يلاحظ على هذا الهجاء أنه تلقائي عفوي ، الغرض منه الميزاح والمداعبه. هذا الى جانب الازدواج اللغوي في المقاطعه الأخيره ، الدّال على التفاعل الثقافي بين الأمتين العربيه و الاسبانيه .

---

(1) راجع الحكايه في : البيان المغرب 2 : 226-227 .
(2) المأفون : المستخرج العقل .
(3) شوقول : تعبير رومانثي ( ) ، ويعني : دبره .

هجاء شواعر الأندلس

سمحت الظروف الاجتماعيه و الثقافيه التي أحاطت بالمرأه الأندلسيه لكثير من النساء بتنميه قدراتهن و مواهبهن و مقلهن ، فظهرت شواعر عديدات[1] ، أسهمن بنصيب وافر في اثراء التراث الأدبي الأندلسي . غير أن من أهمّ ما يستوقف النظر في شعر نساء الأندلس، قول بعضهن الهجاء الفاحش دون تحرج ،

و ممن عرفن بالهجاء ثلاث : ولاده بنت المستكفي بالله و مهجه بنت التياني و نزهون بنت القلاعي الغرناطيه .

1 - ولاده بنت المستكفي بالله[2] وهجاؤها .

لم تنل امرأه أندلسيه من الشعره و ذيوع الصيت ما نالت ولاده بنت المستكفي بالله . و لا يرجع ذلك الى أنها كانت شاعره مفلقه أو سياسيه عظيمه ، و انما يرجع الى قصه الحبّ التي عاشتها مع الأديب ابن زيدون ، و الى قصائده الغزليه الرقيقه التي جادت بها قريحتها لما هجرته و مالت عنه الى غيره .

و ولاده هي بنت الخليفه الأموي محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، الذي بويع بالخلافه في سنه 414هـ/1023 م في الفتنه الشنعاء التي اشتعلت بالأندلس عقيب سقوط الدوله العامريه في سنه 399هـ/1008م ، و تلقّب بالمستكفي بالله .

وكان المستكفي بالله هذا أعجز من أن يخمد نار الفتنه المتأججه ، وأضعف من أن ينقذ الخلافه الأمويه المحتضره . فقد أجمع المؤرخون على أنه ((لم يجلس في الامر مدّه تلك الفتنه أسقط منه و لا أنقص ، اذ لم يزل معروفا بالتخلف

---

(1) راجع تراجمهن و أشعارهن في : الصّله 2 : 691-697 ، ونفح الطيب 4 : 166-171 ، 172-179 ، 205-213 ، 272-274 ، 283-298 ، والشعر النسوي في الأندلس لمحمد المنتصر الريسوني ، و الأدب الأندلسي : موضوعاته و فنونه ، ص: 117-241 ، و غيرها .

(2) راجع ترجمتها في : القلائد ، ص: 82 ، والذخيره 1/1 : 429 ، والصّله 2 (ترجمه رقم 1540) ، والخريده 2 : 66 ، والمطرب ، ص: 7 ، وتمام المتون ، ص: 11 ، وسرح العيون ، ص: 22 ، ونفح الطيب 4 : 205 ، وطراز الاسلام 3 : 158 ، وأدباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ، ص: 115 ، وفي الأدب الاندلسي ، ص: 166 ، وغيرها .

والركاكه ، مشتهرا بالشرب والبطاله ، سقيم السر والعلانيه ، أسير الشهوه ، عاهر الخلوه)) (1) . لذلك لم تطل مدّته ، خلع في سنه 416هـ/ 1025م ، بعد أن حكم لـ((السبعه عشر شهرا صعابا نكيدات ، سودا مشؤومات)) (2) . وانتهى أمره بالخروج من قرطبه متنكرا ، والموت بـ " أقليش " (3) مقتولا ، وقيل مسموما (4) ، بعد خلعه بأقل من شهر .

لم يذكر أحد ممن ترجموا لولاده من القدماء تاريخ ميلادها ولا عمرها عند خلع أبيها ووفاته . غير أنه يمكن تعيين ذلك بالتقريب ، اعتمادا على نصين : الأول لابن بسام (ت 542هـ/ 1147م) ، يقول فيه (5) : ((وطال عمرها وعمر أبي عامر ابن عبدوس (6) حتى أربيا على الثمانين ، وهو لا يدع مواصلتها ، ولا يغفل مراسلتها)) . والثاني لابن بشكوال (ت 578هـ/ 1183م) ، جاء فيه (7) : ((وتوفيت بعد ثمانين وأربعمائه رحمها الله ، ثم وجدت بعد ذلك أنها توفيت يوم مقتل الفتح بن محمد بن عباد يوم الاربعاء لليلتين خلتا من صفر من سنه اربع وثمانين وأربعمائه)) .

فاذا سلمنا بأن وفاتها كانت في سنه 484هـ/ 1091م ، بعد أن أربت على الثمانين ، فانه يمكن القول بأن ولادتها كانت في سنه 395هـ/ 1005م أو في سنه 403هـ/ 1012م ، أو مابينهما . وعليه فان عمرها لم يكن يتجاوز - عند موت أبيها - الواحد والعشرين عاما .

---

(1) الذخيره 1/ 1 : 434 .
(2) م.ن ، 1/ 1 : 437 .
(3) أقليش : (uclés) قريه تقع غرب مدينه كونكا (cuenca) الحاليه .
(4) البيان المغرب 3 : 142 .
(5) الذخيره 1/ 1 : 432 .
(6) زياده من الباحث للايضاح .
(7) الصّله 2 : 696 .

استقبلت ولاده الحياه ، و الفتن تعصف بدوله أحفادها ، و عاينت سقوط أبيها و ملك أسرتها يافعه . ولا ندري في أي حضن دافئ ألقت نفسها بعد فرار والدها من قرابه و هلاكه ، و على أي صدر حنون أسندت رأسها في تلك المده المضطربه الحالكه من حياتها و حياه الأندلس عامه . ولا نعرف كذلك شيئا ذا بال عن أمها ، و دورها في رعايتها و توجيهها بعد غياب أبيها .

اغتنمت ولاده ، الأميره الفاتنه ، وفاه والدها ، فاختارت لنفسها حياه ترضاها ، قوامها الحريه و الانطلاق (1) . و أقامت منتدى أدبيا يؤمه الشعراء والكتاب و أهل الأدب و أعيان البلد (2) .

وكان الوزير ابن زيدون أحد المترددين الى مجلسها الأدبي ، فافتتن بجمالها و أحبها ، و بادلته - بعد تمنع - حبا بحب ، و هياما بهيام . وتساقيا كؤوس الهوى مترعه بالصفاء و الهناء مده ، ثم دب الخلاف بينهما ، فمالت الى غريمه ابن عبدوس ، و قاطعته قطيعه تامه ، ولكن ما سبب هذه القاطعه ؟ .

أورد ابن بسام في " الذخيره " (3) نثرا شريا (4) نسبه الى ابن زيدون ، شبيها بالمذكرات الشخصيه أو السيره الذاتيه ، سجل فيه ابن زيدون شغفه الشديد أيام الشباب بولاده ، و أول لقاء جمع بينهما ، و كيف باح كل منهما للآخر بحبه و سره . كما ذكر كذلك سبب أول خلاف بينهما .

يفهم - مما ورد في القسم الثاني من النص - أن ابن زيدون و ولاده التقيا في بيته ليله لاغتنام السرور ، و حضرت مجلسهما ذات جاريه سوداء لولاده ، تسمى " عتبه " تجيد الغناء . وكان مما غنتهما في تلك " السحره " : (طويل) :

---

(1) la poesie andalouse en arabe classique au 11 ciecle , p. 399 .

(2) الذخيره 1/1 : 429 .

(3) 1/1 : 430-431 .

(4) يشك احسان عباس محقق الذخيره في صحه نسبته لابن زيدون . راجع : الذخيره 1/1 ، 430 . (الهامش الأول) ، و دراسات في الأدب الاندلسي ، ص: 203 .

((أحبّتنا انّي بلغت مؤمّلتي . . ويساعدني دهري و واصلني حبّي

وجاء يهنّيني البشير بقربهم . . فأعطيته نفسي وزدت له قلبـــي))

و أعجب ابن زيدون بالصوت ، فطلب من "عتبه" اعادته دون استشاره ولاّده ، التي تأثرت لذلك و ((خبا منها بارق التبسّم ، وبدا عارض التجهّم))[1] ، وظنت بابن زيدون الظنون ، ولم تستطع كبح انفعالها ، فقامت و ضربت الجاريه ، فقال ابن زيدون[2] (طويل) :

((وما ضربت عتبى لذنب أتت به . . ولكنّما ولاّده تشتهي ضربـي

فقامت تجرّ الذيل عاشره بـــه . . وتمسح طلّ الدمع بالعنم الرطب))

لماذا غضبت ولاّده و قامت باكيه ؟

اذا تخيّلنا الموقف أمكننا القول أن ابن زيدون هو الذي أثار انفعالها و أبكاها ، اذ لا يستبعد أن يكون تدخّل لفسخ الخلاف الذي نغّص عليهما المجلس ، رحمـــه و شفقه بـ "عتبه" التي لم تقترف - في نظره - ذنبا تستحق من أجله التقريع و الضرب ، وبالأخص أنها أعادت الصوت ، أو همّت باعادته تلبيه لطلبه ، و غير مستبعد كذلك أن يكون ثمر ولاّده على سلوكها ذاك ، اذا هي أصرّت على اتمامه و عتابه . و حرّ موقفه في نفسها كثيرا ، فلم تستطع حبس دموعها . وربما ذهلت من مناصرته "عتبه" الجاريه . و تكدّر المجلس بهذا الحادث الثائر ، و باتا على عتاب و خصام . ولمّا ابتلج الصبح أسرعت ولاّده بالانصراف ، بعد أن تركت له ابياتا شعريه تتهمه فيها بحبّ جاريتها "عتبه" و تعاتبه . تقول (كامل) :

((لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا . . لم تهو جاريتي ولم تتخيّـــر

و تركت غصنا مثمرا بجمالـــــه . . و جنحت للغصن الذي لم يثمر

ولقد علمت بأنّني بدر السّمـــــا . . لكن دهيت لشقوتي بالمشتري)) .

---

(1) (2) الذخيره 1/1 : 431 .

اعتمد أغلب الدارسين المعاصرين[1] على هذه الحادثه و الأبيات، وفسروا محرانها له بـ " الغيره " ، وذهب آخرون[2] مذاهب أخرى .

أظن بداءه أن ابن زيدون برئ مما اتّهمته به ولاده، اذ كيف يجرؤ على منازله حاريتها بحضورها ؟ ثم اننا لا نجد أي أثر لهذه الحاريه في حياته و في شعره، لا قبل تعلّقه بولاده و لا بعد صرمها له. ولذلك فأنا أميل الى الاعتقاد بأن ولاده اختلقت تلك التهمه لتبرّر بها تغيّرها، ومحرها له.

أما عامل " الغيره " فانه - في رأيي - تفسير واه لا يثبت للمناقشه، اذ لو كانت صادقه مخلصه في حبّها لكانت أشدّ حرصا عليه، و تشبّثا به، ولما تخلّت عنه بسبب الظنون الظانون .

ان التفسير الأرجح هو أن ولاده كانت امرأه نرجسيه. ودليلنا في ذلك شده افتتانها بذاتها و اعتدادها بجمالها، و زادها عجبا و كبرياء كره المحبين بها، الراغبين فيها .

و من ينعم النظر في الأبيات التي تركتها لابن زيدون، يتحقق من اعتدادها بجمالها، فهي - كما قالت - " غصن مثمر بحماله " و " بدر السّماء " . ثم ألم يصفها ابن زيدون بقوله[3] (بسيط) :

((ربيب ملك، كأنّ الله أنشأه ... مسكا، و قدّر انشاء الورى طينا

أو صاغه ورقا محضا و توّجه ... من ناصع التّبر ابداعا و تحسينا)) . (4)

---

(1) نذكر منهم حودت الرّكابي و احسان عباس، و زاد الاول سببا سياسيا هو انضمام ابن زيدون الى حركه الجهاوره، و زاد الثاني عاملا نفسيا هو نرجسيه ابن زيدون . راجع : في الادب الاندلسي، ص: 171، و تاريخ الادب الاندلسي : عصر الطوائف و المرابطين، ص: 164 .

(2) يرى محمد المنتصر الريسوني - مثلا - أن ولاده كانت مصابه بـ" الحنسيه المثليه" و بـ " الساديه" . راجع كتابه الشعر النسوي في الأندلس، ص: 77-78 .

(3) ديوان ابن زيدون و رسائله . شرح وتحقيق علي عبد العظيم (د . ط، القاهره : مكتبه نهضه مصر، 1957م)، ص: 144 .

(4) الورق : الفضه . (ج) أوراق و وراق .

واذا قيل ان هذا الوصف ينطبق عليه المثل القائل : " حسن في كل عين ما تودّ " . فلنا في ما كتب القدماء و المحدثون دليل آخر . يقول الفتح بن خاقان - توفي بعد خمسه و أربعين عاما من وفاتها - عنها : ((وكانت من الأدب و الظرف، و تتميم السمع و الطّرف ، بحيث تختلس القلوب و الألباب ، وتعيد الشّيب الى اخلاق الشباب (1))) . ويقول عنها ابن بسام : ((وكانت في نساء أهل زمانها ، واحده أقرانها حضور شاهد ، وحراره أوابد ، وحيهن منظر و مخبر (2))) ، وهي في نظر ابن سعيد : ((كعليه بالشرق : الا أن هذه ولاده (3) تزيد بمزيه الحسن الفائق (4))) ، ويرى أحمد أمين أنها : ((كانت بيضاء اللون ، حمراء الشعر ، زرقاء العينين (5))) .

كان الأدباء و أعيان القوم يؤمون " عرشها " الأدبي ، وكانت كالورده بينهم كلهم يسعى الى الظفر بها ، و الفوز بوصلها ، ((وهي تعبث بالقلوب و تحطّمها . تمنح مودّتها لمن تشاء ، و تستردّها متى تشاء ، . . . فتتبدل واحدا بعد آخر ، تنقل الفراشه من زهره الى زهره)) (6) . وكان ابن زيدون احذى الزهرات التي حطّت عليها ، ثم طارت و انتقلت الى غيرها .

ولما انقضى شبابها و ذهب جمالها ، انفضّ العشّاق من حولها ، الا ابن عبدوس فانه ظلّ يواصلها و يراسلها ، ((ويحمل كلّها ، و يرقع ظلّها ، على حدب واديه ، وحمود روائحه و غواديه)) (7) . و في عزوفها عن الزواج ، واختيارها حياه العناس دليل آخر على نرجسيتها ، لأنها لم تحب أحدا ، ولم تخلص لأحد ، وانما كانت تعشق ذاتها فقط .

---

(1) القلائد ، ص: 82 .
(2) الذخيره 1/1 : 429 .
(3) زياده من الباحث للاضاح .
(4) نقلا عن : نفح الطيب 4 : 208 .
(5) ظهر الاسلام (ط 5 ، بيروت : دار الكتاب العربي ، 1388هـ/1969م) ، 3 : 158 .
(6) أدباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ، ص: 124-125 .
(7) الذخيره 1/1 : 432 .

هجاؤها

قال ابن بشكوال ، وهو يترحم لولاّده : ((أديبه شاعره حزله القول ، حسنه الشّعر ، وكانت تخالط الشعراء و تحالس الأدباء ، و تفوق البرعاء))(1) . غير أن ابن بسام - وهو أقدم منه - غضّ من شاعريتها في قوله : ((وكانت - زعموا - تقرض أبياتا من الشّعر ، وقد رأيت أشياء منه في بعض التعاليق ، أضربت عن ذكره ، و طويته بأسره ، لأن أكثره هجاء ، وليس له عندي اعاده ولا ابداء))(2) .

واذا كان ابن بسام قد أنف - كما قاله - من اثبات هجائها ، فان مراجع أخرى قد حفظت لنا شيئا منه . وهو يدور على شخصين : ابن زيدون صاحبها و والأصبهي .

يندهش المرء عندما يعلم أن ولاّده هجت ابن زيدون ، ويزداد اندهاشه حين يطّلع على مضمونه و البواعث على الاستغراب هو كيف طاوعت ولاّده نفسها فهجت ابن زيدون ، ثم جرأتها على قول مثل ذلك الهجاء البذيء الفاحش .

و يبدو أنها لم تفحشه الا بعد أن نال منها ، حين تعرّض لابن عبدوس غريمه في حبّها ، ليصرفه عنها .

كان ابن عبدوس من وزراء بني جهور في قرطبة ، وأحد من تيمتهم ولاّده ، و تمنوا قربها . وكان منافسا عنيدا لابن زيدون . طارد ولاّده الى أن مالت اليه . بالرغم و بالرغم من أنه لم يتزوج بها ، ظل على صلته بها الى آخر أيامه .

اغتنم ابن عبدوس الوحشة التي حدثت بين ابن زيدون و ولاّده ، فتقرّب منها ، فانقادت اليه ، تحت وطأة حالتها النفسية ، وانتقاما من ابن زيدون ، الذي لم يكن بغافل عما كان يدبّره غريمه ، فكتب اليه عاتبا عليه محذرا اياه (متقارب) :(3)

---

(1) الصّله 2 : 696 .

(2) الذخيره 1/1 : 432 .

(3) ديوان ابن زيدون و رسائله ، ص: 582، 587 .

((أثرت هزبر الشرى اذ ربض ... ونبّهته اذ هدا فاغتمض

و مازلت تبسط، مسترسلا ... اليه، يد البغي لمّا انقبض

حذارا حذارا فان الكريم ... اذا سيم خسفا، أبى فامتعض))

((...

((وغرّك من عهد " فتّاله " ... سراب ترائى، و برق ومض

تظنّ الوفاء بها، و الدّنون ... فيها تقول على من فرض :

"هي الماء يأبى على قابض ... و يمنع زبدته من مخض"))

...

وبلغه أن ابن عبدوس أرسل اليها امرأه لتستميلها، فأنشأ على لسانها رسالته المسمّاه بـ " الهزليه"، يتهكم به فيها، و يتندّر عليه، ولكنه نال فيها كذلك من ولاّده، في قوله: (1) ((... و هبك سا ميتهم في ذروه المجد و الحسب، وجاريتهم في غايه الظرف و الأدب، أألست تأوي الى بيت قعيدته لكاع (2)، اذ كلّهم عزب خال الذراع! وأين من انفرد به ممّن لا أغلب الا على الأثال الأخس منه! وكم بين من يعتمدني بالقوّه الظاهره، و الشّهوه الواغره، والنفس المصروفه اليّ، واللّذه الموقوفه عليّ، وبين آخر قد نضب غديره، ونزحت بيره، وذهب نشاطه، ولم يبق الاّ ...)).

ولما توثقت أواصر المودّه بين ابن عبدوس و ولاّده، و استمر أمرهما، قال ابن زيدون هذه الابيات، معرّضا بهما، رادّا على عيره بهزيمته (3) (بسيط) :

((أكرم بولاّده ذخرا لمدّخر ... لو فرّقت بين بيطار و عطّار

قالوا : أبو عامر أضحى يلمّ بها ... قلت: الفراشه قد تدنو من النار

---

(1) ابن نباته، سرح العيون في شرح رساله ابن زيدون. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (د. ط)، بيروت : دار الفكر العربي، 1383هـ/ 1964م)، ص: 8-9.

(2) ضمن ابن زيدون عجز بيت الحطيئه الذي هجا به زوجه، في قوله :

((أطوّف ما أطوّف ثمّ آوي ... الى بيت قعيدته لكاع)).

(3) ديوان ابن زيدون ورسائله، ص: 196.

عيّرتمونا بأن قد صار بخلفنا .·. فيمن تحبّ وما في ذاك من عار

أكل شهي أصنا من أطابيه .·. بعضا وبعضا صفحنا عنه للفار)) . (1)

كانت ولادة تطلع - بلا شك - على شعر ابن زيدون ونثره ، ويؤثران فيها . ولمّا تمادى في النيل منها والتشهير بها ، اضطرّت الى الرّد عليه ، والثأر لنفسها منه بنفس السلاح . فهجته وأفحشت عليه . وتدور معاني هجائها له حول بعض الرذائل الأخلاقيه التي تطعن في رجولته ، وتنقص من مروءته .

تقول ملقبة اياه " المسدس " وهو سبّ عيوب ذكرتها في البيت الثاني (2) (وافر) :

((ولقّبت المسدّس حين نعت .·. تفارقك الحياه ولا يفارق

فلوطيّ ومأبون وزان .·. وديّوث وقرنان وسارق)) (3)

وهذا سباب محض ومباشر ، ولكنه - كما قالت - باق مع الأيّام ، لأن الهدف منه هو الانتقام من ابن زيدون الذي طعن في كرامتها في شعره ونثره . ألم يقل انها " أكل شهي أصاب من أطابيه " ؟ !

وتقول فيه (4) (سريع) :

((ان ابن زيدون على فضله .·. يغتابني ظلما ولا ذنب لي

يلحظني شزرا اذا جئته .·. كأنني جئت لأخصي "علي")) .

ولها فيه أيضا (5) (سريع) :

((انّ ابن زيدون على فضله .·. يعشق قضبان السّراويل

لو أبصر ... على نخله .·. صار من الطّير الأبابيل)) .

---

(1) يعني ابن زيدون بـ " الفأر " ابن عبدوس .

(2) ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص: 34 ، وتمام المتون ، ص: 11 ، ونفح الطيب 4 : 205 .

(3) المأبون : المقرون بخلّه من السوء . القرنان : نعت سوء للرجل الذي لاغيره له على أهله .

(4) (5) نفح الطيب 4 : 206 .

و مجت الأصبحي بقولها[1] (سريع) :

((يا أصبحيّ اثنأفكم نعمه .·. جاءتك من ذي العرش ربّ المنن

قد نلت بالمت ابنك ما لم ينل .·. بغره بوران[2] أبوها الحسن)) .

نلاحظ أن ولاده استعانت بالتاريخ ، ووظفت حادثه حقيقيه ، وهي زواج بوران بنت الحسن بن سهل بالخليفه المأمون و احتفال أبيها بزفافها احتفالا لم يعرف له مثيل فيما يروى ، ومانالته بعد ذلك من حياه عريضه ومال وفير ، للنيل من " الأصبحي " و التهكم بـه .

و صفوه القول أن ولاده كانت امرأه حسناء ، حريئه ، استطاعت الانفلات من القيود الاجتماعيه و الدينيه . واختارت ماراد تها الحره أسلوب حياتها الخاصه ، فخرجت سافره ، واختلطت بالرجال ، وكتبت الشعر الذي يلخّص مذهبها على ثوبها[3] . أحبّت ابن زيدون فوصلته ، ثم ما لبثت أن هجرته . وكانت في ودّها غير ملهم له . عرّض بها في شعره و نثره فثارت لكرامتها منه و هجته . كما هجت غيره . وقد تكون عزفت عن الزواج لأنها كانت ترى فيه قيدا طبيعيا و اختارت لنفسها حياه " الهتان " .

---

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص: 34 .

(2) بوران : ويقال أن اسمها خديجه بنت الحسن بن سهل . تزوجها المأمون بن الرشيد بـ" فم الصلح " بالقرب من "واسط" في سنه 210هـ/ 825م . قال ابن خلّكان : ((واحتفل أبوها بأمرها ، وعمل الولائم و الافراح مالم يعهد بمثله في عصر من الاعصار ، . . . وانتهى أمره الى أن نثر على الهاشميين و القواد و الكتّاب و الوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع و أسماء جوار و صفات دواب و غير ذلك ، فكانت البندقيه اذا وقعت في يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعه ، فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعه أو ملكا آخر أو فرسا أو جاريه ، أو مملوكا)) . (وفيات الأعيان 1 : 287-288 (ترجمه رقم 120) . وقيل أن المأمون أطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدّه سنه . توفيت بوران سنه 271هـ/ 884م .

(3) يروى أنها كتبت على ثوبها (وافر) :

((أنا والله أصلح للمعالي = وأمشي مشيتي وأتيه تيهـا

وأمكن عاشقي من صحن خدّي وأعلي تبلتي من يشتهيها)) .

(الذخيرة 1/1 : 429 = 430)

تميّز محاؤها على قلّته - بالقصر -، و الفحش، و بالاستهانه بالتراث. واذا كان على الحمله سبابا محضا لا يحتوي على أي قيمه فنيه، فانه يعد وثيقه تاريخيه مهمه، لأنه يفيد في استجلاء شخصيتها و ربما قدّم صوره عن الأخلاق في عصرها.

2 - مهجه بنت التيّاني (1) و هجاؤها.

من شعراء قرطبه في القرن الخامس الهجري. لم تحفظ لنا المصادر الا نتفا قليله من أخبارها و أشعارها. لذلك فان بسط القول فيها كانسانه و أديبه، ثم تقويم انتاجها مالب بعيد المنال.

تنحدر مهجه من أسره فقيره، فقد كان والدها يبيع التين لكسب قوت أسرته، ولذلك عرف بحرفته أو نشاطه الموسمي، فقيل: "التّياني".

اشتهرت بين النساء أهل زمانها بالجمال الباهر و خفه الروح (2). اتّصلت بولاده بنت المستكفي بالله، و وقعت من نفسها موقعا حسنا، فعلقت بها، ((ولزمت تأديبها، الى أن صارت شاعره)) (3). غير أنه لم يصلنا من انتاجها سوى أبيات قليله. ومما شهد له بالجوده، وقيل: أنها تقدّمت به فحول الذكران، قولها (4) (ويل) (5):

((لئن قد حمى عن ثغرها كل حائم ... فما زال يحمي عن ما البه الثغر
فذلك تحميه القواضب والقنا ... و هذا حماه من لواحظها السحر)).

و أهدى اليها أحد المعجبين بها خمخا، فكتبت اليه (6) (سريع):

((يامتحفا بالخوخ أحبابه ... أهلا به من متلج للصّدور
حكى ثدي الغيد تفليكه ... لكنه أخشن رؤوس ... ...)).

---

(1) راجع ترجمتها في: المغرب 1: 143، و نفح الطيب 4: 293، و الشعر النسوي في الأندلس، ص: 88، و الأدب الاندلسي: موضوعاته و فنونه، ص: 123، و غيرها.

(2) (3) (4) المغرب 1: 143.

(5) (6) نفح الطيب 4: 293.

أما هجاؤها فلم يصلنا منه سوى هذين البيتين، اللذين هجت بهما "أستاذتها" "ولاده" (سريع):

((ولاده قد صرت ولاده .·. من دون بعل، فضح الكاتم!

حكت لنا مريم لكنّه .·. نخله هذى ... قائم!)). (1)

وقد استغلت مهجته بذكاء في البيتين اسم معجوّتها من جهة، و قصة مريم بنت عمران من جهة أخرى، و تهكمت بها. فولاده بنت المستكفي العاقس، أو العازفة عن الزواج، أصبحت كثيرة الانجاب باستعمال صيغة المبالغة من (ولد). وهي تشبه مريم العذراء التي حبلت بعيسى ووضعته من غير بعل، و لكن شتّان بينهما الآن مريم امرأة فاضلة طاهرة، حبلت بعيسى و وضعته تحت النخلة (2) بمعجزة الهية، وأما ولاده فهي عاهرة بغيّ، و نخلتها شيء آخر.

ويبدو أن مهجته كانت فعلا تلميذة نجيبة لولاده، ولكن في التحرر من القيم الاجتماعية، فهي قليلة الوفاء كأستاذتها جريئة لا تحد حرجا من قول الهجاء الفاحش.

٥ - نزهون بنت القلاعي (3) و هجاؤها.

نزهون من شعراء غرناطة في المائة السابعة الهجرية. ولعل الحجاري (4) أقدم من ترجم لها، فقد ذكرها في "المسهب" واصفا بخفة الروح و الانطباع الزائد والحلاوة

---

(1) المغرب 1: 143.

(2) قال الله تعالى: ((فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتني متّ قبل هذا و كنت نسيا منسيا. فناداها من تحتها ألّا تحزني قد جعل ربّك تحتك سريا. وهزّي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيّا.)). (س. مريم، آ: 22-24).

(3) راجع ترجمتها في: المغرب 2: 121، و الرايات، ص: 91، و الاحاطة 1: 424، 2: 504، و نفح الطيب 4: 295، و في الادب الاندلسي، ص: 116، والشعر النسوي في الاندلس، ص: 90، و الادب الاندلسي: موضوعاته و فنونه، ص: 156، وغيرها.

(4) هو أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن ابراهيم بن وزمّر الصنهاجي، من أهل وادي الحجارة، أديب و مؤلف. وفد على عبد الملك بن سعيد، أمير قلعة بني سعيد في سنة 530هـ/ 1135م، و أنشده قصيدة في مدحه، وباسمه طرّز كتابه "المسهب في فضائل المغرب"، وهو أصل كتاب "المغرب في حلى المغرب". راجع المغرب 2: 35، و ما كتبه الأستاذ شوقي ضيف محقق "المغرب" في مدخل التحقيق.

وحفظ الشعر و المعرفه بضرب الأمثال مع جمال فائق و حسن رائق))[1]. و ورد في "المغرب": ((شاعره ماهنه كثيره النوادر))[2]. ويلاحظ أن الحجاري أشار الى جوانب من شخصيتها، ولم يصدر أي حكم على شاعريتها و شعرها. واكتفى ابن سعيد بقوله: ((شاعره ماهنه)) دون أن يحدّد طبقتها. غير أن مؤلفين آخرين نوّهوا بطول باعها في الشعر حتى غدت من مفاخر غرناطه. ذكرها الشّقندي[3] في رسالته التي أنشأها للدفاع عن عدوة الأندلس[4]، وعدّها من شواعر غرناطه النوابغ، قال[5]: ((وأما غرناطه فانها دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، و مطمع الأنفس . . . ولم تخل من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولولم يكن لها الاّ ماخصّها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها من الشواعر مثل نزهون القلاعيه، وزينب بنت زياد، و قد تقدم شعرهما، وحفصه بنت الحاج، وناهيك في الظرف والأدب)).

وكان من الجائز لنا أن نردّ على الشقندي كلامه هذا بحجه البعد عن النزاهه والموضوعيه، لأنه في مقام مدافع عن عدوه، فأحكامه لا تبرأ من التحيّز، لو لم يذهب ابن سعيد الى ما ذهب اليه أبو الوليد الشّقندي من قبل. فقد نوّه هو كذلك بشاعريتها بقوله[6]: ((لغرناطه بها حفصه بنت الحاج الركونيه[7] و بنزهون، و زينب الوادي آشيه على سائر بلاد الأندلس أعظم مزيّه، وحسبك أن بعض أعلام الشعراء لم أجدلهم من المعاني ما يشفع لهم في اثبات أسمائهم في هذا المجموع، وقد شفع لهنّ احسانهنّ فيه)).

ان جوده معاني الأشعار التي وقعت بين يدي ابن سعيد هي التي شفعت لنزهون اذن عنده فأثبت اسمها في "راياته" ويبدو أنها كانت مقياس النبوغ عند أبي

---

(1) عن نفح الطيب 4 : 295. ويلاحظ أن بعض ما نقله المقّري من ترجمه نزهون عن "المغرب" غير موجود في النسخه التي حققها الأستاذ شوقي ضيف.

(2) 2 : 121.

(3) أبو الوليد اسماعيل بن محمد، توفي في اشبيليه في سنه 627هـ/1230م. راجع المغرب 1 : 218.

(4) راجع نصّ هذه الرساله في: نفح الطيب 3 : 187-222.

(5) نفح الطيب 3 : 217-218.

(6) رايات المبرزين و غايات المميّزين. تحقيق النعمان عبد المتعال القاضي (ط. لجنه احياء التراث، القاهره، 1393هـ/1973م)، ص: 92. (نشير اليه بـ"الرايات").

(7) زياده من الباحث للايضاح.

الوليد الشقندي كذلك .

غير أن ما وصل الينا من شعرها لا يناسب شهرتها ، وان شئت فقل مع الاحكام التي أصدرها أبو الوليد الشقندي وابن سعيد على شعرها . ومن المؤكد أن قسما كبيرا من انتاجها ضاع في ما ضاع من التراث الأندلسي .

ومما يدلّ على سرعة بديهتها أن الشاعر الكتندي دخل يوما على ابي بكر المخزومي ، وهي تقرأ عليه ، وقال له بأحزاز (1) (كامل) :

((لو كنت تبصر من تكلّمه .. ..))

ففكّر أبو بكر المخزومي ولم يجد جوابا . فقال متهزئا (2) :

((.. لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزرّته .. .. والغصن يمرح في غلائله)) .

وكانت متحرّره ، تجتمع بالادباء وتحالسهم ، وكان أبوبكر بن سعيد ، والي غرناطة من أشدّ النّاس كلفا بها ، ويبدو أنه ضاق بكثرة الحائمين حولها فكتب اليها (3) (مجتث) :

((يا من له ألف مخلص .. .. من عاشق ومشيق

أراك خلّيت للنّاس .. .. سبيل ذاك الطريق)) .

فردت عليه تاميئه (4) (طويل) :

((حللت أبا بكر محلّا منعته .. .. سواك ، ومل غير الحبيب له صدري

وان كان لي كم من حبيب فانّما .. .. يقدّم أهل الحق فضل أبي بكر)) .

وقال لها أحد الثقلاء : ما على من أكل معك خصمائه سوط ؟ . فقالت (5) : (طويل) :

---

(1) (2) المغرب 2 : 121 .

(3) الرايات ، ص : 91 ، ونفح الطيب 4 : 295 . وبين الروايتين بعض الاختلاف .

(4) م.ن ، ص : 92 ، ونفح الطيب 4 : 295 .

(5) نفح الطيب 4 : 296 .

((وذي شقوه لمّا رآني رأى لـه . . . تمنّيه أن يدلى معي جاحم الضرب(1)

فقلت له كلما منيتنا فانّمـا . . . خلقت الى لبس المارف و الشرب)) .

و مما يدلّ على محونها و استحثارها قولها(2) (بسيط) :

((لله درّ الليالي ما أحيسنها . . . و ما أحيسن منها ليله الأحـد!

لو كنت حاضرنا فيه وقد غفلت . . . عين الرقيب فلم تنظر الى أحـد

أبصرت شمس الضّحى في ساعدي قمر . . . بل ريم خازمه في ساعدي أسـد)) .

ان المطلع على أخبار نزهون و آثارها يدرك أنها لم تابع على المحاء و انما طبعت على العبث بالرّجال ، والسّخريه منهم و استثارتهم ، و بالأخص الشعراء أصحاب العيوب الحسديه منهم . وكانت وسيلتها في ذلك بعض " التعليقات" الساخره الاستفزازيـه .

اجتمعت يوما بابن تزمان الأصغر الزجّال(3) بقريه الزاويه (la zubia) بالقرب من غرناطه ، و كان قبيح الوجه ، دميما ، و يرتدي غفاره صفراء على زيّ الفقهاء ، فقالت له بعد انتهائه من ارتجال بديع : ((أحسنت يا بقره بني اسرائيل ، الّا أنك لا تسرّ الناظرين))(4)(5)

فاغتاظ من قولها ، وقال لها(6) : ((ان لم أسرّ الناظرين ، فأنا أسرّ السّامعين ، و انما يطلب سرور الناظرين منك ، يا فاعله ! يا صانعه !)) .

أما محاؤها فلم يبق سوى ثلاث مقاومات : اثنتان في أبي بكر المخزومي ، محّاء الأندلس و الثالثه في رجل خاطبها .

نزل أبي بكر المخزومي بغرناطه ذات يوم فاستدعاه واليها أبوبكر بن سعيد بأبيات من الشعر ، مداراه لـه .

---

(1) الجاحم : الجمر الشديد الاشتعال . و" جاحم الضرب" : الشديد المؤلم .

(2) نفح الطيب 4 : 298 .

(3) هو أبوبكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان ، امام زجالي الأندلس ، توفي في سنه 555هـ / 1159م .

(4) تشير الى قوله تعالى : ((قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها قال انّه يقول انّها بقره صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين)) . (س. البقره آ : 68) .

(5) الاحاطه 2 : 504 ، و نفح الطيب 4 : 296 . وفي (الرايات ، ص: 91) : ((أصبحت كبقره بني اسرائيل . . .)) .

(6) من ه 2 : 504-505 .

فلّما استقرّ به المجلس، و أفعمته روائح النّدّ و العود و الأزهار، وهزّت عطفه الأوتار، قال بسيط :

دار السّعيديّ ذي أم رضوان ؟ .·. ما تشتهي النفس فيها حاضر دان
سقت أباريقها للنّدّى سحب ندى .·. تحدى برعد لأوتار و عيدان
والبرق من كلّ دنّ ساكب مطرا .·. يحيا به ميت أفكار وأشجان
هذا النعيم الذي كنّا نحدّثه .·. ولا سبيل له الاّ بآذان

فقال له أبو بكر ابن سعيد : والى الآن لا سبيل له الاّ بآذان ؟ فقال : حتى يبعث الله ولد زنى كلّما أنشدت هذه الأبيات، قال : انّ قائلها أعمى، فقال: من صمت نحا. وكانت نزهون بنت القلاعي حاضرة فقالت: وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمحمّر ندّ وغناء و شراب، فتعجب من تأتّيه و تشبهه بنعيم الجنّة، وتقول: ما كان يعلم الاّ بالسماع، ولا يبلغ اليه بالعيان ؟ ولكن من يجيء من حصن المدوّر، وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النعيم ؟ فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له : ذبحه، فقال : من هذه الفاضلة ؟ فقالت : عجوز مقام أمّك، فقال : كذبت، ما هذا صوت عجوز، انما هذه نغمة ... محترقة تشمّ روائح هنعا على فرسخ ؟ فقال له أبوبكر : يا أستاذ، هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأديبة، فقال : سمعت بها، لا أسمعها الله خيرا، ولا أراها الاّ ... ! فقالت له : ياشيخ سوء تناقضت، وأيّ خير للمرأة مثل ما ذكرت؟ ففكّر ساعة ثمّ قال طويل :

على وجه نزهون من الحسن مسحة .·. وان كان قد أمسى من الضوء عاريا (1)
قواصد نزهون ثوارا غيرها .·. ومن قصد البحر استقلّ السواقيا (2)

فأعملت فكرها ثم قالت محتث :

قل للوضيع مقالا .·. يبلى الى حين يحشر
من المدوّر أنشئت .·. ت و ... منه أعاجر
حيث البداوه أمست .·. في مثيمها تتبختر
لذا أمسيت صبّا .·. بكلّ شيء مدوّر
خلقت أعمى و لكن .·. تحيم في كلّ أعور
حازيت شعرا بشعر .·. فقل لعمري من أشعر
ان كنت في الخلق أنثى .·. فانّ شعري مذكّر

فقال لها اسمعي متقارب :

ألا قل لنزهون مالها .·. تجرّ من التيه أذيالها (3)
ولو أبصرت فيشه ثمّرت .·. كما عوّدتني سربالها

---

(1) البيت مأخوذ من قول ذي الرّمّة (طويل) :
((على وجه ميّ مسحة من ملاحة .·. وتحت الثياب الشّين لو كان باديا)).

(2) ضمن الشاعر تقريبا قول المتنبي في كافور (طويل) :
((قواصد كافور توارك غيره .·. و من قصد البحر استقلّ السّواقيا)).

(3) مأخوذ من قول أبي العتاهيه في الخليفه العباسي المهدي (متقارب) :
((أتته الخلافه منقاده .·. اليه تجرّر أذيالها)).

فحلف أبو بكر ابن سعيد أن لا يؤيد أحد هما على الآخر في محوه كلمه فقال المخزومي : أكون هجّاء الأندلس وأكفّ عنها دون شيء ؟ فقال : أنا أشتري منك عرضها فاطلب، فقال : بالعبد الذي أرسلته فقادني الى منزلك . . .
وانفصل المخزومي بالعبد بعدما أصلح الوزير بينه و بين نزهون . (1)

لهذا النص أهميّه بالغه ، لأنه ينقل لنا ما دار بين امرأه ماجنه كثيره النوادر، وشاعر حاد الطبع، شكس الأخلاق ، سليط اللسان ، في مجلس ظريف، نادر الحدوث. وهو - الى جانب ذلك - وثيقه نفسيه تكشف لنا على بعض الجوانب من حياه الأندلس في القرن الخامس الهجري و النصف الأول من السادس.

ويساعدنا النص كذلك على استخلاص جمله من الخصائص أو الصفات النفسيه لنزهون، تفيدنا في التعرف أكثر لشخصيتها و طبعها . ان تعرّضها لشاعر هجّاء طبّقت شهرته أرجاء الأندلس دليل - بلا شك - على جرأه كبيره . كما أن تعييره بالبداوه و التخلف والجهل و العمى دليل على قدرتها الفائقه على اصطياد المثالب و مواطن الضعف ، وعلى طبعها النازع الى التحكم و الاستفزاز ، لاثاره انفعاله ، و ارباكه .

كما يبدو جليّا شدّه ثقتها بنفسها ، وربما لله جرأتها لأنها لم تنفعل عندما طعن في عفّتها ، ورماها بالفجور ، و استطاعت أن تنقض قوله لما ادعا عليها ، وأن تدحض فكرته ، كانت نزهون - باختصار - امرأه رجله ، جريئه ، ماجنه ، شديده الثقه بنفسها . طبعت على العبث و التحكّم للاستفزاز ، قديره على اقتناص عيوب الخصم و مواطن ضعفه .

أما هجاؤها للمخزومي ، فان أهمّ ما يستلفت الانتباه فيه هو قيامه على أمور لم تكن معروفه في الهجاء الأندلسي ، ومنها مسألة " خمول موضع النشأه " وتأثيره على ثقافه الشاعر . وهو - كما يبدو - أثر من آثار تطور المجتمع و قيمه . ومن هجائها له قولها (2) (مجتث) :

((اذا كان ما قلت حقّا . . . من بعض عبد كريم
فصار ذكري ذميما . . . بمعزى الى كل لوم
وصرت أقبح شيء . . . في صوره المخزومي)) .

---

(1) نفح الطيب 1 : 191-193 ، وراجع : الاحاطه 1 : 425-427 .
(2) م.ن ، 4 : 296 .

وهجت رحلا خلابها ، وكان قبيح الشكل (1) (متقارب) :

((عذيري من عاشق أنوك . . . سفيه الاشاره و المنزع

يروم الوصال بما لو أتى . . . يروم به الضّفع لم يصفع

برأس فقير الى كيّه . . . ووجه فقير الى برقع)) .

فهذا عاشق أحمق ، يرغب في الوصال و الزواج ، ولكنه كريه المناظر ، دميم . بحيث لوجاء يريد الضفع لما تجرأ أحد على صفعه لقبحه ، فما بالك بالوصال . وهكذا يظل التهكم الدعامه الأساسيه التي يقوم عليها هجاء نزهون .

هجاء الشعراء و تهاجيهم .

حفظت لنا المصادر و المراجع الأندلسيه أهاجي كثيره نال فيها أصحابها من شعراء مثلهم ، متبوعه في أغلب الأحيان - بردود المهجوين عليها ، على شكل "نقائض" واذا كان بعض الشعراء قد أعرضوا عمّن هجاهم أو آذاهم مبرّرين موقفهم بالأخلاق ، كابن بقّي (2) الذي يقول من قصيده يشكو فيها أهل المغرب (3) (بسيط) :

((وساقط نال من عرضي فقلت له . . . اليك عنّي فليس السبّ من شيمي

و أعرضت عنه ولم أنّي عرضت له . . . سقيته حمه الافعى من الكلم)) .

فابن بقّي يأنف من الهجاء هذا "الساقط" ليس عن عجز و انما لايمانه بأنّ الهجاء شتم وسباب ، و السباب ليس من خلقه و عادته .

ونجد الموقف نفسه عند ابن الأبّار (ت 658هـ/1260م) الذي تنزّه عن هجاء ابن شلبون ، وقال (4) (كامل) :

---

(1) محمد المختار العبيدي ، الشعر النسوي في الأندلس (د . ط) بيروت : دار مكتبة الحياة ، 1968 ، ص: 237 . توفي بوادي آش (guadix) في سنة 510هـ/1146م أو 545هـ/1150م . راجع ترجمته في : القلائد ، ص: 322 ، ومطامح الانفس ، ص: 407 ، والذخيره 2/2 : 615 ، والخريده 2 : 236 ، و المغرب ، ص: 193 ، و المغرب 2 : 19 ، والرايات ، ص: 79 ، وغيرها .

(2) هو ابوبكر يحيى بن بقّي ، من أعلام الشعراء في عهد المرابطين ، ذكر العماد الأصفهاني أنّ له ما ينيف عن ثلاثة آلاف موشّحه ، وشلها قصائد ومقطوعات منتخبه . (الخريده 2 : 237) . توفي بوادي آش (guadix) في سنة 510هـ/1146م أو 545هـ/1150م . راجع ترجمته في : القلائد ، ص: 322 ، ومطامح الانفس ، ص: 407 ، والذخيره 2/2 : 615 ، والخريده 2 : 236 ، و المغرب ، ص: 193 ، و المغرب 2 : 19 ، والرايات ، ص: 79 ، وغيرها .

(3) القلائد ، ص: 325 ، و الخريده 2 : 246 .

(4) ديوان ابن الأبّار . قرأه و علق عليه عبد السلام الهراس (د . ط) ، تونس : الدار التونسيه للنشر ، 1405هـ/1985م) ، ص: 445 .

((قل لابن شلبون مقال تنزّه . . . غيري يحاريك الهجاء فحار

((انّا اقتسمنا خطّتينا بيننا . . . فحملت برّه و احتملت فجار)) (1)

فان كثيرا من الشعراء قد ردّوا على الهجاء بهجاء مثله أو أمرّ ، وانتصروا لأنفسهم من خصومهم ، وتشفوا منهم .

ولعلّ ابن هبيره و أبا المخشيّ (ت حوالي 180هـ/ 796م) أقدم المتهاجين من الأندلسيين وكان الداعي الى ذلك أن أبا المخشي ((كان هجاء ، مرّ الهجاء ، جسورا على الأعراض ، يتسرع الى الناس ، يسلقهم بلسان لاو بنحذايد ، و يهتك أستارهم)) (2) جعله طبعه هذا يشتبك مع الشعراء في معارك هجائيه .

و وجد الشعراء في نسبه النصراني (3) مغمزا فعيّروه به . يقول ابن هبيره (وافر) (4) :

((أقلفتك التي قاسيت بشوش . . . دعتك الى هجائي و انتضالي ؟)) (5)

و أجاب أبو المخشي عن سؤاله اجابه بذيئه ، بقوله (وافر) (6) :

((سألت وعند أمّك من ختاني . . . بيان كان يشفي من سؤالي)) .

يلاحظ أن أبا المخشي التوم في بيته بنفس البحر الذي نظم فيه ابن هبيره و بنفس الرّوي ، وهو ما يذكّرنا بنقائض جرير و الفرزدق و الأخطل ، ولكن صوره ذلك الفن هنا بسيطه و بدائيه .

واذا انتقلنا الى القرن الثالث الهجري (التاسع ميلادي) وجدنا مؤمن بن سعيد

---

(1) البيت للنابغه الذبياني من قصيده هجا بها زرعه بن عمرو بن خويلد الكلابي ، مطلعها (كامل) :

((طال الثّواء على رسوم ديار . . . فقرأ أسائلها ، وما استخباري ؟))

(ديوان النابغه الذبياني، ص: 103).

(2) مختارات من شعراء الاندلس، ص: 42.

(3) حدّ أبي المخشي السادس الشاعر عدي بن زيد ، ((وكان نصرانيا من عباد الحيره)) . (الشعر والشعراء 1 : 230) . وراجع: جمهره أنساب العرب، ص: 214 .

(4) المغرب 2 : 123 .

(5) شوش : اسم القريه التي استقرّ بها زيد بن يحيى والد الشاعر لما قدم من الشام، وبها نشأ ابنه أبو المخشي عاصم . وهي ((قريه مشهوره على نهر كبير يمرّ على مدينه استجه (écija) ويصبّ في نهر قرطبه)) . (المغرب 2 : 123) .

(6) م.ن ، ص: . ن .

(ت267هـ/880م) من فحول شعراء قرطبه في أيامه،[1] ((يحاحي ثمانيه عشر شاعرا، فيملوهم، وكانت آفته التهكّم بالناس، و تتبّع زلا تهم، و تمزيق أعراضهم))[2] . و ممّن محاهم : عباس بن فرناس (ت274هـ/ 885م) ، و أحمد بن محمد الكناني المعروف بـ (ريا تيس الجن)[3] ، ومحمد بن عبد العزيز العتبي[4] ، و غيرهم.

ويبدو أن مؤمنا كان مهيب الجانب، ذا شخصيه مخيفه، لذلك أحجم المقدّم بن معافى عن مجائه، ولما سئل عن ذلك، قال : ((لا أمحو من لو محا النّجوم لما امتدى أحد بها))[5] . غير أن ما وصلنا من أهاجيه - على كثرتها - قليل، غير ذي بال.

و من النزر القليل الذي بقي، قوله متهكما بعباس بن فرناس، لمّا عمل في بيته ((هيئه السماء و خيّل للناظر فيها النجوم و الغيوم و البرق و الرعد))[6] (منسرح) :

((سماء عبّاس الأديب أبي الـ .. قاسم ما هيك حسن رائقها

أمّا إذا ما فبراعيتها .. فليت شعري ما الذي بارقها

لقد تمنيّت حين دوّمها .. فكري بالبصق في ... خالقها)) . (7)

و الظاهر أن الحسد كان من أهم عوامل هجاء مؤمن بن سعيد لعباس بن فرناس، لأن ابن فرناس كان متعدد المواهب و الاهتمامات، ينظم الشعر، ويعزف على العود، ويغني، ويشتغل بالفلسفه و التنجيم و علم الفلك، هذا الى جانب الحظوه التي يتمتع بها عند الحكّام. لذلك كان مؤمن بن سعيد دائم السخريه و الاستهزاء من ابتكاراته العلميه و تجاربه. يقول اثر فشل عباس بن فرناس في محاولته الطيران[8] (طويل) :

---

(1) المقتبس (تحقيق محمد علي مكّي)، ص: 211.

(2) المغرب 1 : 132.

(3) م.ن، 2 : 58.

(4) م.ن، 1 : 134

(5) نفح الطيب 3 : 538.

(6) (7) م.ن، 3 : 374.

(8) ذكر المقّري هذه المحاوله فقال : ((واحتال عباس بن فرناس في تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومدّ له جناحين، وطار في الجوّ مسافه بعيده، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه، فتأذى في مؤخره، ولم يدر أنّ الطائر انّما يقع على زمكّه ذنبه ولم يعمل له ذنبا)) . (نفح الطيب 3 : 374).

((يطمّ على العنقاء في طيرانها .·. اذا ما كسا حثمانه ريش قشعم)) (1)

ومن هجاء ابن فرناس له ، قوله (2) (الوافر) :

((ترى أثر الأعاد في حجر مؤمن .·. كآثار قضب في رماد مفربـــل)).

وبلغ تهاجيهما حدّ المهاترات.

ولم يكن أثر هجاء مؤمن حميدا في النفوس ، وربما كانت سيرته كذلك ، و أصبح الناس يزورونه ، و يتحببون لقائه ، و أدرك ذلك ، و أرجع ازوارهم عنه الى خموله ، وقلّة ذات يده . يقول (3) (رمل) :

((انما أزرى بنفسي أنّنـــي .·. لست من نابه أهل البلـــد

ليس منهم غير ذي مقلّبـــه .·. لذوي الألباب أوذي حســـد

يتحامون لقائي مثل مـــا .·. يتحامون لقاء الأســـــد

انني أثقل في أعينهـــم .·. و على أنفسهم من أحـــــد

لو رأوني وسط بحر لم يكن .·. أحد يأخذ منهم بيـــدي)).

و كان القلفاط و ابن عبد ربّه (ت328هـ/940م) صديقين ، ثم فسدت علاقتهما وتهاجيا ، و كان سبب الفساد بينهما أن ابن عبد ربّه مرّ يوما ، وكان في مشيته اضطراب ، فقال : فقال : يا أبا عمر ، ما علمت أنك آدر الا اليوم لمّا رأيت مشيتك ، فقال له ابن عبد ربّه : كذبتك عرسك أبا محمد ! فغمّز على القلفاط كلامه ، و قال له : أتتعرض للحرم ! و الله لأرينّك كيف الهجاء ! ثم صنع قصيده أوّلها بسيط :

ياعرس أحمد انّي مزمع سفرا .·. فودّعيني سرّا من أبي عمر !

ثم تهاجيا بعد ذلك . وكان القلفاط يلقبّه بطلاس ، لأنه كان أطلس لا لحيه له ، و يسمّي كتابه " العقد " حبل القوم (4) ؟ فاتّفق احتماعهما مرّه عند بعض الوزراء فقال الوزير للقلفاط : كيف حالك اليوم مع أبي عمر؟ فقال مرتجلا سريع

حال طلاس لي عن رائـــه .·. و كنت في قعدد أبنائه

فبادره ابن عبد ربّه ، فقال سريع

ان كنت في عقدد أبنائـــه .·. فقد سقى أمّك من مائه

فانقطع القلفاط خجلا)) . (5)

---

(1) (2) المغرب 1 : 333 .

(3) العقد الفريد 2 : 351.

(4) في (نفح الطيب 3 : 294) : حبل الثوم.

(5) ابن بسام الأزدي ، بدائع البدائه ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (د . ط ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، 1970) ، ص: 51 ـ 52. و راجع: نفح الطيب 3 : 294 ـ 295 .

ويرجع سبب الفساد بين الرجلين و تهاجيهما الى اختلاف طبعيهما . فالقلفاط جبل على العبث و المزاح [1] ، و ابن عبد ربّه حادّ ، و في طبعه حدّه و خشونه . أما تهاجيهما فغير واضح لقلة الماده المتوفره لدينا .

كان القلفاط أحد الاصوات البارزه في الهجاء على عهده ، كثير الثلب لأعراض الناس و المهاجاه للأدباء [2] ، دائم العبث بالمؤدبين و الكيد لهم . و من أدلّه على ومزاحه أنه بات ليله عند الحكيم [3] (ت 331هـ/943م) ،

فسهرا صدر ليلتهما ، ثم ناما بقيتها حتى تبلّج الصبح ، وكادت الشمس تطلع عليهما ، فانتبه القلفاط فقال للحكيم بسيط :

يا ديك ما لك لم تصرخ فتتبعنا ... لقد أسأت بنا ، ديك الدجاجات
يا آكلا للقذى ياسالحا عبثا ... على الحصير ، بهيمّ البهيمات

فأجابه الحكيم ، فقال بسيط :

لقد صرخت مرارا حمّه عددا ... قبل الصّباح و بعد الصّبح تارات
لكن علمتك نوّاما وذا كسل ... قليل ذكر لجبّار السّمـــاوات . (4)

وكثر الشعراء و تهاجيهم في القرن الخامس الهجري ، غير أنّ هجاءهم ظلّ لا يتجاوز البيتين أو الثلاثه . من ذلك هجاء المنفتل [5] لابن الفرّاء [6] ، يقول [7] (مجزوء الكامل) :

---

(1) راجع ما جرى له مع المؤدب صالح بن معافى و مرقوص في : طبقات الزبيدي (ترجمه رقم 227) ، (ورقم 229) .
(2) طبقات الزبيدي ، ص: 280 .
(3) هو أبو عبد الله محمد ابن اسماعيل ، واشتهر بـ" الحكيم" . عرف بخلاعته بعلم العربيه و المنطق و الحساب، راجع : طبقات الزبيدي (ترجمه رقم 228) ، و تاريخ ابن الفرضي 2: 707 (ترجمه رقم 1230) .
(4) م.ن ، ص: 277 .
(5) هو أبو أحمد عبد العزيز بن خيره ، واشتهر بـ" المنفتل" ، من أعلام الأدباء في القرن الخامس الهجري . ترجم له ابن بسام ، وقال عنه : ((والمنفتل أيضا ممن نثر الدّرّ المفصّل ، و دلّق في بعض ما نظم المفصل ، . . .)) (الذخيره 1/2 : 754) . راجع : الذخيره 1/2 : 754 ، والخريده 2 : 165 ، وبغيه الملتمس ص: 502 . (ترجمه رقم 1510) ، و المغرب 2 : 99 ، والرايات ، ص: 89 ، ونفح الطيب 3 : 387 ، وغيرها .
(6) هو الأخفش بن ميمون ، وعرف بـ" ابن الفرّاء" ، أصله من " القبذاق" أحد حصون قلعه بني سعيد ، انتقل الى قرطبه وبها تأدّب ، ثم رجع الى غرناطه ومدح ابن النغراله اليهودي ، وزير بني زيري الصنهاجيين .
(7) الذخيره 1/2 : 760 .

((لابن ميمون قريض .·. زمعريز البرد فيه

فاذا ما قال شعرا .·. نفقت سوق أبيه)).

وله فيه أيضا (1) (محتث) :

((ان كنت أغمض عين .·. فانّ قلبك أعمى

فكيف تنشر نشرا .·. أم كيف تنظم نظما ؟)).

ومن مقطوعاته التي يجتمع فيها جماع العيوب الجسديه و النفسيه قوله يهجو الأفوه الحزّار (2) (سريع) :

((وبارد المنظر و المخبر .·. أبرد من ريح الصّبا الصّرصر

تبدو على أنمراسه صفره .·. كأنّه من فمه قد ...

حديثه أوحش من وجهه .·. و شعره يشبه ذاك ...)).

ومقطوعته هذه مركّزه أو مكثّفه ، بحيث ذكرت له عيوب في ثلاثه ابيات ، وهي : برود المنظر و المخبر ، و قبح الأضراس ، و وحشه الحديث ، و ذمامه الوجه ، و رداءه الشعر.

و مما يستوقف النظر في شعر المتقدمين استعماله " البرد " للتعبير عن الرّداءه والقبح . فقريض ابن ميمون " زمعريز البرد فيه " ، و منظر الأفوه الحزّار و مخبره "أبرد من ريح الصّبا الصّرصر" .

ولقد كان الحسن في " شاعريه" الخصم أبرز معنى دار عليه تهاجي شعراء القرنين الخامس و السادس المحريين . من ذلك قول السّميسر في ابن الحدّاد (3) (سريع) :

((قالوا : ابن حدّاد فتى شاعر .·. قلت : وما شعر ابن حدّاد ؟

أشعاره مثل فراخ الزّنى .·. فتّش تجد أخبث أولاد)).

---

(1) المغرب 2 : 184 ، و نفح الطيب 3 : 388 .
(2) الذخيره 2/1 : 760 .
(3) م.ن ، 2/1 : 894 .

هذه جماعة من الناس لا تميّز جيّد الشعر من رديئه ، و المبتدع منه و المسروق ، سمعت شعر ابن الحدّاد فأعجبت به ، و حكمت بأنّه " فتى شاعر " ، ولكن السّميسر بحكم درايته بالشعر اعترض على رأيها ، و بيّن لها أنّ ابن الحدّاد شاعر سارق ، يغير على معاني الفحول من الشعراء و ينسبها اليه . و قد أجاد السّميسر في التعبير عن " عيب " شعر ابن الحدّاد ، عندما شبّهه بالأب و قصائده بالأبناء ، ولكنهم أبناء غير شرعيين .

و يتميّز هذا الهجاء بالقسر و الحوار . فأما القصر أو الايجاز فكان احدى الخصائص الأسلوبيه البارزه في شعر السّميسر (1) . و أما الحوار فوسيله فنيه وظفها الشاعر للطّعن في شاعريه خصمه .

وقال ابن الحدّاد (2) يهجو السّميسر (بسيط) :

((يا أهل غرناطه . . . سميسركم . . ففي رميّنا عنه لنا شغل)) ،

ولا يحتاج البيت الى تعليق .

و شهد القرن الخامس أيضا تهاجي الأدبيين الكبيرين : ابن شهيد (ت 426هـ/ 1034م) و ابن الحنّاط (ت 437هـ/ 1045م) . ذكر ذلك ابن بسّام في ترجمة ابن الحنّاط ، قال (3) : ((وكانت بينه و بين أبي عامر بن شهيد بعد تمسّكه بأسبابه ، وانحياشه - كان - الى جنابه مناقضات في عدّه رسائل و قصائد أشرقت أبا عامر بالماء ، و أخذت عليه بفروج الهواء)) . غير أنه لم يصلنا من مناقضاتهما شيء ذو بال نستجلي منه صوره تهاجيهما .

وفي القرن السادس الهجري تهاجى ابن سارة (ت 517هـ/1123م) و أبوبكر الأبيض (ت 530هـ/ 1135م) . وكان سبب تهاجيهما أن أبا بكر الأبيض نظم شعرا يقول فيه (4) (كامل) :

---

(1) الذخيره 1/2 : 882-883 .
(2) م.ن ، 1/2 : 904 .
(3) م.ن ، 1/1 : 437 .
(4) زاد المسافر ، ص: 108 .

((كوني على خذر فإن عداتنا ... يترقّبونك بالمكان البلقـــع

فاذا لقيت سراتهم فتتنّحـــي ... حذرا على خلق الهمام الأروع

لفّي بنانك بالرّداء وسلّمـــي ... تكفي الكريم اشاره بالاصبـــع)) .

واستغلّ ابن ساره البيت الأخير فهزل للسّخريه من أبي بكر الأبيض ، فكان اذا لقيه لفّ اصبعه بكمّه وسلّم عليه حتّى أحرجه ، فآل الأمر بينهما الى التهاجي (1) . من ذلك قول ابن ساره في الأبيض (كامل) (2) :

((ومن العجائب أن يكون الأبيض ... بحماره وسط السوابق يركض

أنّى له تقريبها أو خبّهـــا ؟!! ... ما العير الاّ أن يحثّ فينهض

العير عير مذلّه ان لم يكـــن ... أولا فما ان فيه عرق ينبـــض)) .

واذا كان ابن ساره قد ركّز في هجائه على الجانب المادي الاقتصادي ، فانّ الأبيض التفت في نقيضته الى الجانب المعنوي ، ورماه بالغرور لقول الناس عنه انه " شويعر قطمه " . وختم أبياته بالفحش . يقول (3) : (كامل) :

((جنّ ابن ساره و الحوادث تعرض ... و الكلب في مهوى العصا يتعرّض

أغروه أن قالوا شويعر قطمـــه ... لا شاعر فحل يمرّ و ينقـــض

ولقد نزوت على القوافي نـــزوه ... كادت لها أبكارها تتمخّـــض

والله لولا أن يقال تحامـــلا ... انّي صبوت وانّ رأسي أبيـــض

لحملت . . . الحمار بكفّـــه ... حتّى يرى هل فيه عرق ينبـــض)) .

لقد التزم الأبيض في ردّه بنفس البحر الذي نظم عليه ابن ساره ، و بنفس الرّوي أيضا على الرّغم من صعوبته ، و مع ذلك تبقى نقيضته دون مستوى نقائض الثالوث الأموي المشهور .

وقال ابن سهل اليسّي يهجو ابن ميمون (بسيط) (4) :

---

(1) زاد المسافر ، ص : 108-109 .
(2) (3) م.ن ، ص: 109 .
(4) م.ن ، ص : 49 .

((قالوا : هجا ابن ميمون ، فقلت لهم : .·. ياليت شعري من الهاجي فأدريه ؟

قالوا : الفقيه الذي من أرض قرطبه .·. قلت : القطيم ؟ فقالوا كلهم : ايه))

يقوم هذا الهجاء على الحوار و الافحاش . فأما الحوار فوسيله فنيه و ظفها اليكي ببراعه للنيل من خصمه ، فتجاهله تجاهل العارف كما يقول البيانيون ، فهو اذن في سلّم الشعراء - شويعر ، أو أنه خامل لا يرقى حتى الى هذه المنزله . ثم سأل مخبريه عن بعض صفاته ليعرفه ، فقالوا : " فقيه قرطبه " . فعرفه اليكي عند اذن ، ولكن للتثبت أو نكايه في خصمه ، قال لهم : "القطيم" . فقالوا جميعا : "ايه" . ويفهم من ذلك أن ابن ميمون غير مشهور بين الناس بالشعر و انما بالفقه و صفه أخرى شنيعه . وهكذا استطاع اليكي بأسلوبه البارع الذي يقوم على الحوار أن يطعن في ابن ميمون شاعرا وفقيها .

وشارك العالم اللغوي ابن أخت غانم[1] في هذا الاتجاه من الهجاء ، بمقاوعه نال فيها من الأديب أبي الفضل ابن شرف[2] ، يقول فيها[3] (بسيط) :

((قولوا لشاعر برجه : هل حاء من .·. أرض العراق فحاز طبع البحتري

وافى بأشعار تضجّ بكفّه .·. وتقول : هل أعنى لمن لم يشعر ؟

ياجعفرا ! ردّ القريض لأهله .·. واترك مباراه لتلك الأبحر

لا تزعمن مالم تكن أهلا له .·. هذا الرضاب لغير فيك الأبخر)) .

يرمي ابن أخت غانم أبا الفضل ابن شرف في هذا الهجاء بسرقه الأشعار الجيّده ، ويبرزه في صوره " المتطفّل " على الشعر . واتسع في كلمه " الأبحر " و يقصد بها فحول الشعراء . وأخرج الهجاء مخرج الغزل ، لانه يقصد بـ " الرضاب " الشعر الجيّد .

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن معمر ، واشتهر بـ "ابن أخت غانم" نسبه الى خاله الامام العالم غانم المخزومي ، لشهره ذكره و علوّ قدره . من كبار علماء اللغه في المائه السادسه الهجريه من مؤلفاته : " شرح كتاب النبات " لابي حنيفه الدّينوري ، في ستين مجلدا . راجع : المغرب 1 : 433 ، ونفح الطيب 3 : 397 ،

(2) هو أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني . من أدباء الاندلس النحارير في المائه السادسه الهجريه . اشتهر بمدحه المعتصم بن صمادح ملك المريه . راجع ترجمته في : القلائد ، ص : 290 ، و الذخيره 3 / 2 : 867 ، و الخريده 2 : 171 ، و المغرب 2 : 230 ، ونفح الطيب 3 : 393 ، وفي صفحات متفرقه أخرى ، وغيرها .

(3) المغرب 1 : 433 ، ونفح الطيب 3 : 397 .

و تكمن جوده هذا الهجاء في بعده عن الافحاش ،الذي كان احدى الخصائص البارزه التي كادت تميّز الأهاجي السابقه كلها ،و اعتماده أسلوبا عفيفا هادئا يحنح الى " النصح و الارشاد " .

و يبدو أن الحسد هو الدافع الاساسي على هذا الهجاء ،لأن ابن أخت غانم كان ممن حسدوا أبا الفضل ابن شرف ،لمّا أنشد المعتصم ابن صمادح قافيته الرائعه التي مطلعها (1) (رمل) :

((مال الليل بوعد الغسق .. و تثنّى النّجم طول الأرق)) .

و حاول اهانته في ذلك المجلس ،مستغلا زيه البدوي ،فسأله :من أي البوادي أنت؟ فردّ عليه قائلا (2) : ((أنا من الشّرف في الدّرجه العاليه ، وان كانت باديه عليّ باديه ، ولا أنكر حالي ،ولا أعرف بحالي)) . فألقمه حجرا ،و شمت به كلّ من حضر (3) .

ولا شكّ أن احابه أبي الفضل ابن شرف على سوء اله ،وما لقيه من حظوه عند المعتصم بعد ذلك ، قد ولّدا في نفس ابن أخت غانم حقدا عليه ،ظهر صداه في هجائه السابق .

وهجا ابن شلبون ابن الأبّار ،مشبها اياه بـ" الفأر " في الخلقه و الأعمال الضاره ، يقول (4) (كامل) :

((لا تعجبوا لمظهره نالت جميـ .. ـع الناس ضاره عن الأبّـار

أليس فأرا خلقه و حقيقـه .. و الفأر مجبول عن الاضـرار)) .

و تنزّه ابن الابار - كما رأينا من قبل - عن هجائه ،ناقضا بيتيه ببيتين ،يخبره فيهما بأنه غير مستعد لمجاراته في هذا الميدان ،و ما عليه الآن يهجو من له أهبه و استعداد لمعاييرته في الهجاء .

وهكذا اختلف موقف الشعراء ممن هجاهم ،بعضهم انتصر لنفسه ،وقابل الهجاء بهجاء مثله أو بأمرّ منه ،و بعضهم نكص عن الرّد اما عجزا و اما تعففا واما لغير ذلك .

---

(1) نفح الطيب 3 : 393 .
(2) (3) م.ن ، 3 : 395 .
(4) ديوان ابن الابار ص : 445 .

هجاء الذات والأهل والأقارب

ممن هجا نفسه من الأندلسيين - فيما أعلم - أبوبكر المخزومي وابن حزمون . وكلاهما من هجّائي الأندلس.

فأما أبوبكر المخزومي فهو من شعراء المائة السادسة الهجرية، وصفه الحجاري[1] بأنه ((بشّار الأندلس انتاعا ولسنا وأداء، وهو الذي أحيا سيره الحطيئة فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد)). وأما ابن حزمون فعاش في القرن السادس الهجري، وأدرك سنين من السابع، وكان فيما قيل[2] : ((صاعقه من صواعق الهجاء)). اتخذ الهجاء وسيله ارتزاق فنال حاهما وثروه عند ولاه المغرب، وعماله وقضاته، لخوفهم من لسانه[3]. ويمتاز عن أبي بكر المخزومي بنظم الموشحات، بالاضافه الى الشعر التقليدي المعروف (شعر القصيده)، وسلك في موشحاته سبيل ابن الحجاج البغدادي[4] ((فأربى فيها عليه، وذلك أنه لم يدع موشحه تجري على أسنه الناس بتلك البلاد الا عمل في عروضها ورويّها موشحه على الطريقه المذكوره))[5]. الا أنه لم يصلنا من موشحاته الهجائيه سوى جزئين من موشحتين مختلفتين . وقد تذمّم شوقي ضيف محقق " المغرب " من اثبات نماذج منها لكثره فحشها[6].

---

(1) المغرب 2 : 223 .
(2) م.ن، 2 : 214 .
(3) المعجب (اختيار أحمد بدر)، ص: 197 .
(4) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج، اشتهر بشعره الذي يقوم على الهزل والمجون . توفي في سنه 391هـ/1001م . راجع : يتيمه الدهر 3/2 : 30-99، ووفيات الاعيان 2 : 168 (ترجمه رقم 192)، وتاريخ الادب العربي لبروكلمان 2 : 60 .
(5) م.ن، ص: 195 .
(6) راجع: المغرب 2 : 216 . (الحاشيه) .

والشعر الذي هجا فيه أبو بكر المخزومي نفسه هو (خفيف)[1] :

((ربّ حسناء كالغزاله جيدا ... والتفاتا تزري بحور الخلود

كلّمتني فطار قلبي اليها ... وترجّيت للظماء[2] ورودي

فتجافت عن منظري ثم قالت: ... أترى الحور واصلات القرود ؟

لم ألمها على الصّدود لأنّي ... كنت أعلا من مثلها للصّدود)) .

يلاحظ أن بين صوره الحسناء و صورته - كما رسمهما بشعره - تناقضا كبيرا ، فينما نجدها مثالا كاملا للجمال " حوراء " ، نجده مثالا للقبح " قرد " . ولا شكّ أنه كان يعاني من مركّب نقص بسبب " عماه " . و تزداد وطأة احساسه ذاك على نفسه كلما التقى بالحسان.

واذا كان أبو بكر المخزومي قد انتقل من النسيب الى هجاء ذاته ، فان ابن حزمون قصد الى هجاء نفسه ثم استطرد يهجو أحد القواد المشهورين بالبساله و النجده ، و يسمى محمد بن عيسى[3] ، يقول (طويل)[4] :

((تأمّلت في المرآه وجهي فخلته ... كوجه عجوز قد أشارت الى اللّهو

اذا شأت أن تهجو تأمّل خليقتي ... فأن بها ما قد أردت من الهجو

كأن على الأزرار منّي عسوره ... تنادي الورى غضّوا و لا تتظاروا نحوي

فلو كنت ممّا تنبت الأرض لم أكن ... من الرائق و لا الطّيب الحلو

و أقبح من مرأي بطني فانه ... يقرقر مثل الرّعد في مهمه حوّ

والاّ كقلب بين جنبي محمّد ... سليل ابن عيسى حين فرّ ولم يلو

يودّ بأن لو كان في بطن أمّه ... جنينا و لم يسمع حديثا عن الغزو (5)

تميل بشدقيه الى الارض لحيه ... تكنّ بها ماء يفرّغ من دلو

ثقيل ولكن عقله مثل ريشه ... تصفّقها الأرواح في مهمه دوّ

وقد حدّثوا عنه بكلّ نقيصه ... ولكن مثلي لا يرقّى و لا يروي)) . (6)

---

(1) المغرب 1 : 231 .

(2) في الاصل : للظماء . ولعلّ الأصح ما أثبتناه . و التغيير باشاره من الاستاذ المشرف.

(3) المعجب (اختيار أحمد بدر) ، ص : 196 .

(4) المغرب 2 : 214-215 ، و المعجب ، ص: 196-197 .

(5) (6) لم يرد البيتان في " المغرب " و الزياده من " المعجب " .

تنقسم القصيده الى مقطعين متساويين ، يتكون كلّ واحد منهما من خمسه أبيات. المقطع الاول هجاء ذاتي ، تناول فيه الشاعر ذمامه وجهه ، وقبح خلقته عامه ، و بانه . و المقطع الثاني في هجاء القائد محمد بن عيسى ، ركّز فيه على خفقان قلبه الشديد يوم فراره من احدى الغزوات ، و جبنه و لحيته الطويله ، و ضخامه حسده و صغر عقله و خفّته. وما يهمنا في القصيده هو المقطع الأول .

يبدو أن تأزّم الشاعر النفسي بلغ درجه عظيمه غدت معها ذاته خصما و عدوّا ، فانبرى لها يهجوها و يكشف عن قبحها . لمّا رأى انعكاس صوره وجهه على المرآه بدت له قبيحه بشعه كوجه عجوز عبثت أيدي الدّهر بجمالها ، ولكنّها لم تتعظ بعد أن بلغت من العمر عتيّا ، و ترغب في اللّهو . ولمّا أجال الناظر في خلقته عامه لم يجد فيها ما يسرّ و يبهج ، فهي " متحف " للقبح يجد فيها الهاجي أبشع الصّور . و أقبح من ذلك كلّه بانه الذي " يقرقر " كدويّ الرّعد . و هذا الهجاء تعبير عن التمرّد والثوره على القبح الذاتي .

وقال عبد الملك بن جهور في زوجه و كان برما بأخلاقها[1] (محزوء الكامل) :

((من ذا يفكّ اساريه ... ويحلّ عقد عقاليه
من ذا يخلّص من هوى ... من جبنه في الهاويه
انّي بليت بشرّ من ... تحت السماء العاليه
انّي دهيت بحيّه ... قطعت حراك لسانيه
لو كنت تبصرها سألـ ... ـت الله منها العافيه
ما أبصرتها مقلتي ... مذ أبصرتها راضيه
تمضي السنون و تنقضي ... و حياتها متماديه
ولها أميل منتن ... عور الوجوه سواسيه
لولا الحياء بصقت في ... تلك الوجوه البالیه

---

(1) مجهول المؤلف ، أخبار مجموعه . تحقيق ابراهيم الأبياري (ط 1 ، القاهره : دار الكتب الاسلاميه و دار الكتاب المصري ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، 1401هـ/ 1981م) ، ص : 140-141 .

يا يوم معرفتي بهم .·. يازاني ابن الزانيه

أنشبتني وغررتني .·. وقعدت عني ناحيه

ما كان هذا منك في الـ .·. ـودّ القديم جزائيه)) .

وطلّق ابن ساره زوجه ، و حمادا بعد ذلك بقوله (1) (كامل) :

((أما الزّمان فرقّ لي من طلّه .·. كانت تطلّ دمي بسيف نفاقها (2)

الذئبه السّلساء عند نفاقها .·. و الحيّه الرّقشاء عند عناقها)) (3)

يكشف ابن ساره في بيتيه - صادقا أو كاذبا - عن بعض أخلاق زوجه و عيوبها . فهي كثيره المطالب ، قليله الوفاء و الاخلاص . وقد أجاد في التعبير عن سعيه و شقائه الدائم من أجل تلبيه رغباتها التي لا تنتهي . " كانت تطلّ دمي بسيف نفاقها " . و أجاد أيضا في تصوير شرهها و خداعها .

و نبقى في مجال العلاقات العائليه ، و نطلع على هجاء أبي بكر المخزومي لابنه ، لأنّه أدرك مرحله معيّنه من عمره دون أن تبدو عليه أمارات النجابه . يزداد جسمه - بمرور الايام - امتلاء و اكتنازا ، و أما عقله فيزداد تناقصا . نصح فلم ينتصح ، و عنّف فلم يزدجر . ضعيف الهمّه ، لا يطمح الاّ الى " الأكل و السّلح " . يقول (4) (كامل) :

((الحقّ أبلج ليس أنت وحقّ من .·. أحيا بك الأجلاف ممن يفلح

لا تهتدي بفضيله لا ترعوي .·. بملامه لا أنت ممن يصلح

يزداد عقلك ما كبرت تناقصا .·. و تلجّ في صمم اذا ما تنصح

أكل و سلح كلّ حين لا تنى .·. لسواهما ما دمت حيّا تامح

أسخمت عين المجد يا ابن عميره .·. ولقد تقرّ عيونه لو تذبح)) .

---

(1) الذخيره 2/2 : 844 .

(2) السّاله : الزّوج . تطلّ : تهدر .

(3) السّلساء : مؤنث " الأسلس " : ما في لونه طلسه : الغبره الى السواد .
الرّقشاء : مؤنث " الأرقش " : ما في لونه نقوش أو اختلاط الألوان .

(4) المغرب 1 : 229 .

حا الأديب أحمد الداني[1] أخاه الوزير في مملكة دانيه ، ب ((غرائب تحاوز فيما ملح
اب ، الى قذع السباب))[2] ، منها قوله[3] (مجزوء الرمل) :

((جار ذا الدّهر علينا .·. وكذا الدّهر يجور
كان شرطيّا أبونا .·. وأخي اليوم وزير
أنا مأبون صغير .·. وهو مأبون كبير)) .

ومنها أيضا[4] (كامل) :

((وعسا أبينا انّما أليّه .·. شوهاء انّاء شوهه الوزراء)) .

ولا ندري بالضبط سبب الوحشة التي حدثت بين الأديب أحمد الداني و أخيه الذي
ل - على حدّ قول ابن بسام - مملكة دانيه على كاهله ، و صرف الملوك بين حقّه و باطله[5] ،
تي آلت الى عداء و رشق بالكلام .

هو أبوجعفر أحمد بن أحمد الدّاني ، من أدباء عصر الطوائف المعدودين . نوّه
ابن بسام به و بأدبه بقوله : ((وله احسان كثير ، منثوم و منثور ، بين قلب ذكيّ ،
ولسان غير بكيّ ، شهدا له بفضل براعه ، و تقدّم في هذه الصّناعه)) . (الذخيره 3 / 2 :
757) . راجع ترجمته في : الذخيره 3 / 2 : 757 ، و المغرب 2 : 404 .
(3) (4) (5) الذخيره 3 / 2 : 758 .

خاتمة الفصل

عالجت في هذا الفصل "الهجاء الشخصي" في الشعر الأندلسي . ومادمت قد أشرت - في تضاعيف الفصل - الى دوافعه المختلفه ، و بيّنت المجالات التي ارتادها الشعراء و الموضوعات التي تناولوها ، و درست أغلب نصوصه مبرزا معانيها و أساليبها ، أخصّص هذه الخاتمه لاستخلاص بعض الملاحظات العامه وللاشاره الى ظواهره الفنيّه العامه .

- ملاحظات عامه :

- لم يخل أي عصر من عصور الوجود العربي الاسلامي في الاندلس من الهجاء الشخصي .

- وقد مارسه شعراء كثيرون من طبقات اجتماعيه مختلفه ، يصل اختلافها - في بعض الأحيان - الى درجه التباين ، و يتفاوتون فيما بينهم كذلك في الشهره ، منهم النابه المشهور ، و منهم الخامل المغمور .

- كان هذا الاتجاه من الهجاء عند بعض الشعراء أثرا لأحداث طارئه و مناسبات عارضه ، و عند بعضهم "احترافا" و انشغالا متواصلا .

- لم يكن الشكل التقليدي للقصيده العربيه العموديه الاطار أو القالب الوحيد الذي أفرغ فيه الشعراء معانيهم و أفكارهم و انّما كان الى جانبها كذلك "فن التوشيح" .

- شاركت بعض شواعر الأندلس في هذا الاتجاه من الهجاء .

- ظواهره الفنيّه العامه :

اشتركت أغلب نصوص الهجاء الشخصي في بعض السّمات الفنيّه حتى غدت ظواهر عامه مميّزه له ، منها : القصر و بساطه التعبير و الاستعانه بالتراث الثقافي و الافحاش .

أ - تباينت نصوص الهجاء الشخصي الاندلسي في الطول و القصر ، بحيث نجد فيه

القصيده و المقاطوعه و البيت و البيتين ، و لكن السّمه الغالبه عليه القصر ، اذ جاء أكثره على شكل مقطوعات .

ب - اتّسمت لغه الهجاء الشخصي الاندلسي في الغالب بالبساطه و الوضوح حتى اقتربت في بعض النصوص من لغه الحديث اليومي . ويبدو أن تلك البساطه - كما سنوضح ذلك في خاتمه البحث - ضروره اقتضتها الغايه من الهجاء و الوضع اللغوي في الاندلس .

ج - استعان أغلب شعراء الأندلس في هجائهم الشخصي بالتراث الثقافي . و أهمّ المناهل التي استقوا منها ثلاثه : القرآن الكريم و الشعر و التاريخ . و يدلّ ذلك على ارتباط أهل الاندلس بجذورهم من جهه و على سعه اطلاع شعرائهم من جهه ثانيه .

وكانت استعانه شعراء الاندلس بالشعر المشرقي بمثابه تلقيح لأشعارهم و تطعيم لها أكسبها قوّه و ثقلا ، لأنّ تصرّفهم فيها كيّفها بأغراضهم ، و جعلها ذات أثر جمالي خلاب في أشعارهم ، و نأى بها عن الحشو و الاقحام .

د - كان الافحاش احدى الظواهر الكبرى التي ميّزت الهجاء الشخصي الاندلسي وبالاخص في القرنين الخامس و السادس الهجريين . وقد انساق وراء هذا التيار كثير من الشعراء و بعض الشواعر المواجن ، فذكروا من بذيء اللفظ و فاحش القول ما يؤذي السمع و يخدش الحياء .

وتنحصر العوامل التي كانت وراء الافحاش - كما سأوضح ذلك في خاتمه البحث - في تفاعل ثلاثه أطراف : الشاعر وشخصيته ، المجتمع الاندلسي و قيمه و الشعر المشرقي و تأثيره .

الفصل الثاني

البهاء الاجتماعي

أقصد بـ " الهجاء الاجتماعي " الشعر الذي نظم للنيل من فئة اجتماعية تربط بينها علاقة ما ، أو للنيل من المجتمع عامة ، أو من قطاع واسع منه ، دون أن يكون لذلك الشعر أية علاقة بالسياسة و شئون الحكم . و بتعبير آخر ، هو الهجاء الذي ينصبّ على المجتمع أو على فئة منه ، دون التعرض الى المثالب المتّصلة بالجنس أو الدين أو السياسة .

و الهجاء الاجتماعي ، كما يرى ايليا حاوي ، أكثر أنواع الهجاء تعقيدا ، و أعمقها تجربة ، لأنه ((يعلن نقمة الفرد على المجموع ، و ثورته على ما يشهد فيه من اختلال في المقاييس و القيم)) (1) .

لقد مارس شعراء الأندلس هذا النوع من الهجاء ، و تعرضوا بالذّم لظواهر اجتماعية قبيحة كالبخل و الانشغال بعيوب الآخرين . و نالوا من فئات اجتماعية عديدة كالفقهاء و الفلاسفة و الشعراء ، بل و من سيّد دائرة هجائه ، فنال من المجتمع بأكمله و من الجنس البشري كافة .

هجاء الفقهاء

حظي الفقهاء في الأندلس بمنزلة اجتماعية رفيعة ، هيّأتها لهم عوامل شتّى ، أهمها اتصال صناعتهم بالدين ، و متاخمة بلادهم الأعداء الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر و يهدّدون وجودهم باستمرار . وقد بيّن المقّري اهتمام الأندلسيين بالفقه ، و مكانة الفقيه بينهم بقوله (2) : ((وقراءة القرآن بالسّبع وروايته الحديث عندهم رفيعة ، و للفقه رونق و وجاهة ، و لا مذهب لهم الاّ مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم . وسمة الفقه عندهم جليلة ، حتّى أن الطّمّعين كانوا يسمّون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه ... وقد يقولون للكاتب و النحويّ و اللغويّ فقيه لأنها أرفع السّيمات)) .

وتزخر كتب التاريخ و التراجم و كتب الأدب العامة بأسماء فقهاء أحلاء ، أثّروا تأثيرا عميقا في الحياة الدينية و الاجتماعية و حتّى السياسية في الأندلس ، كزياد ابن عبد الرحمن (3) ، المعروف بـ " زياد شبطون " ، وهو أول من أدخل الفقه المالكي

---

(1) فنّ الهجاء و تطوّره عند العرب (د . ط) ، بيروت : دار الثقافة ، د . ت) ، ص : 9 .
(2) نفح الطيب 1 : 221 .
(3) هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن اللخمي ، و الملقب "زياد شبطون" . من أعلام ... / ...

الى الأندلس (1)، وكان أهل الأندلس قبل ذلك على مذهب الأوزاعي (2)، وكعيسى بن دينار (3)، ((وكان اماما في الفقه على مذهب مالك بن أنس، وعلى طريقه عاليه من الزهد والعباده)) (4). وهو مؤلف " كتاب الهدايه "، الذي ذكره ابن حزم في رسالته في " فضل الأندلس " (5)، وأثنى عليه بقوله (6): ((وهي أرفع كتب حمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم (7)، وأجمعها للمعاني الفقهيه للمذهب)).

.../. المذهب المالكي في الاندلس . رحل الى المشرق و سمع الموطأ من الامام مالك بن أنس (ت 179هـ/ 795م)، وله عنه سماع يعرف بسماع زياد . ذكره الخشني في (قضاه قرطبه، ص: 72) وقال انه ((أول من دخل الاندلس بالفقه و الحلال و الحرام، وهو أول من أظهر سنه تحويل الارديه في الاستسقاء))، ولم تكن معروفه عندهم من قبل . وترجم له ابن الفرضي في (تاريخ علماء الاندلس 1 : 273 (ترجمه رقم 456)، وذكر أن الامير هشام بن الحكم عرض عليه القضاء فخرج هاربا بنفسه، فقال هشام: ((ليت الناس كزياد، حتى أكفي أهل الرّغبه في الدّنيا، و أمّنه فرجع)). وقال الامير هشام أيضا: ((صحبت الناس و بلوتهم فما رأيت رجلا يسرّ من الزهد أكثر مما يظهر الّا زياد بن عبد الرحمن)). توفي في سنه 204هـ/820م. وقيل: في سنه 193هـ، و 194هـ، و 196هـ، و 199هـ. راجع ترجمته في : قضاه قرطبه، ص: 55-56، 72، وتاريخ العلماء الاندلس الفرضي 1 (ترجمه رقم 456)، وجذوه المقتبس 1 (ترجمه رقم 440)، و بغيه الملتمس ص: 280 (ترجمه رقم 751)، و المغرب 1 : 44، و نفح الطايب 2 : 45-46، و غيرها .

(1) جذوه المقتبس 1 : 338 .

(2) هو عبد الرحمن الاوزاعي، أحد كبار الفقهاء في الاسلام . توفي في بيروت سنه 157هـ/ 774م. تراجم مذهبا معروفا . من آثاره: السنن و المسائل، راجع وفيات الاعيان 3 : 127 (ترجمه رقم 361) .

(3) هو أبو عبد الله عيسى بن دينار بن واقد الغافقي، فقيه الأندلس، من أهل طليطله رحل الى المشرق و صحب عبد الرحمن بن القاسم و تفقه عليه . ثم عاد الى الاندلس ((فكانت الفتيا تدور عليه، لا يتقدّمه في وقته أحد)). (تاريخ ابن الفرضي 2 : 556)). اتّهم في هيج الربض، ففرّ و تخفى، حتّى أمّنه الامير الحكم بن هشام. توفي بطليطله في سنه 212هـ/827م. راجع ترجمته في : تاريخ ابن الفرضي 2 : 556 (ترجمه رقم 973) وبغيه الملتمس (ترجمه رقم 1144)، و المغرب 2 : 24، ونفح الطايب 2 في صفحات متفرقه، و 3 : 167، و غيرها .

(4) بغيه الملتمس، ص: 389 .

(5) راجع نص هذه الرساله في نفح الطايب 3 : 156-179 .

(6) نفح الطايب 3 : 167 .

(7) هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتاقي، من أشهر تلاميذ الامام مالك بن أنس توفي بالقاهره في سنه 191هـ/ 806م. راجع: وفيات الاعيان 3 : 129، و تاريخ الادب العربي لبروكمان 3 : 280 .

ويحي بن يحي اللّيثي (1)، الذي عدّه ابن حزم السّبب الأساسي في انتشار المذهب المالكي في أوّل أمره بالاندلس (2)، لأنه - حسب تعليله - ((كان مكينا عند السّلطان، مقبول القول في القضاء، وكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الاندلس الا بمشورته و اختياره، ولا يشير الا بأصحابه و من كان على مذهبه، و الناس سراع الى الدّنيا و الرّياسه، فأقبلوا على ما يرحون بلوغ أغراضهم به)) (3). وعبد الملك بن حبيب السّلمي (4) مؤلف " الواضحه "

---

(1) هو أبو محمد يحي بن يحي بن كثير " عاقل الاندلس"، من قبيله مصموده البربريه. دخل جدّه كثير الى الاندلس، ونشأ حفيده يحي في قرطبه، و تولّى بني ليث فنسب اليهم. من أعلام فقهاء المالكيه في الاندلس. ترجم له ابن القرضي في "(تاريخ علماء الاندلس 2 : 898-900)وذكر أن أحمد بن خالد كان يقول : ((لم يعط أحد من أهل العلم بالاندلس، منذ دخلها الاسلام، من الحظوه، و عظم القدر، وجلالة الذكر، ما أعطيه يحي بن يحي)). وذلك في عهد الأمير الحكم بن هشام و ابنه الأمير عبد الرحمن الذي كان يلتزم من اعظامه ((وبره مالا يلتزم الابن البارّ بالأب الحاني)) (تاريخ ابن القوطيّه، ص: 73). توفي في سنه 234هـ/848م، و قيل : في الّتي قبلها. راجع ترجمته في : تاريخ ابن القوطيه، ص: 75، و تاريخ ابن الفرضي 2 (ترجمه رقم 1554)، و بغيه الملتمس (ترجمه رقم 1497)، و المغرب 1 : 163 ، ونفح الطيب 2 : 9، و غيرها.

(2) خالف ابن خلدون هذا الرّأي، و أرجع سبب انتشار المالكيه في المغرب و الاندلس الى رحله علماء الاقليمين الى الحجاز، و اقتصارهم على الأخذ عن علماء المدينه، والى غلبه البداوه على سكان العدوتين. راجع في انتشار المالكيه في الاندلس : المغرب 1 : 163-165، تاريخ ابن خلدون 1 : 805-806، الحضاره العربيه في اسبانيا، ص: 149-176.

(3) نفح الطيب 2 : 10، و راجع : المغرب 1 : 164.

(4) هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السّلمي، (عالم الاندلس) من أهل البيره، انتقل منها الى قرطبه، ثم رحل الى المشرق، ولقي عددا من أصحاب الامام مالك و تفقّه عليهم. استمر بسمعه العلم، و تنوّع التأليف و غزارته. ترجم له ابن الفرضي في (تاريخ علماء الاندلس 1 : 459-463) وقال انه كان ((نحويّا، عروضيّا، حافظا للأخبار و الأنساب و الأشعار، طويل اللسان، متصرّفا في فنون العلم)). من مؤلفاته : الواضحه، و الجوامع، و كتاب فضل الصحابه، وكتاب غريب الحديث، وكتاب تفسير الموطأ، و كتاب حروب الاسلام، و كتاب سيره الامام في الملحدين، وكتاب طبقات الفقهاء و التابعين، و كتاب مصابيح الهدى، و غيرها. ذكر المقّري في (نفح الطيب 2 : 5-6) أنه رأى في بعض التواريخ أن مؤلفاته بلغت ألفا. توفي بقرطبه في سنه 238هـ/870م، و قيل في التي بعدها. ولما بلغ نعيه سحنون ابن سعيد القيرواني (أبه عبد الله محمد بن عبد السلام، ت 256هـ/870م)، قال : ((مات عالم الاندلس، بل و الله عالم الدنيا)). راجع ترجمته في : طبقات الزبيدي، ص: 260، و تاريخ ابن الفرضي 1 : 459 (ترجمه رقم 814)، وبغيه الملتمس، ص: 364 (ترجمه رقم 1033)، و المغرب 2 : 96، و نفح الطيب 2 : 5، و غيرها.

ومحمد بن أحمد العتبي (1) صاحب " العتبيّه " ، وبقي بن مخلد (2) وغيرهم .

وكان أكثر الفقهاء في في عصر بني أميه بالاندلس شديدي التعصب للدّين ، زاهدين في الوظائف الرسميه ، و بالأخص في القضاء ، حريصين على المصلحه العامه للبلاد والعباد ، لا يتردّدون في ادانه المستهترين و العابثين بالدّين ، حتى ولو كانوا أمراء ، و خير مثال على ذلك ثوره أهل الربض (3) على الأمير الحكم بن هشام (180-206هـ/ 796-822م) في سنه 202هـ/817م ، ((لانه في صدر ولايته انهمك في لذاته ، فاجتمع أهل العلم والورع بقرابته ، مثل يحي بن يحي ، ... ، وأتوا الفقيه وغيرهما ، فثاروا به وخلعوه ، وبايعوا بعض قرابته ... فقاتلهم الحكم فغلبهم و افترقوا و هدم دورهم و مساجدهم)) (4)

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي ، سمع بالاندلس من جماعه من الفقهاء ، ثم رحل الى المشرق ، فسمع من كثير من الفقهاء منهم أصبغ بن الفرج ، ثم رجع الى الاندلس . ترجم له الحميدي في (جذوه المقتبس 1 : 74) وذكر أنه ((ألّف في الفقه كتبا كثيره سميت " العتبيه " ، وهي المستخرجه من الأسمعه المسموعه من مالك بن أنس)) توفي في سنه 255هـ/868م . راجع : تاريخ ابن الفرضي 2 (ترجمه رقم 1102) ، وجذوه المقتبس 1 (ترجمه رقم 5) ، وبغيه الملتمس ، (ترجمه رقم 9) ، ونفح الطيب 2 : 215 ، وغيرها .

(2) هو أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد ، قرطبي ، سمع من كبار فقهاء الاندلس ، ثم رحل الى المشرق " فأبعد و أطال " ، ولقي 284 رجلا و سمع منهم . ثم رجع الى الاندلس مزودا بمصنّفات نفيسه لم يدخلها الاندلس أحد قبله ، وهي : " مصنف " ابن أبي شيبه (أبي بكر عبد الله بن محمد) ، و كتاب " سيره عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله " لاحمد بن ابراهيم الدّورقي ، و كتاب " الفقه " لمحمد بن ادريس الشافعي ، و كتاب " التاريخ لابي عمر خليفه بن خياط ، و كتابه في " الطبقات " . و دبّ الحسد الى قلوب أصحاب الرأي و التقليد من الفقهاء و ملأها ، فتمالأوا عليه و رموه بالزندقه و الالحاد ، وسعوا في سفك دمه . وبلغت محنته الامير محمد بن عبد الرحمن فاستدعاهم واياه ، واطلع على " مصنف " ابن أبي شيبه ، ولمّا لم يجد ما ينكر فيه و رأى عامه فائدته ، أمر خازن الكتب بنسخ نسخه منه و ايداعها في مكتبته . و دعا بقي بن مخلد الى الجلوس الى الناس ونشر علمه و روايه ما عنده من حديث حتى ينتفعوا به . له مؤلفات كثيره ومتنوعه ، منها كتاب " تفسير القرآن " الذي قال ابن حزم عنه : ((هو الكتاب الذي أقطع قاطعا لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الاسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره)) . (جذوه المقتبس 1 : 274) . راجع : تاريخ ابن الفرضي 1 (ترجمه رقم 281) ، و جذوه المقتبس 1 (ترجمه رقم 332) ، و المقتبس (تحقيق محمود علي مكي) ، ص: 247 ، 261 ، و المغرب 1 : 52 ، وغيرها .

(3) راجع أسباب هذه الثوره و أطوارها ونتائجها في . تاريخ ابن القوطيه ، ص: 68 ، والحلّه السيراء 1 : 44-48 ، والبيان المغرب 2 : 71 ، 75-77 ، ونفح الطيب 1 : 339 .

(4) نفح الطيب 1 : 339 .

واتهم في هذه الثوره من الفقهاء : يحي بن مضر القيسي و عيسى بن دينار و خالوت بن عبد الجبّار و يحي بن يحي اللّيثي . و قتل الاول بسببها ، و فرّ الآخرون و اختفوا ، الى أن أمّنهم الحكم .

ولما ذهبت دوله بني أميه في مالم القرن الخامس الهجري ، و جاء ملوك الطوائف ، سار أكثر الفقهاء في ركاب الملوك ، و قبلوا وظائفهم و صلاتهم ، و كان التساهل واللّين في أمور الدين هو الثمن الذي دفعوه مقابل ما حنوه من جاه و أثره و دنيا عريضه ، اذ لم يعد باستطاعتهم نقد سياستهم أو معارضتهم و الخروج عليهم . ولذلك حمّل ابن حيان (ت 469هـ/ 1076م) ، المؤرخ الاندلسي الجليل ، الملوك و الفقهاء تبعه ما أصاب المسلمين في الاندلس من ضعف و وهن و محن و ويلات ، في معرض حديثه عن سقوط بربشترو (BARBASTRO) في سنه 456هـ/ 1064م في يد النورمانديين الفرنسيين. يقول : (1) ((ولم تزل آفه الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملح فيهم : الامراء والفقهاء ، قلّما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون و بفسادهم يردون ، فقد خصّ الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوصاج صنفيهم لدينا هذين ، بما لا كفاية له ولا مخلص منه ، فالامراء القاسطون قد نكّبوا بهم عن نهج الطريق ، زيادا عن الجماعه ، وحوشا الى الفرقه ، و الفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عمّا أكّده الله عليهم في التّبيين لهم ، فقد اصبحوا بين آكل من حلوائهم ، خائض في أهوائهم ، و بين مستشعر مخافتهم ، آخذ بالتّقيه في صدقهم ، و أولئك هم الأقلون فيهم)) .

و من الفقهاء القلائل الذين تأثروا بمعاناه المسلمين في القرن الخامس الهجري بسبب تكالب الأعداء عليهم الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني (قتل في سنه 460هـ /1067م) الذي خاطب المعتضد بن عباد برساله (2) من مرسيه يدعوه فيها الى الجهاد ، استفتحها بقوله (3) (طويل) :

---

(1) الذخيره 3/ 1 : 130-131 ، و البيان المغرب 3 : 254 ، و نفح الطيب 4 : 453 .
(2) راجع بعض فصولها في : الذخيره 2/ 1 : 83-88 .
(3) الذخيره 2/ 1 : 83 ، و المغرب 1 : 240 ، و نفح الطيب 2 : 93 .

((أعبّاد حلّ الرّزء والقوم هجّع .·. على حاله من مثلها يتوقّـــع

فلق كتابي من فراغك ساعـــه .·. وان طال فالموصوف للطّول موضع

اذا لم أبثّ الداء ربّ دوائـــه .·. أضعت و أهل للملام المضيّـــع)) .

ولما قضى المرابطون على ملوك الطوائف ، و بسطوا سلطانهم على الاندلس تألّق الفقهاء واتسع نفوذهم أكثر من أي وقت مضى ، يؤكد ذلك قول عبد الواحد المراكشي ، عندما تعرّض للحديث عن عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ/ 1106-1143م) ، يقول عنه : (1) ((واشتدّ ايثاره لأهل الفقه و الدين ، و كان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاوره الفقهاء . فكان اذا ولّى أحدا من قضاته كان فيما يعهد اليه : ألّا يقطع أمـــرا ولا يبتّ في صغير من الامور و لا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء . فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصّدر الاول من فتح الاندلس ... فعظم أمـــر الفقهاء ... و انصرفت وجوه الناس اليهم فكثرت لذلك أموالهم ، و اتسعت مكاسبهم)) .

وفي الوقت الذي شهدت فيه سوق الفقه رواجا و نفاقا ، شهدت سوق الشعر ، وبالاخص المدح ، كسادا و بوارا ، خاصة في عهد الامير يوسف بن تاشفين (485-500هـ/ 1092-1106م) ، و الامير علي ابنه . وقد عبّر الشاعر الوشّاح الاعمى التطيلي (ت 525هـ/ 1131م) عن هذا الانقلاب الكبير ، الذي أدى الى تقدم الفقيه و تألّقه و الى تأخر الشاعر و خموله في قوله (2) (طويل) :

((أيا رحمتا الشّعر أقوت ربوعه .·. على أنها للمكرمات مناســـك

وللشعراء اليوم ثلّت عروشهـــم .·. فلا الفخر مختال و لا العزّ تامك

اذا ابتدر الناس الحفاظ وأشرفت .·. مطالب قوم وهي سود حوللـــك

---

(1) المعجب (ط 2 ، ليدن : 1881 ، نشره دوزي) ، ص : 123 . نقلا عن : الفرق الاسلاميه في الشمال الافريقي من الفتح حتى اليوم لألفريد بل . ترجمه عبد الرحمن بدوي (ط 2 ، بيروت : دار الغرب الاسلامي ، 1981م) ، ص: 240 .

(2) ديوان الأعمى التطيلي ، الورقه : 47 . نقلا عن تاريخ الادب الاندلسي : عصر الطوائف و المرابطين لاحسان عباس ، ص: 90 .

رأيتهم لو كان عندك منفع . . كما كسدت خلف الرئال الترائك

فيا دوله الضيم اجملي أو تجملي . . فقد اصبحت تلك العرى و العرائك

ويا "قام زيد" أعرضي أو تعارضي . . فقد حال من دون المنى "قال مالك")) .

و الابيات تبيّن امتياز مكانه علماء اللغه و الشعراء ، و بالأخص المدّاح منهم الذين لم تعد لهم الصّداره في بلاط الامراء المرابطين الاول ، الذي شغل بعلماء الدين . وهذا الانقلاب ولّد في نفوس بعض الشعراء الحقد على الفقهاء ، و عكسته بعض أشعارهم .

ان الخصومه بين الشعراء و الفقهاء قديمه . و يعدّ يحي الغزال من أوئل الشعراء الذين تعرّضوا للفقهاء ، في أبياته التي طعن بها في نزاهتهم ، و تساءل عن مصدر ثرائهم يقول (1) (خفيف) :

((لست تلقى الفقيه الّا غنيا . . ليت شعري من أين يستغنونا

تقطع البرّ و البحار طلبا للرّ . . زق و القوم ما هنا قاعدونا

ان للقوم مضربا غاب عنّا . . لم يصب قصد وجهه الرّاكبونا)) .

ان الصوره التي تتبادر الى ذهن المرء عندما يسمع عباره " فلان فقيه " هي صوره الانسان الورع ، العارف بالاحكام الشرعيه ، الذي لا يأكل الّا ماكان حلالا طيّبا ، ولكنها في شعر يحي الغزال صوره المتكالب على جمع المال ، من أي وجه كان . لقد جمع الفقهاء من المال وهم قاعدون ما لم يجمعه العاملون الذين يجوبون القفار و يقاسون البحار . وهكذا أصبح الثراء مرتبطا بصناعه الفقه دون غيرها . و أصبح الفقه " تجاره " تدرّ على أصحابها المال الوفير .

واذا كان الشاعر قد تساءل في عجز بيته الأول عن مصدر ثراء الفقهاء ، فانه أشار في البيت الاخير الى أن منالك " مضربا " يدرّ عليهم بالمال الكثير ، لم يهتد اليه العاملون ،

---

(1) حكمه علي الأوسي ، فصول في الأدب الاندلسي في القرنين الثاني و الثالث للهجره (ط 2 ، بغداد : مكتبه النهضه ، 1974م) ، ص : 194- 195 . (ملحق مجموع شعر الغزال تحقيق وشرح) .

الا أنه لم يحدّده ، و ترك أمر تعيينه و معرفته الى السّامع أو المتلقي .

غير أنّ حمله الشعراء على الفقهاء لم تستعر الاّ في العصر المرابطين ، حين نفق الفقه و تقدّم رجاله و احتلوا صدر المجالس ، و كسد الشعر و تأخر الشّعراء ، وبالاخص المدّاحون منهم . حينئذ أخذ الشعراء ينعون على الفقهاء تهافتهم على الدّنيا ، ومتاجرتهم بالدين ، و اتخاذه آداة لبلوغ أغراض شخصيه دنيه . فابن ساره يرى الفقهاء ذئابا في صور آدميين . يقول (1) (مجزوء الخفيف) :

((يا ذئابا بدت لنـــــا .·. في ثياب ملوّنـــــه

أهلا لا رأيتـــــــــم .·. أكلنـا في " المدوّنـــه"؟)) . (2)

يسأل ابن ساره الفقهاء بخبث : يا ذئابا ، هل أحلّ لكم الامام سحنون "أكلنا" في " المدوّنه" ؟ و لا ينتظر الاجابه من أحد ، لأنه يعلم أنّ سحنونا لم يبح الظلم ولا أحلّ الاعتداء على حقوق الناس . و القصد من تحامله ذاك التهكّم بهم و توكيد الانكار عليهم .

و يلاحظ في البيتين أمران : الاول - قيامهما على التناقض الذي يبدو جليا بين مظهر الفقهاء الحميل الخادع (عليهم ثياب ملونه) و بين مخبرهم القبيح المخيف (ذئاب) . و بين معرفتهم الدينيه النظريه و بين سلوكهم اليومي في الحياه . و الثاني - استعمال الشاعر للضمير الدّال على المتكلم في حاله الجمع مرّتين (بدت لنا ، أكلنا) ، و يستنتج من ذلك أن الشاعر غدا صوتا اجتماعيا ، يدافع عن قضيه عامه تهمّ الرّعيه كافه . وربّما قصد الى ذلك من أجل تأليب العامه على الفقهاء ، بعد أن شوّه صورهم .

ولا شكّ أن هذا الهجاء يؤلم الفقهاء ، لان الشاعر أماط براقعهم ، و ناداهم بصفه لا ترضيهم (ذئاب) ، و طرح عليهم سؤالا يحرف جوابه ، و شهّر بهم .

---

(1) الخريده 2 : 330 .

(2) المدوّنه : كتاب كبير في الفقه المالكي ، ألّفه الامام سحنون (عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التّنوخي القيراواني ، المتوفى في سنه 240هـ/ 854م) اعتمادا على موطأ الامام مالك برواية أسد بن الفراه النّيسابوري ، ((على أساس المسائل التي وجّهها سحنون الى محمد بن القاسم)) ، وله شروح كثيره . راجع : تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 3 : 231-234 .

والفقهاء في نظر أبي بكر الأبيض، وكان معاصرا لابن سارة، مراؤون، ملكوا الدنيا بمذهب الامام مالك، واقتسموا الأموال، واتخذوا فاخر المطايا بتلاميذه وأتباعه يقول[1] (كامل):

((أهل الرّياء لبستم ناموسكم .·. كالذئب يدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدّنيا بمذهب مالك .·. وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب البغال بأشهب .·. وبأصبغ صبغت لكم في العالم)). (2)

ولعلّ أهمّ ما يستوقف النظر في هذه الأبيات هو ربط الشاعر أربعة أفعال بأربعة أسماء من أعلام المذهب المالكي: (ملكتم الدّنيا - مالك "مؤسس المالكيه")، (قسمتم الأموال - ابن القاسم)، (ركبتم شهب البغال - أشهب)، (صبغت لكم في العالم - أصبغ)، وذلك من أجل تثبيت الهجاء في نفوس السامعين.

ويشبّه أبو بكر الأبيض الفقهاء في الأبيات التالية بالسباع الضاريه، والعامه بقطيع الأغنام، يقول[3] (كامل):

((قل للامام، سنا الائمه مالك .·. نور العيون، ونزعه الأبصار
لله درّك من همام ماجد .·. قد كنت راعينا فنعم الراعي
فمضيت محمود النقيبه طاهرا .·. وتركتنا قنصا لشرّ سباع
أكلوا بك الدّنيا وأنت بمعزل .·. طاوي الحشا متكفّف الأضلاع
تشكوك دنيا لم تزل بك سرّه .·. ماذا رفعت بها من الأوضاع؟)).

وهذه الأبيات أقرب الى الشكوى منها الى الهجاء، وفيها نحسّ بأنين الشاعر وتوجّعه، النابعين من تأثر شديد وألم ممضّ. ولكن على الرغم من قلّة الهجاء فيها.

---

(1) نفح الطيب 3: 448، وزاد المسافر، ص: 113.
(2) أشهب: أبو عمر أشهب بن عبد العزيز، فقيه مصري، من تلاميذ الامام مالك. توفي في سنه 204هـ/820م. راجع: وفيات الأعيان 1: 238.
أصبغ: أبو عبد الله أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع، فقيه مصري، صحب ابن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وغيرهما. توفي في سنه 255هـ/840م. راجع وفيات الأعيان 1: 240.
(3) م.ن، ص.ن.

أوعدم وضوحه ، فانه من أشدّ الهجاء و أمضه ، لانّ الشاعر يعجب من كون الخير ينتج الشرّ و من مفارقه غير متوقعه . يلاحظ ثم يأسف ثم يحزن ثم يبكي و يعجب و يعجّب .

و في هذه الابيات كذلك ، تذوب ذات الشاعر و تتحد بذوات الرّعيه (كنّا راعينا ، تركنا) . و يعبّر عن معاناه عامه و استياء شامل . فهو لسان المجتمع صادقا في ذلك أو مدّعيا متزيّدا .

و يوضّح ابن خفاجه (ت 533هـ/1138م) الهدف الذي من أجله طلب الفقهاء العلم ، و الغايه التي من أجلها تزهّدوا في قوله (1) (كامل) :

((درسوا العلوم ليطلبوا بها الدنى . . فيها ، صدور مراتب ومجالس

وتزهّدوا ، حتى أصابوا فرصه . . في أخذ مال مساجد و كنائس)) .

فالعلم لم يعد غايه عند الفقهاء بل صار وسيله لنيل الامتيازات عند الامراء و الحكام . ولم يعد الزّهد نتيجه ايمان راسخ عميق المفوز بنعيم الآخره بل صار أداه لنهب أموال المساجد و الكنائس .

وهكذا نلاحظ أن الاتجاه العام لسياسه المرابطين الرّامي الى النهوض بالدين ، واعاده مجده الأول ، و دوره في الحياه ، وزهد يوسف بن تاشفين و ابنه علي من بعده في قيمه الشعر لأسباب ثقافيه مختلفه ، كلّ ذلك سمح للفقهاء بالتألق ، و أصبحوا يكونون طبقه اجتماعيه متميّزه ، في حين فقد الشعراء و بالأخص المدّاحون منهم بعض مواقعهم ، و تقلّص دورهم .

لقد صحب قضاء المرابطين على نظام ملوك الطوائف ، القضاء على نفوذ الشاعر المدّاح في البلاط ، لذلك نقم الشعراء ، و بالأخص المتكسبين بالشعر منهم ، على الفقهاء ، فنصبوهم العداء ، و فضحوا - حقّا أو باطلا - أسلوبهم القائم على الرّياء و استغلال الدين لتحقيق أغراض شخصيه دنيويه .

---

(1) ديوان ابن خفاجه . جمع كرم البستاني و تقديمه (د . ط . بيروت : دار بيروت للطباعه و النشر ، 1400هـ/1980م) ، ص: 155 ، ونفح الطيب 3 : 303 .

محاربة الفلسفة

لم يقبل أهل الاندلس على دراسة الفلسفة كما أقبلوا على غيرها من العلوم ، وظلّت العامة تنظر اليها دائما نظرة خوف وارتياب . وقام الفقهاء بدور كبير في ترسيخ كره الفلسفة في نفوسهم ، و تنفيرهم منها . كما كانوا يضايقون كلّ من يشاع عنه اشتغاله بها ، و يرمونه بالالحاد و الزندقة ، و يؤلبون العامة عليه . و تشدّد الحكام من جهتهم في قمع المشتغلين بالفلسفة ، واضطهادهم ، ارضاء للفقهاء و تودّدا للعامة . ولم يكن التنجيم أحسن حالا من الفلسفة .

يحدثنا المقّري عن الصورة العامة للفلسفة و التنجيم في الأندلس ، فيقول : (1) ((وكل العلوم لها عندهم الاندلسيون حظّ و اعتناء الا الفلسفة و التنجيم ، فانّ لهما حظّا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ، فانه كلّما قيل : "فلان يقرأ الفلسفة" أو " يشتغل بالتنجيم " أطلقت عليه العامة اسم زنديق ، و قيّدت عليه أنفاسه ، فان زلّ في شبهة رموه بالدحارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرّبا لقلوب العامة ، وكثيرا ما يأمرملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت)) .

وكان الحاجب المنصور بن أبي عامر (ت 392هـ/1002م) من أشدّ الحكام عداء للفلسفة في العلانية ، على الرّغم من اشتغاله بها في السرّ . و تولّى بنفسه ، تقرّبا للعامة ، احراق ما وجد في مكتبة الحكم المستنصر بالله (ت 366هـ/ 976م) من كتب " الدهرية "والفلاسفة بمحضر كبار العلماء .(2)

و شنّ فقهاء المالكية حملة شعواء على أبي محمد علي بن حزم ، المفكر الاندلسي الكبير ، بسبب اشتغاله بالفلسفة ، و اتّباعه المذهب الظاهري ، و لاقى حصارهم الفكري الخانق له صدى في أفئدة الملوك ، بسبب تشيّع ابن حزم لأمراء بني أميّة ، فأقصوه عن حواضرهم .(3) ولم يكتف المعتضد بن عباد (ت 461هـ/1068م) بالاقصاء ، وانما دفعه شنآنه لـه ،

---

(1) نفح الطيب 1 : 221 .
(2) البيان المغرب 2 : 292-293 .
(3) الذخيرة 1/1 : 167-169 .

وحوضه على الفقهاء و العامّه الى حمع كتبه و اضرام النّار فيها في اشبيليه. الا أن الحصار و الاحراق لم يزيدا ابن حزم الّا اصرارا و ثباتا على الموقف، ولذلك قال (طويل)[1]:

((فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي * تضمّنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي * وينزل ان أنزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رقّ وكاغد * وقولوا بعلم كي يرى النّاس من يدري
والّا فعودوا في المكاتب بدأه * فكم دون ما تبغون للّه من ستر)).

وفي هذه الأبيات يبيّن ابن حزم للفقهاء الجاحدين، وللحكام المتسلّطين، وكل من يوصد الأبواب أمام حريه الفكر، أن الفكر لا يقتل بالقمع، و العلم لا يؤد بالاحراق، وانما يقاومان بالعلم و الجدال.

ولمّا تغيّر يعقوب المنصور الموحّدي (ت595هـ/1198م) على ابن رشد (595هـ أو 598هـ)، كتب كتبا الى عمّاله كلهم يأمرهم فيها ((باحراق كتب الفلسفه كلّها الا ما كان من الطب و الحساب، و ما يتوصل به من علم النجوم الى معرفه أوقات الليل والنهار و أخذ سمت القبله))[2].

ولم ينج الشعراء كذلك من القمع و الاضطهاد، اذا أظهروا في سلوكهم ما يطعن في أخلاقهم و دينهم، كما وقع لابن هانىء الاندلسي (ت 362هـ/972م)، و أبي جعفر أحمد بن محمد البتي (ت 478هـ/1085م) الذي ((ما برح مدّه حياته منتزحا عن الأوطان، خائفا مترقبا من السلطان، لما شهد به النابر عليه، و نسبوه اليه، من الزندقه والالحاد، و انكار حشر الأجساد، وانكبابه على الاشتغال بكتب ابن سينا و انكفافه، وميله عن الكتاب و السّنه و انحرافه))[3].

ونفي الأديب ابن الحنّاط (ت 437هـ/1045م) من قرطبه لاشتغاله بالمنطق

---

(1) الذخيره 1/1: 171. وراجع: نفح الطيب 2: 82.
(2) المعجب (اختيار أحمد بدر)، ص: 211.
(3) المغرب، ص: 124.

والفلسفه ، فاتجه الى الجزيره الخضراء ، حيث استقر في رعايه الأمير محمد بن القاسم ابن حمود (440هـ/1048م) . وفي سبب خروجه من قرطبه يقول (1) (طويل) :

((تفرّغت من شغل العداوه والتّاعبين . . وصرت الى دار الاقامه و الأمن

أمقتوله الأجفان من دمع حزنهـا . . أفيقي فانّي قد أفقت من الحزن

فللّه سيري يوم ودّعت صحبتـي . . زماعا ولم أقرع على ندم سنّـي (2)

رحلت فكم من جؤذر وغضنفـر . . يرنّي الثّرى من فضل أدمعه الهتن

وما عن قلى فارقت تربه أرضكـم . . ولكنّني أشفقت فيها من الدّفن)) .

وحدث في بعض الأحيان أن حكم أمراء سرقسطة الحركة الثقافيه العلميّه عامّه وضعفوا حريه الفكر ، فنهضت الدراسات الفلسفيه و انتعشت . ويعدّ القرن السادس الهجري بحقّ العصر الذهبي للفلسفه الأندلسيه ، بحيث ظهر فيه فلاسفه كبار ، ابّقت شهرتهم الآفاق ، كابن باجه (ت 533هـ/1138م) ، وابن طفيل (ت 581هـ/1185م) ، و ابن رشد ، وابن حرج الذّهبي (ت 601هـ/1204م) .

انبرى بعض الشعراء للفلاسفه فهجوهم . منهم من تعرّض لهم فرادى ، ومنهم من عمّم هجاءه ، ونال منهم كـ " فئه ضاله " ، كابن حبير (614هـ/1217م) الذي تعرّض لهم في ثلاث مقطوعات . يقول في الأولى (3) (سريع) :

((قد ظهرت في عصرنا فرقـه . . ظهورها شؤم على العصـر

لا تقتدي في الدّين الاّ بمـا . . سنّ ابن سينا و أبونصـر)) .

فالفلاسفه في نظره فرقه مشؤومه على العصر ، نبذت القرآن الكريم و سنّه رسول اللّه (صلعم) ، واقتدت بأقوال ابن سينا و أبي نصر الفارابي .

ويرى في مقطوعته الثانيه أنهم " فرقه " تضيّع وقتها في الاشتغال بـ " السّفه " ، يقول (4) (سريع) :

---

(1) الذخيره 1/1 : 450 . وراجع : المغرب 1 : 122 .

(2) زماعا : الزّماع : السّرعه ، و المضاء في الأمر ، و العزم عليه .

(3) (4) نفح الطيب 2 : 385 .

((ياوحشه الاسلام من فرقه ... شاغله أنفسها بالسّفه !

قد نبذت دين الهدى خلفها ... واتّبعت الحكمه و الفلسفه)) .

ويقول في الثالثه (1) (مخلع بسيط) :

((ضلّت بأفعالها الشّنيعه ... طائفه عن هدى الشّريعه

ليست ترى فاعلا حكيما ... يفعل شيئا سوى الطبيعه)) .

ونجد هذا الموقف المناهض للفلسفه عند أبي بكر بن قسّوم (ت 639هـ/1242م) كذلك ، يقول (2) (طويل) :

((ألا قبّح الرّحمن شرّ عصابه ... تدين بأقوال الغواه و تقتدي

تصدّق ما قال ابن سينا ضلّه ... و تكذّب قول الهاشميّ محمّد

أقاويل افك مالها من حقيقه ... تفيد سوى الكفر الصريح المجرّد

ألا غضبه لله في نصر دينه ... تقدّ طلاهم بالحسام المهنّد !)) .

ويقول في أخرى (3) (متقارب) :

((عذيري ، عذيري من فرقه ... غدت للشّريعه أعدى العدى

تدين بما قاله فاسق ... تزندق في قوله و اعتدى

تصدّق قول ابن سينا هما ... وتكذب قول نبيّ الهدى

متى يأذن اللّه في حسمها ... بضرب الحسام و حزّ المدى)) .

ولا عجب أن يرمي ابن قسّوم الفلاسفه بالزندقه و الكفر و الضلال ، لأنه يصدر عن عاطفه دينيه .

ولم يقتصر عداء الفلاسفه على بعض الشعراء ، بل تعدّاهم الى بعض المؤلفين ، كابن بسّام الذي غصّ من بعض الشعراء " المتفلسفين " أورد قول السّميسر (4) (سريع) :

((ليس لمن ليست له قدره ... كالأخذ عند الرّزء بالصبر

أو فما حيله مستضعف ... ليس له فضل على الذّرّ ؟

---

(1) نفح الطيب 2 : 385 .

(2) (3) عمر فرّوخ ، تاريخ الادب العربي (ط 1 ، بيروت : دار العلم للملايين ، 1982م) ، 5: 738

(4) الذخيره 1/2 : 889 - 890 .

نسبته منهما فهذي و ذا . . تحت الّذي حدّ له يجري

من كان مخلوقا من الارض اذ . . ركّب لم يطلع على السّرّ

حتّى ترى الجثّه ما روحه . . و النّفس في عالمها تسري

فعندها يأمن ما يتّقي . . وعندها يعلم بالأمر

هذا على مذ هبنا ثمّ قد . . قيلت مقالات و لا أدري

لقد نشبنا في الحياه الّتي . . توردنا في ظلمه القبر

يا ليتنا لم نك من آدم . . أورانا في شبه الأسرا

ان كان قد أخرجه ذنبه . . فما لنا نشرك في الأمر؟!)).

فلم ترقه هذه التأملات الفلسفيه و "الشطحات" الفكريه ،و ذيل الأبيات بقوله: (1)

((و السّميسر في هذا الكلام ممّن أخذ العلّو بالتقليد ،ونادى الحكمه من مكان بعيد ، صرّح عن عمى بصيرته ،و نشر مطويّ سريرته ،في غير معنى بديع،و لا لفظ مطبوع، ولعلّه أراد أن يتبع أبا العلاء ،فيما كان ينظمه من سخيف الآراء ،و يابعد ما بين النجوم و الحصباء)).

ولمّا أورد شعر عبد الجليل بن وهبون في رثاء أبي الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ، حرّه الحديث الى ذكر شعر ابن سوار الشنتريني ،الذي يقول فيه (2) (رمل):

((يا لقومي دفنوني و مضوا . . و بنوا في الطّين فوقي ما بنوا

ليت شعري اذ رأوني ميّتا . . و بكوني أيّ حزأيّ بكوا!

أنعوا جسمي فقد صار الى . . مركز التّعفين أم نفسي نعوا؟

كيف ينعون نفوسا لم تزل . . قائمات بحضيض و بحوّ؟

ما أراهم ندبوا فيّ سوى . . فرقه التأليف ان كانوا دروا)).

علّق على هذه الأبيات قائلا: (3) " وهذا معنى فلسفيّ ،قلّما عرّج عليه عربي ،و انما فزع اليه المحدثون من الشعراء ،حين ضاق عنهم منهج الصواب ،و عدموا رونق

---

(1) الذخيره 1/2: 890.

(2)(3) م.ن ، 2/1: 479-480.

كلام الأعراب ، . . . ،وقد قال بعض أهل النقد انه عيب في الشعر و النثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمه من كلام الأطباء ،أو بألفاظ الفلاسفه القدماء)) .

نستخلص ممّا ذكر أن علماء الدّين في الأندلس و العامّه و الشعراء المتديّنين قد ناصبوا الفلاسفه العداء بدافع العاطفه الدينيّه ،و وسموهم بالزندقه ،و رموهم بالكفر و الالحاد ،وسعوا لاضرارهم ماديّا و معنويا . و تتقّص ابن بسّام ،صاحب الاتجاه الأخلاقي في النظر الى الآثار الأدبيه ،من بعض الشعراء الذين ذكروا معاني فلسفيه في أشعارهم .

هجاء الشعراء

ان هجاء الشعراء كـ " فئه اجتماعيه "يكاد يكون منعدما في الشعر الأندلسي ، بحيث لم أعثر ،فيما وقع بين يدي من مؤلفات ، سوى على مقطوعتين للسّميسري .أما هجاؤهم فرادى فكثير . يقول السّميسري في المقطوعه الاولى (1) (سريع) :

((أنا أحبّ الشّعر لكنّني . . . ابغض أهل الشّعر بالفطره

فلست تلقى رجلا شاعرا . . . الّا وفيه خلّه تكره

ان لم يكن كفرا تكن آفه . . . تلازم الشّاعر أو السّاعره

و العجب و النّوك الى الجهل في . . أكثرهم الّا مع النّدره)) .

فالسّميسري يحبّ الشّعر و لكنه يشنأ الشعراء ،لاتصاف أكثرهم بخلال ذميمه كالعجب و الحمق و الجهل ،بالاضافه الى الكفر أو الشذوذ الجنسي .

وقد عاضد المقّري السّميسري في بعض ما ذهب اليه ،عندما أشار الى بعض خصائص أهل الأندلس .قال (2) : ((واذا كان الشخص بالاندلس نحويّا أو شاعرا فانه يعظم في نفسه لا محاله و يسخف ،و يظهر العجب ،عاده قد جبلوا عليها)) .

ويقول في الثّانيه (3) (سريع) :

---

(1) الذخيره 1/2 : 833 .
(2) نفح الطيب 1 : 222 .
(3) ع.س، 1/2 : 834 .

((ياشعراء العصر لا تحسبوا ... شعركم منذ كان محسوسا

فانما حيّكم ميّت ... كأنّما محييكم عيسى

ان كان منظومكم عندكم ... سحرا فمنظومي عصا موسى)) .

يطعن السّميسر في مواهب شعراء عصره و قدراتهم ، و يدّعي أنّه أشعر منهم ، وأنّ الفرق بين نظامه و نظامهم في الجوده و التّأثير شاسع ، كالفرق بين سحر سحره فرعون و عصا موسى عليه السّلام .

هجاء البخلاء

عرف أهل الاندلس بالاحتياط و الاقتصاد في المعيشه ، و الحرص الشديد على ما في ايديهم خوفا من ذلّ المسأله .(1) كما عرفوا أيضا بمقتهم الشّديد للتّسوّل .(2) ولذلك كان البخل من أهمّ الظواهر الاجتماعيه التي رصدها الشّعراء في المجتمع الاندلسي ، وانبروا لها بالذّمّ . غير أنّ أغلب هجائهم انصبّ على البخلاء كأفراد ، حتّى انه بلغ الامر ببعض الشعراء أن عيّنوا معجوّنيهم بأسمائهم . وذلك أمر طبيعي ، لأنّ الشاعر لا يهجو الّا من حرمه و صرفه خائبا ، و لا يكون في الغالب الأشخصا معينا . أمّا هجاء البخلاء كـ" فئه اجتماعيه" فقليل . و كان لابن عبد ربّه حصه الأسد فيه من ذلك قوله و قد هاله غلبه اللّؤم و الغباء و الحفاء على الناس ، و تمكّن الشّح من نفوسهم .(3) (طويل) :

((أبا صالح ! أين الكرام بأسرهم ؟ ... أفدني كربما فالكريم رضاء

أحقّا يقول الناس في جود حاتم ... وابن سنان كان فيه سخاء ؟

عذيري من خلق تخلّق منهم ... غباء و لؤم فاضح وحفاء

حماره بخل ما تحود و ربّما ... تفجّر من همّ الحماره ماء

ولو أنّ موسى جاء يضرب بالعصا ... لما انبجست من ضربه البخلاء (4)

---

(1) نفح الطيب 1 : 243 .

(2) م. ن ، 1 : 220 .

(3) العقد الفريد 2 : 350 .

(4) يقتبس ابن عبد ربّه من قوله تعالى :((. . . وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشره عينا . . .)) . (س. الأعراف آ : 160) .

بقاء لئام النّاس موت عليهـــم .·. كما أنّ موت الأكرمين بقـــــاء

عزيز عليهم أن تحنوا أكفّهم .·. عليهم من اللّه العزيز عفـــاء)) .

فالبخلاء اقسى من الحجاره الصّلبه و أشدّ ، حتى انه لو يبعث موسى عليه السّلام، و يضربهم بعصاه لما انبجسوا من ضربه ،و لما أحدث معهم معجزته . وانتهى الى أنّ اللّئام موتى وهم أحيـاء ،و أن الكرام أحيـاء بالذّكر الحسن و لو كانوا أموتا .

و ينحى ابن عبد ربّه باللّوم ،في الأبيـات التاليه ،على الدّهر الخؤون الذي اختلّت فيه الموازين ،فأصبح السّاده عبيدا و العبيد ساده ،و انكفأ الشّرفاء و صال " الذئاب" وجالوا ،و استولى " الكلاب" على جميع الخيرات ،و بالرّغم من ذلك يضنّون بأحقـــر الأشياء و أتفهها " التراب" . يقول (1) (وافر) :

((رجاء دون أقربه السّحـــاب .·. و وعد مثل ما لمع السّـــراب

و دهر سادت العبدان فيـــه .·. وعاشت في جوانبه الذئـــاب

و أيّام خلت من كلّ خيـــــر .·. و دنيا قد توزّعها الكـــلاب

كلاب لو سألتهم تـــرابـــا .·. لقالوا : عندنا انقطع التّراب

تعاقب من أساء القول فيهـــم .·. و ان يحسن فليس له ثـــواب)) .

و تعكس هذه الأبيات ما كان يدور في صدر ابن عبد ربّه من غضب عارم ،نتيجه خيبه أمل شديده لذلك ،نراه يستعمل أقبح الصّور و أحقرها كـ" العبدان " و " الذئاب" و" الكلاب" ،لدّلاله على الحكام و كبار رجال الدّوله من وزراء و قاده جيوش و غيرهـــم من الأعيان و الأثرياء .

وقد جنح ابن عبد ربّه الى التعميم ،اما بسبب تكرّر تجربه الاحباط ،و اما لأنـــه يعني واحدا من أصحاب السّلطه و النفوذ - وهو الأقرب الى الاعتقاد - ولكنّه عمّم خوفا مما قد يناله من العقاب . و من ذلك قوله أيضا (2) (بسيط) :

---

(1) العقد الفريد 2 : 342 .

(2) م ن ، 2 : 350 - 351 .

((ساق ترنّح يشدّه فوقه ســـاق .·. كأنّه لحنين الصوت مشتـاق

ياضيعه الشّعر في بله جرامقـــه .·. تشابهت منهم في اللؤم أخلاق

غلّت بأعناقهم أيد مقفّعـــــه .·. لا بوركت منهم أيد و أعنـــاق

كأنّما بينهم في منع سائلهـــم .·. و حبس نائلهم عهد وميثاق

كم سقتهم بأمادي وقد تهـــم .·. نحو المعالي فما انقادوا ولا انساقوا

وان نبا بي في ساحتهم وطـــن .·. فالأرض واسعه و الناس أفراق

ما كنت أول ظامآن بمعمعـــه .·. يغرّه من سراب القفر رقراق

رزق من الله أرضاهم و أسخطني .·. و الله للأنوك المعنتوه رزّاق

ياقابض الكفّ لا زالت مقبّضـــه .·. فما أنا ملما للنّاس أرزاق

وغب اذا شئت حتّى لا ترى أبدا .·. فما لفقدك في الأحشاء اقلاق

ولا اليك سبيل الجود شارعـه .·. ولا عليك لنور المجد اشراق

لم يكتفني رجاء، لا، ولا أمـل .·. الاّ تكفّه ذلّ و امـــلاق)).

ويبدو أن ابن عبد ربّه قال هذه القصيده أيّام خموله و عوزه، و يعني بمدائحه فيها الحكّام و الأعيان، الذين لم يعترّوه لمدائحه، وصرفوه دون نوال، أو لم يعطوه ما يرضيه.

ومن أجود أبياتها، قوله:

((وغب اذا شئت حتّى لا ترى أبدا .·. فما لفقدك في الأحشاء اقلاق))

فحضور هذا البخيل و غيابه، عند الشاعر، سيّان. و حياته و موته كذلك، لأنه لئيم لم يسعف المحتاجين من الناس بشيء يجعلهم يفتقدونه اذا غاب، أو يبكونه اذا مات. و يفهم من ذلك أن قيمة الانسان تقاس بمدى حضوره في قلوب الناس، و بحبّهم له، و أن الاحسان يزرع الحب، و البخل يثمر البغض و الكراهيه.

وعبّر أبو الوليد الباجي[1] عن بخل بعض أهل زمانه فقال[2] (وافر) :

((مضى زمن المكارم و الكرام .·. سقاه اللّه من صوب الغمام

وكان البرّ فعلا دون قول .·. فصار البرّ ناطقا بالكلام)).

وذيّل بعضهم شعره - وكان أكثر منه تشاؤما - بقوله[3] :

((وزال النطاق حتّى لست تلقى .·. فتى يسخو بردّ للسّلام

وزاد الأمر حتى ليس إلاّ .·. سخيّ بالأذى أو بالملام)).

و من القصائد القلائل التي جنح فيها الى التعميم كذلك[4] ، قول أبي بكر المخزومي (طويل) :

((ألا فاعلموا أنّي لكم غير صابر .·. على لومكم أخرى الليالي الغوابر

فعوجوا بني اللّذناء نحو هجائكم .·. الى لعنه تزري بمن في القابر

فأنتم سننتم كلّ محدث سبّة .·. ولم تتركوا فيها لحاقا لآخر

رأيتكم لا تتّقون مذمّة .·. ولا عندكم من همّة نحو شاكر

و أهون ما أهدى الزّمان اليكم .·. فلا عشتم للّوم - طلعه شاعر

فأين الأولى كانوا اذا جاء نائل .·. تلقّته منهم بالنّدى كفّ ناشر

سلام عليهم كلّما ارتحت نحوهم .·. فلا أمر من بعدهم للمآثر

أعيّركم جهدي بكلّ قبيحة .·. ومالكم من بقائه بالمعاير

ركنتم الى الأعذار في كلّ حاجة .·. فهل نفعت نبلى حصون المعاذر)).

وهذه الابيات من أشدّ الهجاء ، لقيامها على المفاضلة ، فأبو بكر المخزومي يفضّل "الأولى" الكرام على المهجوين اللئام ، الذين لم يكتف برميهم بالشّح ، وانما أثبت لهم كلّ

---

(1) هو أبوالوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيّوب الباجي ، نسبه الى مدينه باجه (BEJA) (تقع في البرتغال حاليا) . أديب و قاض و علم من أعلام المالكيه في الاندلس. من مؤلفاته : " المنتقى " في شرح الموطأ ، و " الوصول الى معرفه الأصول " ، و " التسديد الى معرفه التوحيد " . توفي بالمريه في سنه 474هـ/ 1081م . راجع ترجمته في : القلائد، ص: 215 ، و الذخيره 2/1 : 94 ، و الفريد 3 : 472 ، وبغيه الملتمس (ترجمه رقم :777)، ونفح الطيب 2 : 67-69 ، 71-77 ، 34-35 ، و غيرها .

(2) (3) نفح الطيب 2 : 85 .

(4) المغرب 1 : 229 .

عيب و منقصه .

و الدافع اليها - بلاريب - الحرمان . وكان أبوبكر المخزومي - كما نعلم - من المتكسبين بالهجاء .

وكان يهجو في بعض الأحيان بدافع سوء الظن . من ذلك أن عبد الملك بن سعيد أمير قلعه بني سعيد ، أرسل اليه غلاما يسأله عن موعد خروجه من قلعته ، ليهيّء له زادا و مايّه ، غير أن الغلام أساء التناول ، فقال له أبوبكر المخزومي : أرفق أكتب لك الجواب . ثم كتب [1] (كامل) :

((لا ترجونّ بني سعيد للنّدى .·. فالظلّ أفيد منهم للسّائل

فلقد مررت على منازلهم فما .·. أبصرت منها غير بعد منازل

قوم مصيبتهم بطلعه وافد .·. و سرورهم أبدا بخيبه راحل)) .

ان هذه المتطوعات و القصائد لا تنال من المجتمع كلّه ، وان أبدى ظاهر بعضها خلاف ذلك ، و انما تتصيّد على بعض الحكام و الولاه و الأثرياء من الوزراء و القاده وغيرهم . و أهم أسبابها احساس الشعراء بالحرمان و خيبه الأمل .

هجاء المشغولين بعيوب الآخرين

و من الظواهر الاجتماعيه السّيئه التي ذمّها يحي الغزال ، ظاهره انشغال بعض النّاس بعيوب الآخرين ، و اغفالهم ليعيوبهم و سقطاتهم ، وقد تكون أفضع و أخطر . يقول [2] (كامل) :

((الناس خلق واحد متشابه .·. لكنّما تتخالف الأعمال

و يقال حقّ في الرّجل وباطل .·. أيّ امرىء الاّ وفيه مقال ؟

لسنا نرى من ليس فيه غميزه .·. أيّ الرّجال القائل الفعّال ؟ [3]

و لكلّ انسان بما في نفسه .·. من عيبه عن غير أشغال

---

(1) المغرب 1 : 231 .

(2) حكمه الأوسي ، فصول في الأدب الاندلسي ، ص: 189-190 .

(3) الغميزه : الغميز : العيب .

يستثقل اللّمم الخفيف لغيره .·. وعليه من أمثال ذاك جبال

وينام عن دنياه نومه قانع .·. بنعيم دنياه وذاك خيال

ورأيت ألسنه الرّجال أفاعيًا .·. طورا تثور و تاره تغتال

فاذا سلمت من المقاله غيرما .·. تعني فأنت الأسعد المفضال)) .

يرى الغزال الشاعر الحصيف ، أنّ لكلّ انسان من العيب ما يشغله عن الالتفات الى عيوب الآخرين ، و أن لا " كمال " لآدمي على الأرض . غير أن هناك من الناس من يستثقل زلات غيره الصغيره ، و يشنّع عليه ، ويستحقر آثامه الكبيره التي تنوء بحملها الجبال و يتناساها . و لا منجاه لأحد - متّهما كان أم بريئا - من الألسنه . وأسعد الناس و أفضلهم من لم يرتكب أيه جريره ، وسلم من المقاله .

وهذه النظره ثمره تجارب كثيره ، و تأمل عميق في طباع الناس و أحوالهم . و قد أصاب الشاعر في تشبيه الألسنه بالأفاعي ، لأن لبعض " القاله " من الأثر ما للسّمّ الزعاف أو أكثر .

هجاء المدن

يتضمّن التراث الشعري الاندلسي مقطوعات كثيره في هجاء بعض المدن الأندلسيه . وهذا موضوع جديد في بابه .

و أشير في البدايه الى أن المغاربه و الأندلسيين كانوا كثيرا ما ينسبون النّبيه منهم في أي مجال كان الى القريه أو المدينه التي ولد بها ونشأ ، أو التي هاجر اليها واستقرّ بها ، مضافه الى كنيته و اسمه ، تمييزا له ، كما كان ينسب الجاهلي الى قبيلته . وبمعنى آخر أن المدينه في الأندلس حلّت محل القبيله ، أو أن رابطه الأرض (أو التراب) حلّت محل رابطه الدّم .

وربما يرجع ذلك الى اختلاط العناصر المختلفه للسكان بعضها ببعض ، والى سياسه بعض الحكّام الراميه الى التخفيف من غلواء العصبيّه القبليه . وقد أدّى هذان العاملان بمرور الزّمن الى ضعف رابطه الرّحل بقبيلته .

ويتضمن التراث الشعري الاندلسي كذلك أشعارا كثيره ، يعبّر فيها أصحابها عن تعلّقهم الشّديد ببعض المدن ، و حبّهم الكبير لها ، على الرّغم مما يلقون فيها من ضيم وما يعانون من عنت و مشاق ، يقول السّميسر (1) (مجزوء الكامل) :

((قالوا : أتسكن بلـــده . . . نفس العزيز بها تهـــون ؟

فأجبتهم بتـــــأوّه . . . كيف الخلاص بما يكـــون!

غرناطـه مثوى الحنيـــ . . . ـن ، يلذّ طامته الحنيـــن)) .

ويتجلى ارتباط الشعراء بالمدن أكثر في مراثيهم لها ، و بكائهم على أهلها وأعلامها و ماضيها ، عندما تتعرّض للتّخريب و الدّمار خلال الحروب الأهليه والفتن الدّاخليه ، أو للضياع و السقوط في أيدي النّصارى أثناء حروب الاسترداد . كقول بعضهم يبكي قرطبه اثر الفتنه البربريه (2) (سريع) :

((ابك على قرطبه الزّبـــن . . . فقد دهتها داهره العيـــن

أنا رها الدّهر بأسلافـــه . . . ثمّ تقاضى حملـه الدّيـــن

كانت على الغايه من حسنها . . . وعيشها المستعذب اللّيـــن

فانعكس الأمر فها ان تـــرى . . . بها سرورا ببن اثنيـــن

فاغد وودّعها وسر سالمـــا . . . ان كنت أزمعت على البيـــن)) .

ومثله قول السّميسر في الزّهراء (3) (سريع) :

((وقفت بالزّهراء مستعبـرا . . . معتبرا أندب أشتاتـــا

فقلت : يا زهرا ألا فارجعـي . . . قالت : وهل يرجع من ماتـا ؟

فلم أزل أبكي و أبكي بهـــا . . . هيهات يغني الدّمع هيهاتا

كأنّما آثار من قد مضـــى . . . نوادب يندبن أمـــواتـــا)) .

وهناك أشعار أخرى تنحو هذا المنحى لابن شهيد و ابن حزم و أبي البقاء الرندي وغيرهم .

---

(1) الذخيره 2/1 : 587 .
(2) البيان المغرب 3 : 110 .
(3) نفح الطيب 1 : 527 .

وهناك أشعار كثيره أيضا في هجاء بعضها لبعض . والمعني بذلك في الغالب سكانها . وما هجاؤ ها سوى تعبير عن سوء علاقه الشاعر ببعضهم ، وعدم تكيّفه معهم ، ولذلك اعتبرت هجاء المدن هجاء اجتماعيا . من ذلك هجاء السّميسر للمريّه (ALMERIA) وبلنسيه اذ خصّ الأولى بمقطوعتين :أشار في أولا هما الى أنها قليله الخيرات ،لا يجد السّاكن فيها ما يحبّ و يشتهي . يقول (1) (خفيف) :

((بئس دار المريّه اليوم دارا . . . ليس فيها لساكن ما يحبّ

بلده لا تمار الاّ بريح . . . ربّما قد تحبّ أو لا تحبّ)) .

ولا يكاد يوجد أثر للجانب الاجتماعي في هذا الهجاء ،لأن السميسر يشير الى تبعه المريّه الاقتصاديه للمغرب . ففي البيت الثاني اشاره الى أنّ طعام أهلها يستورد من بلاد المغرب عن طريق البحر (2) .

والتفت في ثانيهما الى جانب آخر من جوانبها ،وهو كثره أوساخها . وفيها يبرز البعد الاجتماعي في هجائها ،لأن نظافه المدينه مظهر حضاري منوط بسكانها ، وعليهم يقع اللّوم أو الذّمّ ،لاهمالهم مظهر مدينتهم الجمالي الذي تعدّ النظافه من أهمّ ركائزه . يقول (3) (مجتث) :

((قالوا : المريّه فيها . . . نظافه . قلت : ايه

كأنّها طست تبر . . . و يبصق الذّم فيه)) .

ويفهم من التشبيه أن الاقذار قد ذهبت بجانب كبير من جمالها ، كما يذهب الذّم الذي ينفثه المصدور من رونق الاناء الذهبي و بهائه .

وخصّ بلنسيه بمقطوعه واحده ،أشار فيها كذلك الى كثره أوساخها . يقول (4) (متقارب) :

((بلنسيه بلده جنّه . . . وفيها عيوب متى تختبر

فخارجها زهر كلّه . . . وداخلها برك من قذر)) .

---

(1) الذخيره 1/2 : 884 ،ونفح الطيب 3 : 390 .

(2) نفح الطيب 3 : 390 .

(3) ع.س، 1/2 : 885 ،و نفح الطيب 3 : 390 .

(4) أخبار و تراجم أندلسيه مستخرجه من معجم السفر للسلفي . تحقيق احسان عباس ط 1 ،بيروت : دار الثقافه ، 1963م) ،ص : 28 . (نشير اليه بـ " أخبار وتراجم أندلسيه ") .

ان في تركيز السّميسر على قلّة نظافه المربّه و بلنسيه تعويض بتخلّف سكّانيهما، لأن رخاءهم بالعيش في محيط مملوء بالأوساخ ، دليل على حملهم المطبق بأضرار الأقذار و خطارها على صحّتهم من جهه ، و أثرها السّلبي على جمال مدينتيهم من جهه أخرى .

وقد عمد السّميسر لابراز معانيه الى ايجاد مفارقه كبيره بين خارج المدينتين و داخلهما ، على شكل "ظرف و محتواه" . فأما الظرف فجميل للغايه ، و أما محتواه فقبيح للنهايه . فالمربه طفت من ذهب و أوساخ شوارعها و ساحاتها نفاثه مصدور، وخارج بلنسيه بساط من الأزهار و داخلها برك من الأقذار .

وارتبط هجاء المدن عند الشعراء الجوالين ، المتكسبين بالشعر ، كأبي بكر المخزومي و أبي عامر بن الأصيلي (1) و اليكّي و غيرهم باحساسهم العميق بالحرمان والاحباط. وفي هجائهم يبدو البعد الاجتماعي واضحا جليّا . فكان الواحد منهم اذا اصيب بخيبه أمل في مدينه ما ، انبرى لها و لأهلها بالذّم ، و دعا عليها و عليهم بالشّر والهلاك . يقول أبو بكر المخزومي في مرسيه و أهلها (2) (متقارب) :

((على أهل مرسيه لعنه .·. تعمّ الدّيارا و أربابها

فما غلّقت قطّ منذ فتّحت .·. على فاضل الصّبح أبوابها

كلاب تهرّ الى شاعر .·. وتكشف للشّر أنيابها))

و في دعاء الشاعر بحلول اللّعنه على مرسيه و أهلها دون استثناء ، و تشبيههم بالكلاب، دليل على غضبه الجامح بسبب خيبه مسعاه عندهم.

وضرب أبو عامر بن الأصيلي في الآفاق ، و طلب حظّ نفسه في باجه ، و شلب و شنتمريه (SANTAMARIA) و شلطيش (SALTIS) ، و أونبه ، و لبله (NIEBLA) ، ولكنه لم يظفر من تطوافه بغير التّعب و الاخفاق . عند اذ أنحى على تلك المدن و القرى

---

(1) أبو عامر محمد بن الاصيلي ، من أدباء القرن السادس الهجري الجوّالين . راجع : الذخيره 3/2 : 857 ، و الخريده 2 : 308 ، و المغرب 2 : 444 .

(2) زاد المسافر ، ص 118 .

بالمحاء . يقول[1] (وافر) :

((الى أين الفرار و لا فـــرار .·. و من لي بالقرار و لا قـــرار

أرى الأوغاد يعتصرون د و را .·. و ما لي في بلاد اللّـه د ا ر

اذا ركبوا المذاكي و المطايا .·. فمركوبي على شرفي حمـــار

أحول فلا أرى الا رعاعـــا .·. كبارهم اذا اختبروا صغـــار

أباحه لا وقاك اللّه شـــرا .·. فأهلك أهل مفسطه شبـــوار

أشلب لا جزاك اللّه خيـــرا .·. فلا خير لديك و لا خيـــار

أشنتمريه قبّحت د ا ر ا .·. كؤوس المخزيات بمـــا تدار

أشلطيش ألا غرق وشيـــك .·. تموج على ثراك به البحـــار

أ أونبه تعدّتك الغيلبولدي .·. و لا هطلت بساحتك القطـــار

أ لبله كنت صالحه ولكـــن .·. أتى ابن حليفه و أتى الشنّار

بلاد عرّيت من كلّ خيـــر .·. فطبس أهلها مقت و عـــار

غدا ت فزرتها فرأيت قومـــا .·. منازلهم و ان عمرت قفـــار

تردّ علىّ أشعاري و يجفـــى .·. رسولي ، و النباهه لي شعـــار

شتوت بها على كره فغطّـــى .·. على حدّي و معرفتي الغبـــار)) .

و هجا أبو عبد الله بن ياسين[2] أهل بلده شاطبه (XATIVA) بالبخل و الظلـــم قال[3] (مخلّع البسيط) :

((شاطبه تربه ضنينـــه .·. ليست لمن أمّها معينـــه

تهتضم الطّيب اهتضامـــا .·. و تأنف الدّهر أن تعينـــه

و الخبث المحض تصطفيه .·. ضدا لما جاء في المدينـــه)) . (4)

---

(1) الذخيره 3/2 : 861 .

(2) لم أعثر على ترجمته فيما وقع بين يدي من مصادر .

(3) زاد المسافر ، ص : 137 .

(4) يقتبس الشاعر من قول الرسول (صلعم) : ((المدينه تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد)) . راجع الحديث في : صحيح البخاري 1 / 3 : 26 .

وقال ابن رافعه[1] يمدح شريش (JEREZ)، وكان أهلها يتّصفون بالنّذاله المفرطه[2] (محتث):

((شريش ما هي إلّا ... تصحيف شرّ يبين
فارحل فبيتك عنها ... ان كنت ممّن تدين
فقلّما ساد فيها ... حرّ ولا من يعين)).[3]

ومدحها أبو الفتح بن فاخر التونسي[4] رنده (RONDA)، الا أنه التفت الى عيوب أخرى لا تتصل بالمجتمع، وانما بالطبيعه، وبتعبير آخر العيوب المتعلقه بالموقع الجغرافي والتضاريس والمناخ العام، وتأثيرها على النّفس. يقول[5] (محزوء الكامل):

((قبحا لرنده مثلها ... قبحت مطالعه الذّنوب
بلد عليه وحشه ... ما ان يفارقه القطوب
ما حلّها أحد فينـ ... ـي بعد بين أن يؤوب
لم أتها عند الضّحى ... الّا وخيّل لي الغروب
أفق أغمّ مساحه ... تملا القلوب من الكروب
لم يجر لي طرف بها ... الّا وعاجله النّكوب)).

فرنده - في نظر الشاعر - بلده موحشه، دائمه العبوس والاكفهرار - فلا بهجه في الارض ولا صفاء في السّماء. وهذا الكلوح الذي يميّز جوها العام يحمل الانسان يشعر بالوحشه والضيق والكدر.

هجاء أبي بكر اليكّي لمدينه فاس

مما يستوقف نظر الباحث في هجاء المدن، هجاء أبي بكر اليكّي الاندلسي لمدينه فاس المغربيه وأهلها، أشرارا وأخيارا، دون تمييز بينهم ولا استثناء.

---

(1) لم أعثر على ترجمته في ما وقع بين يدّي من مصادر.
(2) (3) المغرب 1 : 306.
(4) لم أعثر على ترجمته في ما وقع بين يدّي من مصادر.
(5) م.ن، 1 : 334، ونفح الطيب 4 : 132.

هاجر أبوبكر اليكي الى المغرب ، واختار مدينة فاس منزلا وبها استقرّ. ويبدو من بعض شعره أن انتقاله الى عدوه المغرب كان من أجل البحث عن الرزق . ولا يستبعد أن يكون قد توسل في ذلك بموهبته الأدبية . الّا أنه لم يحقق ما كان يطمح اليه ، فسخط على أهل فاس، وهجاهم وأفحش عليهم . من ذلك قوله (1) (بسيط) :

((يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم . . فأصبحت فيكم الآراء متّفقه

كلّ امرئ منكم قد حاز منقصه . . بما أحاط كدوره العين بالحدقه

وربما اجتمعت في بعض سادتكم . . نقائص أصبحت في الناس مفترقه

كالقرن والقرد المشهور والكذب الـ . . معروف والخلّه الشّنعاء والسّرقه

فلا تهابنّ فلسيّا مررت به . . وان تقل خيرا حوّل الورقه (2)

والعنه شيخا وكهلا واجنه حدثا . . و . . . فلا ولو ألفيته علقه

فلا سقى الله فاسا صوب غاديه . . نعم ، ولا اخضرّ في ارجائها ورقه)) .

تتألف القصيدة من هجاء ونصيحة ودعاء . فأمّا الهجاء ففي الأبيات الأربعة الأولى، وهو في شكل خطاب مباشر، توجّه به الشاعر الى الفاسيين ، مدّعيا أن في كلّ امرئ منهم مذمّة ما ، متمكّنة من نفسه ، ولا يمكنه الافلات منها أبدا ، وأن بعض سادتهم أكثر لؤما ودناءة من دهمائهم لجمعهم نقائص قبيحة و متنوعة كالقرن و القرد و الكذب و الخلّة الشّنعاء و السّرقة .

أمّا النصيحة ففي البيتين الخامس والسّادس، وفيها يدعو أبوبكر اليكي السّامع والقارئ الى الاساءة الى الفاسيين ، واذلالهم ، مهما اختلفت مراحل أعمارهم ، لأنهم غير جديرين بالمخالقة الحسنة ، لانحطاط أخلاقهم و فسادها .

وأما الدعاء فقصره على البيت الأخير، وفيه يدعو اليكي على فاس بانحباس المطر ، حتى يعمّ القحط والجفاف أرجاءها ، فيجوع أهلها ، ويعانون شظف العيش .

والأقسام الثلاثة متكاملة . ففي القسم الأول عرى الشاعر الفاسيين ، سادة وعواما ، وكشف عيوبهم بعد أن عاشرهم وخبر أخلاقهم وطباعهم . وفي الثاني ، بيّن الأسلوب الأمثل الذي يجب أن يعامل به الفاسيون . وفي الأخير ، دعا على أرضهم

---

(1) زاد المسافر، ص: 121 .

(2) ورد البيت في المغرب 2 : 270) هكذا :

((ولا تهب كلّ فاسيّ مررت به . . وان تقل فيه خيرا حوّل الدّرقه)) .

بانحباس الغيث ،الذي هو أساس الحياه.

وبلغ ضيق أبي بكر البكّي بأهل فاس درجه كبيره ،أصبح يرى معها أن انزياح الهموم و انكشافها مرتبط بالخروج من فاس. و أوضح أن أرض فاس من أطيب الأراضي وأجلّها ،وأن أهلها من أخسّ الناس و أحقرهم. يقول(1) (وافر) :

((فراق الهمّ عند خروج فاس .·. لكلّ ملمّه تخشى و باس

فأمّا أرضها فأجلّ أ ر ض .·. و أمّا أهلها فأخسّ ناس

بلاد لم تكن وطنا لحرّ .·. ولا اشتملت على رحل مواسي)).

وكان الافحاش ،السّمه الفارقه التي ميّزت أهاجيه فيهم. من ذلك قوله(2) (بسيط) :

((اطعن بـ ... من تلقى من الناس .·. من أرض مصر الى أقصى قرى فاس

قوم يمصّون ما في الأرض من نطف .·. مسّ الخليع زمان الورد للكاس)).

وقوله(3) (محتث) :

((قصدت جلّه فاس .·. أسترزق اللّه فيهم

فما تيسّر منهم .·. دفعته لبنيهم)).

ولما تمادى في مجائهم ،ضاقوا به ذرعا ،وتآمروا عليه. و أعانهم واليهم مظفّر الخصيّ و القائد عبد اللّه بن خيار الحيّاني. وأحضروا رجلا اعّى عليه بدين ، وشهد عليه به رجلان من أعيان المدينه : الزّناتي الفقيه و أبو الحسين. وسيق البكّي بعنف الى السجن. و من السجن أرسل الى مظفّر الخصيّ ورقه كتب فيها(4) (كامل) :

((ارشوا الزّناتي الفقيه ببيضه .·. يشهد بأنّ مظفّرا ذو بيضتين

واهدوا اليه دجاجه يحلف لكم .·. ما ... عبد الله عرس أبي الحسين)

و يبيّن البيتان جرأه البكّي في التمرّد لأعيان فاس، حتى وهو في أحرج المواقف ، وقدرته الفائقه على النّيل في بيتين من الشعر من كلّ الذين تورّطوا في اثبات الدّين

---

(1) (2) ياقوت الحموي ،معجم البلدان (د . ط) ،بيروت : دار صادر و دار بيروت، 1376هـ 1957م) ، 4 : 231.

(3) المغرب 2 : 269.

(4) نفح الطيب 3 : 324.

عليه بالملا .

و ما يمكن استخلاصه مما سبق ، أن أبا بكر اليكي انتقل الى بلاد المغرب ، يحدوه الأمل في تحقيق أحلامه و أمانيه . غير أنه لم يستطع التكيّف مع المغاربة ، و بالأخص الفاسيين منهم . حينذاك انبرى لهم بالهجاء ، فأكثر و أفحش ، و ما هجاؤه سوى أثر من آثار اصطدام رغبته الداخلية بالواقع الاجتماعي الخارجي .

هجاء النّساء

هجا بعض شعراء الأندلس النّساء . منهم من نال منهنّ عرضا في بعض شعره ، و منهم من هجاهنّ قاصدا متعمّدا . و من الفئة الأولى يحي الغزال ، الذي نظم شعرا بيّن فيه افتتان النّساء الشديد بالشّباب ، و نفورهنّ من الشّيخ ، ولو كان ذا مال (1) ، وعرّض بهن في ثناياه ، مشبّها اياهن بالأفراس و الخانات و الثمار . يقول (2) (كامل) :

((يا راحيا ودّ النّسوان ضلّه . . فؤاده كلفا بهنّ موكّل

لا تكلّفنّ بوصلهنّ فانّما الـ . . كلف المحبّ لهنّ من لا يعقل

انّ النّساء لكالسّروج حقيقة . . فالسّرج سرجك ريثما لا تنزل

فاذا نزلت فانّ غيرك نازل . . ذاك المكان وفاعل ما تفعل

أو منزل المحتاز أصبح غاديا . . عنه ، وينزل بعده من ينزل

أو كالثّمار مباحة أغصانها . . تدنو لأوّل من يمرّ فتؤكل

أعذ الشّبيبة لا أبالك حقّها . . منها فانّ نعيمها متحوّل

واذا سلبت ثيابها لم تتفع . . عند النّساء بكلّ ما يستبذل)) . (3)

انّ حبّ المرأة للشباب ، اذن ، عجيب ، و لا بديل له عندها . و لذلك على الرّجل أن يغتنم شبابه في اللّهو بالنساء ، و لا ينتظر منهنّ وفاء ، لأنهنّ لا يعرفن وفاء و لا

---

(1) عبّر يحي الغزال عن هذه الفكرة صراحة في مقاومته التي مطلعها (وافر) :
((وخيّرها أبوها بين شيخ . . كثير المال ، أو حدث فقير)) .
(بغية الملتمس ترجمة رقم 1467)

(2) المطرب ، ص: 146 ، و نفح الطيب 2 : 250 .

(3) في نفح الطيب : تستبدل .

اخلاص. وما هنّ - في الحقيقه - سوى أفراس تركب ، و خانات ينزل بها ، و ثمار ناضحه تؤكل .

و هذا الموضوع قديم ، قال فيه قبل الغزال شعراء كثيرون جاهليّون و اسلاميّون .

و من الفئه الثانيه ابن الحاجّ البلّفيقي (1) ، الذي قصد الى هجاء النّساء ، ونظم شعرا في ذمهنّ . من ذلك قوله (2) (خفيف) :

((ما رأيت النّساء يصلحن الاّ .. للّذي يصلح الكنيف لأجله

فعلى هذه الشريطه فاصحبه .. هنّ لا تعد با مرء عن محلّه)) .

فالنّساء و الكنيف - في نظاره - سيّان . و في الصوره حطّ من قيمه المرأه ، و تحقير كبير لها ، ينمّان عن عداء شديد اتّجاه المرأه .

وقوله (3) (خفيف) :

((قد هجوت النّساء دهرا فلم أبلغ أداني صفاتهنّ الذّميمه

ما عسى أن يقال في هجو من قد خصّه المصطفى بأقبح شيمه

أويبقى لناقص العقل و الدّين اذا عدّت المثالب قيمه)) .

فصفات النّساء القبيحه - في رأيه - كثيره ، تشدّ عن الحصر . و ما عساه أن يذكر منها بعد أن وصفهم رسول الله (صلعم) بأقبح الصفات . و هل تبقى للمثالب الأخرى قيمه اذا عرفنا أنّهنّ " ناقصات عقلا و دينا" (4) .

هجاء المجتمع و البشريه عامه

قد يعامل الشاعر بفظاظه مرّه أو مرات ، و قد يقع ضحيه خدعه ، و ربّما يلاحظ

---

(1) أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم ابن الحاج البلّفيقي . قاض و مؤلف وشاعر. توفي بالمريّه في سنه 773هـ/ 1371م . راجع: الكتيبه الكامنه ، ص: 127 ، و الاحاطه 2 : 143 ، و المرقبه العليا ، ص: 164 .

(2)(3) لسان الدين ابن الخطيب ، الكتيبه الكامنه في من لقيناه بالاندلس من شعراء المائه الثامنه . تحقيق احسان عبّاس (د .ط، بيروت : دار الثقافه ، 1983م) ، ص: 133 . (نشير اليه بـ " الكتيبه الكامنه") .

(4) ذكر ابن قتيبه الدّينوري في (عيون الأخبار 4 : 113) ، في باب (مساوئ النّساء) : ((عن وهب بن منبّه قال : عاقب الله المرأه بعشر خصال : شدّه النّفاس ، وبالحيض ، وبالنجاسه في بطنها و فرجها ، و جعل ميراث امرأتين ميراث رجل واحد ، وشهاده امرأتين كشهاده رجل واحد ، وجعلها ناقصه العقل و الدين لا تصلي أيام حيضها ، و لا يسلّم على النساء وليس عليهنّ جمعه و لا جماعه ، و لا يكون منهنّ نبيّ ، و لا تسافر الاّ بولي)) .

غلبه الشّر في المجتمع فبنقم على النّاس ، و يسيء الظن بهم جميعا .

و من يطّلع على الشعر الأندلسي ، يجد شعرا كثيرا ، نحا فيه أصحابه هذا المنحى ، و صوروا الجانب السّلبي البشع من الحياة ، وأساءوا الظن بالخلق عامة ، و زهدوا في خيرهم .

يرى يحيي الغزال الناس في أيّامه ثعالب و ذئابا و قططا تتربّص بفريستها ، وأن العلاقة بينهم تقوم على قاعدة واحدة : مفترس و ضحيه ، آكل و مأكول . يقول[1] (خفيف) :

((. . . لا ، ومن أعمل المطايا اليه . . كلّ من يرتجي اليه نصيبا

ما أرى همنا من النّاس إلاّ . . ثعلبا يطلب الدّجاج وذيبا

أو شبيها بالقطّ ألقى بعينيه ، الى فار يريد الوثوبا)) .

و ينفي ابن عبد ربّه وجود اخوان الصدق ، ويرى أن أخاه الحميم الوحيد هو نقوده . يقول[2] (بسيط) :

((دعني أصن حرّ وجهي عن اذالته . . و ان تغرّبت عن أهلي وعن ولدي

قالوا : نأيت عن الاخوان . قلت لهم . . مالي أخ غير ما تحوي عليه يدي)) .

أمّا السّميسر فينصح بضروره الترفّع عن الدّنايا و المحقّرات ، و التحلّي بما يزين النّفس من الفضائل ، و ابعاده الظنّ بما يفعله ذلك - بالناس و اعتزالهم . يقول[3] (وافر) :

((تحفّظ من ثيابك ثم صنها . . و الاّ سوف تلبسها حدادا

و ظنّ بسائر الاجناس خيرا . . و أمّا جنس آدم فالبعادا)) .

و يغرق السّميسر في هذه النّاحيه القاتمه ، حين يرى أن ليس لبني آدم من أبيهم آدم الاّ الصّور ، أمّا أعمالهم فانها لا تمتّ له بأيّة صله ، لقبحها و بشاعتها . لذلك أصبح كالمحاسر شديد الحذر و الاحتراس منهم . وكلّما رأى انسانا تعوّذ بالله منه . يقول[4] (متقارب) :

---

(1) نفح الطيب 2 : 257 .
(2) العقد الفريد 3 : 31 .
(3) المغرب 2 : 100 .
(4) الذخيره 1/2 : 895 .

((رأيت بني آدم ليس في . . جموعهم منه الا الصّور

فلمّا رأيت جميع الأنام . . كذلك ، صرت كثير حذر

فصمّا سدا منهم واحد . . أقل : " قل أعوذ بربّ البشر")) .

ونجد هذه الرؤية المتشائمة ، والموقف " الهروبي " الضعيف عند أبي بكر بن عليه[1] كذلك . يرى أن الانسان بحر عظيم لا شاطئ له ، وأن الذئب الحائم آمن منه و أولى بالاستئناس . و يدعو الى الاحتراس من الناس جميعا ، لأنهم مصدر كلّ شرّ و سبب كلّ بلاء . يقول[2] (رمل) :

((كن بذئب صائد مستأنسا . . و اذا أبصرت انسانا ففرّ

انّما الانسان بحر ماله . . ساحل فاحذره : ايّاك الغررا

واجعل الناس كشخص واحد . . ثم كن من ذلك الشّخص حذر)) .

ويذكرنا البيت الأول بقول الأحيمر السّعدي[3] (ت 170هـ/787م) (طويل) :

((عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى . . وصوّت انسان فكدت أطير)) .

واختار ابن بقّي في اتباع الناس في عصره ، و ارتياب من أقوالهم التي تتمّ عن جهل و تخلّف كبير . يقول[4] (طويل) :

((ما أكثر الأقوام الأثمالب . . تروغ و لا يحلى لديها بالمائل

يردّون ذمّي جائرا في اتباعهم . . كأنهم من مشكلات المسائل

و أصغي الى أقوالهم فتريبني . . صدور لهم أقوى من المنازل)) .

ويذهب أبو محمد بن عليه[5] الى أن الزمان و أهله داء خبيث ، صعب العلاج . يقول[6] (مجزوء الكامل) :

---

(1) أبوبكر غالب بن عبد الرحمن بن عطية . فقيه ومحدّث وشاعر . توفي في سنة 518هـ/ 1124م راجع : القلائد ، ص: 237 ، والخريدة 3 : 488 ، وبغية الملتمس ، ص: 427 (ترجمة رقم 1277) ، ونفح الطيب 2 : 523 ، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ 5 : 121 .

(2) القلائد ، ص: 237 .

(3) راجع : الشعر والشعراء 2 : 787 .

(4) الذخيرة 2/2 : 635 .

(5) أبومحمد عبد الحق بن عطية . من أدباء القرن السادس الهجري . من مؤلفاته : الوجيز في التفسير . توفي بلورقة في سنة 546هـ/ 1152م . راجع : القلائد ، ص: 239 ، ونفح الطيب 2 : 526 .

(6) القلائد ، ص: 246 ، والخريدة 3 : 490 .

((داء الزّمان و أهلـــه .·. داء يعـزّلـه العـــلاج

ألقت في ظلمائـــه .·. ودّا كما سطـع السّـراج

أصحابه أعيا ثقـــا .·. في من قناتهم اعوجـاج

أخلاقهم ماء صفـــا .·. مرأى ،ومطعمهم أجـاج

كالدّر مالم تختبـــر .·. فاذا اختبرت فهم زجاج)) .

هذه حقيقه النّاس و أخلاقهم ،في نظر الشاعر في ذلك العصر، فهم الدّر نفاسه و صلابه مالم تختبرهم ،فاذا اختبرتهم عند الشدائد بلوتهم في الملمات ،ألفيتهم كالزّجاج هشاشه. وأمّا أخلاقهم ففاضله وحميده كالماء الصّافي ما لم تلحم ،فاذا بلوتهم وجدتها قبيحه ضحلّه كالماء الأجاج .

ان أكثر الأشعار التي نال فيها أصحابها من المجتمع أو الجنس البشري عامه قد ركّزت على انحطاط الأخلاق ،وما نتج عنه من ضياع للقيم الانسانيه الفاضلـه. و صوّرت الانسان في هيئه مخيفه مرعبه . وأبرزه بعض الشعراء الأريين أو الضّعاف المتشائمين ،في صوره أخطر من بعض الحيوانات المفترسه و العناصر الطبيعيه الغامضه المرعبه ،حتى غدا مصدر كلّ شرّ وبلاء . ودعوا الى ضروره اعتزاله أو مخالطته -اذا اقتضى الأمر- بحذر شديد .

خاتمة الفصل

عالجت في هذا الفصل " الهجاء الاجتماعي " . و يمكن ردّ المجالات المختلفة التي ارتادها الشعراء في هذا الاتّجاه من الهجاء الى محورين كبيرين : فئات اجتماعية محدودة ضيقة أو عريضة واسعة ، و ظواهر اجتماعية سيئة .

- هجاء الفئات الاجتماعية :

دار على هذا المحور هجاء الفقهاء و الفلاسفة و الشعراء و المدن و النساء و المجتمع و البشرية عامة .

وقد حسّد هذا الهجاء في الغالب صراع فئات اجتماعية متنافرة ، متباينة المواقف و الاهتمامات . فهجاء الفقهاء يعبّر في حقيقة الأمر عن مناوأة الشعراء لعلماء الدين بسبب علوّ منزلتهم و تأثيرهم البعيد في المجتمع ، و بخاصة بعد قدوم المرابطين ، لذلك أخذ الشعراء ينعون عليهم رياءهم و تستّرهم بالدين لاشباع نهمهم الى المال و المكاسب الدّنيوية . وكان الهجاء أداتهم التي دافعوا بها عن حظوتهم الضائعة و امتيازاتهم المفقودة .

ولمّا نهضت الفلسفة من كبوتها في القرن السادس الهجري ، و انتعشت الدراسات الفلسفية ، انبرى بعض الشعراء للفلاسفة بالهجاء بوازع من عواطفهم الدينية ، ناعين عليهم اشتغالهم بـ" السّفاهة " ، رامين اياهم بالزندقة و الالحاد .

و كان التّنافس و الحسد وراء هجاء السّميسر لشعراء عصره .

وكانت الرّواسب الثقافية ، و بالأخص ما اتّصل منها باحتقار المرأة ، وعدم الاطمئنان الى جانبها ، لما عرفت به من كيد و دهاء علّة لهجاء النساء في الاندلس

وكان هجاء المدن و المجتمع و البشرية عامة من أهمّ المجالات التي ارتادها الشعراء . فأمّا هجاء المدن فانصبّ في معظمه على بعض الأعيان من سكانها ، وأهمّ أسبابه احساس الشعراء بالحرمان و الاحباط ، غير أنهم كانوا كثيرا ما

يعمدون الى التعميم ، و ينقمون من سكان المدينه كلّهم .

و من أهمّ ما يستوقف النظر في هذا المجال هجاء اليكّي لفاس و أهلها ، لكون الشاعر أندلسيا و المدينه منربيه من جمله ، و لكثره الهجاء و فحشه من جمه أخرى . و الرّاجح أنّ سببه احساس اليكّي بالفشل و خيبه الأمل ، لعدم توفيقه في تحقيق أمانيه .

و أمّا هجاء المجتمع و البشريه عامه ، فقد جنح فيه الشعراء الى التعميم ، و تجريد الانسان من كل الفضائل ، و ابرازه في أقبح الصّور . و الرّاجح أنّ تلك الرؤى المتشائمه وليده موقف " هروبي " ضعيف ، أو ثمره تجارب مريره كثيره .

- هجاء الظواهر الاجتماعيه :

وقد دار على هذا المحور : هجاء البخلاء و المشتغلين بعيوب الاخرين .

و الرّجح أنّ المعني بالهجاء في " هجاء البخلاء " بعض الاعيان من أمراء و أثرياء ، غير أنّ الشاعر كان يتجنّب التّعيين خوفا من انتقام الممجوبين ، لما في التعيين من تشهير و تشنيع .

أمّا هجاء " المشغولين بعيوب الاخرين " فكان ثمره تجارب كثيره عاشها يحيى الغزال في طبقات اجتماعيه مختلفه ، ميّأتها له وظائفه الرّسميه المختلفه و عمره الطويل .

- ظواهره الفنيه العامه :

اتّسم الهجاء الاجتماعي بالخصائص الشكليه و الأسلوبيه التّاليه :

أ - القصر : بحيث كثرت فيه المقطوعات و قلّت القصائد .

ب - بساطه التعبير : اذ مال أغلب الشعراء الى استعمال الألفاظ السهله الواضحه . ولعلّ في البحث في تكوين الشعراء و الغرض من هجائهم و الوضع اللغوي السائد ما يفسّر ذلك .

ج - التنكّب عن الافحاش : تجنّب أكثر الشعراء - باستثناء اليكّي - بذيء اللفظ

وفاحش القول . وكانت " العفّه " السّمه العامه التي ميّزت أغلب نصوص هـذا الاتجاه من الهجاء .

د - الاستعانه بالتراث : عمد أغلب الشعراء لابراز معانيهم و توضيحها أو لتثبيتها في النفوس الى الاستعانه بالتراث الثقافي و ذلك بتلقيح أشعارهم و تدعيمها بالاقتباس من القرآن الكريم أو بالحديث الشريف أو بذكر بعض الأعلام .

ولكن مل وقف الشعراء عند المجتمع بنقد بعض فئاته وذمّ ظواهره السّلبيه أو تعدوه الى مجالات أخرى أهمّ من ذلك و أعمق و أرحب ؟ .

هذا ما سنتناوله في فصل " الهجاء السياسي " .

الفصل الثالث

الاتجاه السياسي

أقصد بالهجاء السياسي الشعر الذي يصدر فيه صاحبه عن عصبية للوطن أو الدين أو الجنس أو الطائفة ، ويذمّ فيه حاكما من الحكام ، أو أهل دين من الأديان ، أو جنسا من الأجناس، أوطائفة من الطوائف .

واذا كان الشاعر في الهجاء الشخصي يعبّر عن نفسه ، متأثرا بعواطفه وأهوائه ومصالحه الخاصة المحدودة ، فانه في أكثر الهجاء السياسي ((يعبّر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس بشخصيته الاّ في حدود هذه المجموعة التي يرتبط مصيره بها كل الارتباط . . . فشخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة ،لاتكاد تحس لها اثرا)) (1).

ومن الآراء التي لايطمئن اليها الباحث ، ماذهب اليه بطرس البستاني (2) ،وتابعه عليه جودت الركابي ، من أنه

> لم تقم في الغرب سوق رائجة للهجاء السياسي يناضل بها الشعراء عن أحزابهم ، فعل شعراء المشرق ،الاّ ماكان بين المضرية واليمنية في عهد الأمراء . غير أن المؤرخين لم يحفظوا لنا شيئا منه يستحقّ الذكر ، الاّ ماكان من هجوهم للفرنجة في ذكر حروبهم معهم ، أو هجوهم للبربر بعد أن اعتدّ هؤلاء بنفوسهم وأرادوا مفاخرة العرب ومكاثرتهم .فمن ذلك قول خلف بن فرج السميسر وكان في زمن ملوك الطوائف بسيط :
>
> رأيت آدم في نومي ، فقلت له : ."أبا البريّة ان الناس قد حكموا :
> أن البرابر نسل منك "، قال : "اذا . حواء طالقة ان صحّ ما زعموا".

---

(1) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، ص :

(2) راجع : في الأدب الأندلسي ، ص : 115-116.

ولم يكن للشعوبية شأن في الأندلس فينبغ منهم شعراء يهاجون العرب كما في المشرق .(1)

ربما كان هذا الرأي مقنعا مقبولا ابّان تأليف الكتاب ونشره ، أو بعد ذلك بأعوام ، أما اليوم فهو مردود ، لأسباب موضوعية كثيرة ، منها :

- أن التمثل ببيتين لشاعر واحد غير كاف ، في نظري ، لاجلاء حقيقة الهجاء السياسي الأندلسي ، واصدار حكم عام عليه .

- اغفال المؤلف لاتجاهات أخرى ، كهجاء الحكام ، وتهاجي العرب والمولدين من العجم ، وهجاء اليهود .

- مرور أزيد من نصف قرن على تأليف الكتاب .(2)

- أن اهتمام الباحثين في العقود الأخيرة بالتراث الثقافي الأندلسي ، عن طريق التحقيق والتأليف والترجمة ، أثمر مؤلفات كثيرة متنوعة ، تكشف عن حقائق تاريخية وأدبية جديدة قد يكون المؤلف لم يطّلع عليها أثناء تأليف كتابه .(3)

لقد كان الهجاء السياسي رائجا في الأندلس ، وسلك اتجاهات عديدة ، أفرزتها طبيعة الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية التي خضع لها أهل الأندلس . ولعل أبرز اتجاهاته هجاء الحكام وتهاجي العرب والمولدين من العجم ، وهجاء البربر ، وهجاء(4)

---

(1) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، ص : 58 .

(2) اعتمد جودت الركابي طبعة سنة 1937م .

(3) لم يذكر المؤلف المصادر والمراجع التي اعتمدها .

(4) فوزي سعد عيسى ، الهجاء في الأدب الأندلسي (د.ط، القاهرة دار المعارف ،د.ت) ، ص : 37_ 38 .

النصارى ، وهجاء المرابطين ، وهجاء اليهود .

- هجاء الحكّام .

خضعت بلاد الأندلس منذ فتحها طارق بن زياد سنة 92هـ/711م الى أن استولى فرناند الثاني (ferdinand II) وايزابيل الأولى (isabelle I) على غرناطة سنة 897هـ / 1492م ، لأشكال مختلفة من الحكم . بدأت ولاية تابعة في الأغلب للدولة الأموية في المشرق ممثلة في الخليفة بدمشق ، أو في واليه على افريقية والمغرب ثم فر اليها عبد الرحمن الداخل في سنة 138هـ / 755م ، وأسّس الدولة الأموية الثانية ، التي توارثها عقبه حقبة تربو على القرنين والنصف . ثم ظهر بعدها ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي) وكان بأسهم بينهم شديدا ، حتى استنفدت أطماعهم وعداواتهم قواهم ، فتجاسر العدوّ عليهم ، وطمع فيهم . فلم يجدوا مناصا من الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، أمير المرابطين ، الذي لبى نداءهم ، وهبّ لنجدتهم ، ولكنه مالبث أن خلعهم ، وضم الأندلس الى سلطانه وتلاه الموحدون (542هـ / 1147م) فدفعوا خطر العدوّ وغائلته عن أهل الأندلس حينا من الزمن . ثم انحسر الوجود العربي الاسلامي أمام شدة اندفاع حركة الاسترداد المسيحي (la reconquista) وأصبح ممثلا في مملكة بني نصر (الأحمر) بغرناطة وضواحيها وبعد صمود طويل ، اكتسح المسيحيون قلاع المسلمين ، واستولوا على غرناطة ، وضاعت الأندلس (بسيط) :

" وصار ما كان من ملك ومن ملك . . كما حكى عن خيال الطيف وسنان "(1) .

---

(1) البيت من نونية أبي البقاء الرندي . راجع : نفح الطيب 4 : 486 .

لم يخل أيّ عصر من هذه العصور من الهجاء السياسي . وقد تعدّدت اتّجاهاته وتنوّعت أشكاله وأساليبه . وسأبدأ بالهجاء الذي استهدف فيه أصحابه السلطة ، ممثلة في الحكام ، بمختلف ألقابهم .

من بواكير هذا الاتجاه هجاء محمد بن يحي القلفاط للأمير عبد الله بن محمد المرواني (275 - 300هـ / 888 - 912م) ، غير أن المصادر لم تحفظ لنا سوى بيت واحد منه ، وهو قوله (سريع) : (1)

((ما يرتجي العاقل في مدّة . . . الرّجل فيها موضع الرأس؟))

والراجح أن المقصود بـ " الرّجل " الأمير عبد الله ، فالهيكل الاجتماعي السياسي كجسد الانسان ، واذا كانت طبيعة تكوين الانسان تحتّم أن تكون الرجلان في أسفل الجسد والرأس في أعلاه فان الهيكل الاجتماعي يفرض أن يكون الأمير عبد الله في قاعدته لا في قمته ، لأنه لكل فرد من أفراده صفات وخصائص تؤهله لتبوّء منصب معيّن ، أو ليكون ضمن طبقة اجتماعيّة معيّنة ، لايتعدّاها الى غيرها ، والاّ اضطربت الأمور . ولمّا اختلّت المقاييس ، وأصبح عبد الله أميرا ، فقد عمّت الفوضى ، وفسدت الأحوال ، وحدث للأمة مايحدث للانسان عندما ينتصب على رأسه ، بدلا من رجليه .

ويحتمل أن يكون البيت تصويرا لاضطراب حال الأندلس على عهد الأمير عبد الله ، بسبب عجزه وقلّة حزمه ، وانعكاس الاضطراب على حياة الناس ، حتى غدت أسافل الأمور أعاليها .

والحقّ أن عبد الله بن محمد اعتلى كرسيّ الامارة في وقت تأجّجت فيه نار الفتن ، وثار فيه المنتزون في أقاليم كثيرة

---

(1) المغرب 1 : 111 .

من الأندلس ، وانقطع الخراج ، وتطاول الأعداء ، وقد أجاد ابن عذاري المراكشي تصوير الظروف العامة التي بويع فيها عبد الله بن محمد بالامارة . قال :

وأفضت الخلافة اليه ، وقد تحيّفها النكث ، ومزقها الشقاق ، وحلّ عراها النفاق ، والفتنة مستولية ، والدجنة متكاثفة ، والقلوب مختلفة ، وعصا الجماعة منصدعة ، والباطل قد أعلن ، والشرّ قد اشتهر ، وقد تمالأ على أهل الايمان حزب الشيطان ، وصار الناس من ذلك في ظلماء ليل داج ، لا اشراق لصباحه ولا أفول لنجومه . وتألب على أهل الاسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جرّدوا سيوفهم على أهل الاسلام ، فصار أهل الاسلام بين قتيل ومحروب ومحصور ، يعيش مجهودا ، ويموت عزلا ، قد انقطع الحرث وكاد ينقطع النسل .(1)

وقد استمرت هذه الحال حتى آخر أيامه . ألا يكون ما وصفه ابن عذاري نثرا هو ما عبّر عنه الفلفاط شعرا ؟ .

حقا ، لقد ورث الأمير عبد الله تركة ثقيلة ، غير أنها لا تبرئه من مسئولية ما آلت اليه الأوضاع على عهده ، لأنه حكم مدة طويلة ، كانت كافية لتطويق الفتن واخمادها ، غير أن شيئا من ذلك لم يحدث .

وقد عاب عليه حفيده عبد الرحمن الناصر لدين الله (300-350هـ / 912-961م) نزوله للعامة ، وانشغاله بصغار الأمور عن عظائمها وانتقده بشدة ، وذلك في قوله لوزرائه :

أعلمتم أن الأمير عبد الله جدّي بنزوله للعامة في الحكم للمرأة في غزلها ، والحمال في ثمن ما يحمله ، والدّلال

---

(1) البيان المغرب 2 : 121 .

في ثمن ماينادي عليه ،أضاع كبار الأمور ومهماتها ،والنظر في حروبه ، ومدارأة المتوثبين عليه ،حتى اضطربت جزيرة الأندلس ،وكادت الدولة ألايبقى لها رسم . وأيّ مصلحة في نظر غزل امرأة ينظر فيه آمين سوق الغزل ، واضاعة النظر في قطع الطرق وسفك الدماء وتخريب العمران ؟.(1)

ان بيت القلقاط يعبر عن الفوضى والاختلال ، وتبوّء بعض الناس مناصب رفيعة لم يخلقوا لها ، ولم يكونوا جديرين بها .

ولا نستطيع أن نقطع بأن العصبية للوطن والأمة هي الباعث الوحيد على ذلك الهجاء ، وأن نستبعد عنه الدوافع الذاتية . فقد يكون الحرمان سببا فيه ، لأن الشاعر كان من المتكسّبين بالشعر ، وكان الأمير عبد الله مشهورا بالبخل والاقتصاد .(2)

ونشط عجاء الحكّام في عهد الخليفة هشام المؤيد بالله (366- 399 هـ/ 976-1008م) والفتنة البربرية (399-403 هـ/ 976-1013م) . فقد كانت مبايعة هشام بالخلافة قبل بلوغه الحلم(3)

---

(1) المغرب 1 : 185 .

(2) م.ن ، 1 : 50 .

(3) اختلف المؤرخون في تحديد سن هشام بن الحكم عند مبايعته بالخلافة . فالحميدي يقول : ((وكان له اذ ولي عشرة أعوام وأشهر)). (جذوة المقتبس 1 : 47) .ويقول ابن بسام : ((وهو طفل مابلغ الحلم)) . (الذخيرة 4/1 : 57) . ويذكر ابن سعيد أنه كان ((ابن اثنتي عشرة سنة)) . (نقلا عن نفح الطيب 1 : 399) . ويجعله ابن عذاري ((ابن احدى عشرة سنة وثمانية أشهر)) . (البيان المغرب 2 : 253) . ويذكر المقّري أنه كان ((ابن تسع سنين)) . (نفح الطيب 1 : 396) . ويبدو أن الأقرب الى الصواب ماذكره ابن سعيد وابن عذاري ، لأن ابن الفرضي ، وهو أقدمهم ، ذكر أن هشاما ولد في جمادى الآخرة من سنة 354 هـ . (تاريخ ابن الفرضي 1 : 32) .

باعثا في حد ذاتها على الهجاء . ومن ذلك قول بعضهم (سريع)[1] :

((اقترب الوعد وحان الهلاك . ° . وكلّ ما تحذره قد أتاك

خليفة يلعب في مكتب . ° . وأمه حبلى وقاض ...)) .

ويعني الشاعر بقوله : " خليفة يلعب " هشاما المؤيد بالله لصغر سنه ، وب " أمه حبلى " والدته صبح البشكنسية ، وكان الناس يتهمون بها الحاجب محمد بن أبي عامر ، ويعني ب " القاضي " محمد بن اسحاق بن السليم[2] .

واذا كان الشاعر قد أنبأ في البيت الأول باقتراب الساعة وحلول الهلاك ، فانه علّل ذلك في بيته الثاني ، وعدّ من أماراتها انشغال الخليفة الصغير باللعب ، وعلاقة أمه الأثيمة بحاجبه ، وفجور قاضيه .

وقد نفى المقّري التهمة عن السيدة صبح والقاضي ابن السليم بقوله[3] : ((وذلك بهتان وزور ، وأفضح منه رميهم القاضي بالفجور)) .

وكيفما كان الأمر ، فان البيتين يعبّران عن النقمة والاستياء الشديد ، اثر تسنم هشام الطفل عرش الخلافة . ويتسمان بخمس خصائص واضحة ، هي : القصر ، وبساطة التعبير ، والتهويل ، والتركيز والافحاش .

استغل الحاجب محمد بن أبي عامر (366 - 392 هـ / 976 - 1002م) صغر سنّ هشام المؤيد ، وعلاقته الحسنة بوالدته صبح ، فقتل

---

(1) نفح الطيب 1 : 602 .

(2) البيان المغرب 2 : 280 .

(3) ع . س ، 1 : 603 .

بعض الأكفاء بالخلافة من الأمويين ، وأبعد بعضهم ، ومكر بكبار رجال الدولة كالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، وأبي تمام غالب الناصري ، شيخ الموالي وفارس الأندلس ، وجعفر بن عليّ بن حمدون المعروف بابن الأندلسي ، وكان قد ((أحله محل الأخ في الشقة))(1) ، وأبي الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي ، فارس العرب ، وغيرهم . وقرّب البربر واعتضد بهم ، وحجر على هشام المؤيد ، واستبد بالسلطة ، ممتثلا في ذلك رسم المستغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم في عصره ، فنال بغيته . . . من غير اقتدار عليه بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكاثرة بمال ولا عدة ، بل رمى الدولة من كنانتها(2) ، وعدا عليها بأعضادها وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حوّلها اليه ، وسبكها في قالبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعفّى رسومها بما أوضح من رسومه ، وأسقط رجال الحكم من سائر الطبقات : الكتاب والعمال والقضاة والحكام وأصحاب السيوف والأقلام ومزّقهم ، وأقام بازائهم من تخريجه واصطناعه رجالا سدّوا مكانهم ، ومحوا ذكرهم ، أعانوه على أمره .(3)

ولم يبق لهشام المؤيد من الخلافة سوى الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السكة والطرز(4) . فقال أحدهم على لسان المؤيد (وفر)(5) :

---

(1) البيان المغرب 2 : 278 .

(2) المشقص : سهم ذو نصل عريض . (ج) مشاقص .

(3) الذخيرة 1/4 : 61 .

(4) نفح الطيب 1 : 397_398 .

(5) البيان المغرب 2 : 280 .

((أليس من العجائب أنّ مثلي ∴ يرى ما قلّ ممتنعا عليه

وتملك باسمه الدنيا جميعا ∴ وما من ذاك شيء في يديه)) .

وقد وفّق الشاعر في التعبير عن خلافة هشام المؤيد الصورية وذلك بالمقابلة البلاغية بين صدر البيت الثاني وعجزه .

والحق أن الأمر لم يبق عند حدّ مساعدة طفل صغير ، غير قادر على تحمل أعباء الخلافة ، وانما تحوّل الى اغتصاب حكم وسيادة . فقد عفّى الحاجب محمد بن أبي عامر على آثار الدولة الأموية ، وأسّس الدولة العامرية . وأدت اجراءاته وسياسته الاستبدادية الى تكوّن معارضة قوية كثيرة الأطراف ، تتألف من الموتورين من بني أمية ومواليهم ، والصقالبة ، والعرب عامة وكانوا يسعون في الخفاء للقضاء على ابن أبي عامر ، غير أن حزمه الشديد حال بينهم وبين ما يأملون .

عرف أهل الأندلس " الحزبية " اذن ، ولكنها حزبية من نوع خاص ، نابعة من أوضاعهم السياسية والاجتماعية ، وقد جسّد (1)

---

(1) من أدلّتنا على "الحزبية " في عهد الدولة العامرية ، وصيّة الحاجب محمد بن أبي عامر ، وهو يحتضر ، لابنه عبد الملك وغلمانه ، واضطراب الغلمان على ابنه عبد الرحمن شنجول ، وعتاب أخيه عبد الملك لهم . فمن وصيّة ابن أبي عامر لابنه قوله : ((. . . فان انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وان اعتاصت عليك فلا تلقينّ بيدك القاء الأمة ، ولا تطيبك وأصحابك السلامة فتنسوا مالكم في نفوس بني أمية وشيعتكم في قرطبة . . . واياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك ، فاني أعرف ذنبي اليهم)) . (الذخيرة 1/4 : 77) .

ومن وصيته لغلمانه : ((تنبهوا لأمركم ، واحفظوا نعمة الله عليكم ، في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنكم بوارق بني

. . . / . . .

وقد جسّد الهجاء هذه الحزبية . من ذلك قول أحد الشعراء محرضا بني أمية على الثورة على الحاجب محمد بن أبي عامر ، مشبها اياه بالقرد (1) (كامل) :

((فيما أرى عجبا لمن يتعجب ∴ جلّت مصيبتنا وضاق المذهب
اني لأكذب مقلتي فيما أرى ∴ حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حيا من أمية واحد ∴ ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب
تمشي عساكرهم حوالي هودج ∴ أعواده فيهن قرد أشهب
أبني أمية أين أقمار الدجى ∴ منكم ، وما لوجوهها تتغيب)) .

وقال آخر (2) (كامل) :

((أبني أمية أين أقمار الدجى ∴ منكم ؟ وأين نجومها والكوكب ؟

.../... أمية ، ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم . وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فانه لا يغلّ فيكم)) . (الذخيرة 1/4 : 77-78). ومات الحاجب المنصور بن أبي عامر في رمضان سنة 392هـ/1002م ، في مدينة سالم ، وبها دفن ، فاضطرب الغلمان على ابنه عبد الرحمن شنجون ((وطمعوا في ردّ الدولة ، فقال لهم عبد الرحمن : اصبروا . فكشفوا ما في أنفسهم له وقالوا : وانما نحن في حجر أل أبي عامر الدهر الداهر ؟ نلحق بباب مولانا الخليفة هشام ولا نتدبر الا بأمره ، فتقدّمه الى قرطبة منهم نحو سبعمائة)) (الذخيرة 1/4 : 75) . وعاقب أخوه عبد الملك بعضا منهم ، ونفى بعضا الى سبتة ((فما تقلدوا عنها الا عند وثوب المهدي ابن عبد الجبار على الدولة العامرية)) . (الذخيرة 1/4 : 78) .

(1) البيان المغرب 2 : 281 .

(2) نفح الطيب 1 : 591 .

غابت أسود منكم عن غابها ∴ فلذاك حاز الملك هذا الثعلب)).

ويبدو أن هذين البيتين جزء من المقطوعة السابقة .

ويلاحظ أن هذه الأشعار أغفال ، أخفى أصحابها أسماءهم خوفا من انتقام ابن أبي عامر منهم . وفي سنة 399 هـ/1008م ، ثار محمد ابن هشام عبد الجبار على عبد الرحمن شنجول ، ثاني أبناء الحاجب محمد بن أبي عامر وقتله ، وخلع الخليفة الصوري هشاما المؤيد وتلقب بـ (المهدي) ، وخلّص بذلك الخلافة الأموية من ربقة العامريين واستبدادهم الذي دام أكثر من ثلاثين عاما .

وسرّ أهل قرطبة بانقلاب محمد المهدي سرورا عظيما ((وأحدثوا برحاب قرطبة وأرباضها ولائم وأعراسا ، وداموا على ذلك أياما تباعا ينتقلون من موضع إلى موضع بالمزامير والملاعي راجين تمام أملهم وانتظام أمرهم))(1) . الا أن ابتهاجهم ذاك لم يدم ، وأصيبوا بخيبة أمل ، لأن المهدي أساء السيرة ، وأقبل على اللذات وجاهر بالمعاصي و ظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر الا من أهل الدعارة المتهتكين فيها ... ولم يزل طول مدته مشتهرا بالفسق مظهرا للخلاعة ، لا يفيق من سكر ولا يرع من منكر بالنساء والمقالبة والملاعي ، حتى قال بعضهم فيه وافر :

أمير الناس سخنة كل عين ∴ يبيت الليل بين مخنثين
يجشم ذا ويلثم خدّ هذا ∴ ويسكر كلّ يوم سكرتين

---

(1) البيان المغرب 3 : 74.

لقد ولّوا خلافتهم سفيهـــا ∴ ضعيف العقل شيناغيرزين . (1)

ونلاحظ مواكبة الشعراء للأحداث، وتنديدهم بالعبث والاستهتار، وتشهيرهم بالمجان من الحكام . لقد غدا محمد المهدي سبب لوعة الناس وحزنهم، نهاره خمر، وليله فجر ((ولم تزل مناكيره تزيد حتى هانت أجرام آل عامر عند الناس وأقروا بظلمهم لهم)) . قتل فيه (2) و مخلع البسيط (3) :

((أشأم خلق على العبـــاد ∴ والناس من حاضر وبـــاد

أبو الوليد الذي اشعـــرت ∴ لنحسه شعرة البـــلاد

كان على قومه جميعـــا ∴ مزار عاد لقوم عـــاد)) .

وقال فيه أحدهم، ساخرا من لقبه (المهدي بالله)، ناعيا عليه قبح سيرته (مخلع البسيط) (4) :

((قد قام مهدينا ولكـــن ∴ بملّة الفسق والمجـــون

وشارك الناس في حريـــم ∴ لولاه مازال بالمصـــون

من كان من قبل ذا أجمّـــا ∴ فاليوم قد صار ذا قـــرون)) .

وهذه الأهاجي كلها أصوات ارتفعت صارخة، منددة بمناكره وبما جرّه على البلاد من فتن وويلات . وقد أخفى الشعراء أسماءهم خوفا من بطشه . وكان مثل هذا الهجاء كثيرا، مما دفع ابن عذاري، بعد أن أثبت مقطوعتين، الى القول : ((وقيل فيه كثير من هذا يطول الكتاب به)) (5) . وهذا دليل على رواج الهجـــاء

---

(1) البيان المغرب 3 : 80 .

(2) م . ن ، 3 : 63 .

(3) م . ن ، 3 : 80 .

(4) نفح الطيب 1 : 426 - 427 ، 577 .

(5) ع . س 3 : 80 .

السياسي ، وعلى ضياع نصوص كثيرة منه .

وفي سنة 399هـ / 1008م ، اشتعلت بالأندلس فتنة شنعاء بين عامة قرطبة بقيادة محمد المهدي والبربر بزعامة هشام ابن سليمان ، ثم بقيادة سليمان بن الحكم (المستعين بالله) امامهم من بعده ، وهي ((الفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحق والأولى))(1) . والتي أسفرت عن قتل هشام بن سليمان ، ومحمد المهدي ، وسليمان المستعين ، والآلاف من المسلمين من كل الطبقات ، وظهور بني حمود على مسرح السياسة بالأندلس .

وفي هجاء سليمان المستعين ، امام البربر ، وأحد المتناحرين على السلطة يقول أحدهم (2) (سريع) :

((لارحم الله سليمانكم ∴ فانه ضدّ سليمان
ذاك به غلّت شياطينها ∴ وحلّ هذا كل شيطان
فباسمه ساحت على أرضها ∴ لهلك سكان وأوطان)) .

ولعل من أجود ماجادت به القرائح في تلك الحرب الأهلية المبيرة وأجملها ، قول بعضهم في هجاء مسلمي الأندلس عامة (3) (سريع) :

((أضعتم الحزم في تدبير أمركم ∴ ستعلمون معاقبى البوار غدا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكم ∴ بكيتم بدم أن دمتم بددا
لكن سبل العمى أعمت بصائركم ∴ فألبستكم ثيابا للبلى جددا

---

(1) البيان المغرب 3 : 76 .
(2) نفح الطيب 1 : 429 .
(3) ع . س 3 : 110 - 111 .

وضياع تأثير آخر خلفائها وهيبته ، وذلك في شعره، الذي سخر فيه من حكم بن سعيد القزّاز ، وزير هشام المعتد . يقول (1) (خفيف) :

((هبك كما تدعي وزيرا .·. وزير من أنت يا وزير ؟

والله ما للأمير معنى .·. فكيف من وزّر الأمير)).

فما قيمة الوزير في مدّة لم يعد فيها لأمير، معنى ،وأصبح أميرا بلا امارة ؟ .

ولم ينج ملوك الطوائف وشعوبهم من الهجاء . وقد أدار الشعراء معاني هجائهم فيهم على محاور كثيرة ، كاسناد بعض الوظائف الحساسة في الدولة للعناصر الأجنبية من يهود ونصارى وكانفاق الأموال الضخمة في بناء القصور والقلاع ، وعدم استثمارها في اعداد القوة لمجابهة الأعداء ، والقعود عن الذبّ عن الاسلام والمسلمين وارهاق الرعية بالضرائب ، والاستكانة الى الحياة الناعمة وعدم الاستعداد الى الحرب والقتال ، والجري وراء الألقاب الرنانة ، وغيرها .

يقول السميسر (2) ، وكان أكثر شعراء عصر، جرأة وجسارة، في باديس بن حبوس ، ملك غرناطة (428 - 465 / 1037 - 1073م) لاستيزاره نصرانيا بعد هلاك وزيره اليهودي (3) (مجزوء الخفيف) :

---

(1) البيان المغرب 3 : 147 .

(2) الطرايسي أحمد أعراب . " الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي " . مجلة عالم الفكر (الكويت : ابريل - مايو - يونيو 1981) . 12 / 1 : 135 .

(3) اخبار وتراجم أندلسية ، ص:83 - 84 .

ما ان سمعنا مالكا آفتى بـذا ∴ لالاولا من بعده، سحنونا

هذا ولوأن الأئمة كلهم ∴ حاشاهم بالعكس قد أمرونا

ماواجب مثلي يمكّس عدله ∴ لوكان يعدل وزنه قاعونا (1)

ولقد رجونا أن ننال بمدحهم ∴ رفدا يكون على الزمان معينا

فالآن نقنع بالسلامة منكم ∴ لاتأخذوا منا ولا تعطونا)) .

ولما رأى السميسر عبد الله بن بلكين ، ملك غرناطة (465-483هـ/ 1073 - 1090م) مشغوفا ببناء قلعته ، قال فيه (مخلع البسيط) : (2)

((صاحب غرناطة سفيه ∴ وأعلم الناس بالأمور

مانع أذفونش والنصارى ∴ فانظر الى رأيه الدبير

وشاد بنيانه خلافا ∴ لطاعة الله والأمير

يبني على نفسه سفاعا ∴ كأنه دودة الحرير (3)

دعوه يبني فسوف يدري ∴ اذا أتت دورة القدير)) . (4)

ويقول الأديب آبو اسحاق ابراهيم بن معلى في خروج أهل (5)

---

(1) قاعون : اسم جبل عظيم بالغرب من دانية .

(2) معجم السفر للسلفي (مخطوط) الورقة 265 . نقلا عن : الهجاء في الأدب الأندلسي لفوزي سعد عيسى ، ص 58 .

(3) ورد هذا البيت في الذخيرة 2/1 : 887 ، ونفح الطيب 3 : 412 .

(4) ذكر فوزي سعد عيسى في كتابه (الهجاء في الأدب الأندلسي ، ص : 58) أن المهجو في هذه الأبيات باديس بن حبوس . ويبدو أن الصواب ما ذهبنا اليه . أما هجاء السميسر لباديس فهو الأبيات الثلاثة التي كتب منها نسخا عديدة ، ورماها في شوارع غرناطة ، ثمّ فرّ الى المرية . راجع : أخبار وتراجم أندلسية ص : 83 ، والذخيرة 2/1 : 887 ، ونفح الطيب 3 : 412 .

(5) أبو اسحاق ابراهيم بن معلّى البرّياني ، نسبة الى حصن بريانة (burriana). من شعراء عصر الطوائف الجوّالين . اشتهر بمدح أحمد بن سليمان بن هود (المقتدر) ملك سرقسطة (438-474هـ/ 1046-1081م) . راجع : الذخيرة 3 / 2 : 840 ، والخريدة 2 : 165 ، والمغرب 2 : 457 .

بلنسية وأميرهم عبد العزيز بن أبي عامر في سنة 456هـ / 1064م لقتال الأعداء في ثياب زينتهم ، وانهزامهم في مكان يعرف ببطرنة (1) (كامل :

((لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم .·. حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أنجبهم وأحسنكم بها .·. لولم يكن ببطرنة ما كانا)) .

انه الجهل المطبق بالحرب ، وضعف الروح العسكرية بسبب الركون الى الحياة اللينة الناعمة .

وحين رأى السميسر ((اختلال القيم ، وزهوة الباطل ، وغلبة الصغار وعجز عن التعبير ، . . . . ، سخر مما يعظّم الناس ، وهجا من يمدحون ، واحتقر ما يكبرون ، وجاء هجوه لهم مفحشا ونقده قاسيا (2))) . من ذلك قوله صارخا في وجه الملوك ، لقعودهم عن الجهاد والذب عن المسلمين (3) (مجزوء كامل) :

((نادا الملوك وقل لهم .·. ماذا الذي أحدثتم

أسلمتم الاسلام في .·. أسر العدا وتعددتم

وجب القيام عليكم .·. اذ بالنصارى قمتم

لا تنكروا شقّ العصا .·. فعصا النبيّ شققتم)) .

وله أهاج كثيرة يقرن فيها الذم بالشماتة والتشفي عند نزول النكبات والمحن من ذلك قوله (4) (طويل) :

((وليتم فما أحسنتم مذوليتم .·. ولا صنتم عمّن يصونكم عرضا

وكنتم سماء لا ينال منالها .·. فصرتم لدى من لا يسائلكم أرضا

ستسترجع الأيام ما أقرضتم .·. ألا انها تسترجع الدين والقرضا)) .

---

(1) الذخيرة 2/3 : 850 ، ونفح الطيب 4 : 448 .

(2) الطاهر أحمد مكّي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة (ط2 ، القاهرة : دار المعارف ، 1404هـ/1983م) ، ص : 65 .

(3) ع س ، 2/1 : 885 .

(4) نفح الطيب 4 : 108 .

ومن أقسى ما هجي به ملوك الطوائف ، قول الحصري الأعمى المريني يسخر من ألقابهم الكبيرة التي اختاروها لأنفسهم من غير استحقاق.(بسيط): (1)

((ما يبتّضني في أرض أندلس .·. سماع معتصم فيها ومعتضد

أسماء مملكة في غير موضعها .·. كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد)) .(2)

وفي هذا الهجاء تحقير كثير ، لأن الشاعر يرى أن ألقابهم كاللباس الفاخر ولكنه فضفاض لا يناسب أجسادهم النحيلة الهزيلة . وجعلهم أقزاما يتطاولون الى ما هم ليسوا أهلاله ، كالهر الذي ينتفخ ليحكي صورة الأسد . ولكن شتان مابين الهر المنتفخ والأسد .

وبينما كان ملوك الطوائف متفرقين ، متناحرين يلهثون وراء الألقاب الضخمة ، كان أعداؤهم في الجانب الآخر يعملون على جمع كلمتهم ، ورصّ صفوفهم لاكتساح أراضي المسلمين ، والثأر منهم ، والقضاء على وجودهم .

وفي سنة 478هـ / 1085م استولى الفونس السادس (alphonse 6) على مدينة طليطلة العظيمة ، حاضرة ذي النون ، فكان ذلك حدثا جللا ارتجّ له المسلمون . قال الفقيه الزاهد عبد الله بن فرج اليحصبي ، المشهور بابن العسال (ت 487هـ / 1094م) في تلك المناسبة الأليمة (بسيط) : (3)

((يا أهل أندلس حثّوا مطيّكم .·. فما المقام بها الآمن الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى .·. ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحن بين عدوّ لا يفارقنا .·. كيف الحياة مع الحيات في سفط)) .

وهكذا تنبأ الشاعر بزوال ملك المسلمين قبل الأوان ، ودعاهم الى

---

(1) الخريدة 2 : 187 .

(2) ورد البيتان في (وفيات الأعيان 4:) منسوبين لابن عمار . وفي نفح الطيب 1 : 213 ـ 214) لابن رشيق القيرواني .

(3) نفح الطيب 4 : 352 . وراجع الذخيرة 1/2 : 250 ، والمغرب 2 : 21 .

الاسراع بالرحيل عن الأندلس .

وعلى الرغم من انهزامية الأبيات ، فانها لاتخلو من تعريض بالمسلمين وملوكهم ، لقعودهم عن الجهاد وركونهم الى الأمن والسلامة .

ولما تمادى العدوّ في التضييق على المسلمين ، وبالغ في الاستهانة بملوكهم (1) واعناتهم ، ولم تجد معه المداراة ودفع الاتاوات نفعا ، استنجدوا بيوسف (2) ابن تاشفين آمير المرابطين .

ولبّى ابن تاشفين استصراخهم ، وعبر اليهم بجيشه . وانتصر المسلمون على النصارى انتصارا عزيزا في معركة الزلاقة (sagrajas) سنة 479هـ/1086م وأنشأ أبو الحسن بن الجد قصيدة في مدح ابن تاشفين ، وخصّص القسم الأكبر منها لهجاء ملوك الطوائف وذمّهم . يقول (3) (بسيط) :

((في كلّ يوم غريب فيه معتبر .·. نلقاه ، آو يتلقّانا به خبر

أرى الملوك أصابتهم بأندلس .·. دوائر السوء لاتبقي ولاتذر

فدكنت أنظرها والشمس طالعة .·. لوصحّ للقوم في أمثالها النظر

ناموا وآسرى لهم تحت الدجى نذر .·. هوى بأنجمهم خسفا وما شعروا

وكيف يشعر من في كفّه قدح .·. تحدو به مذهلات الناي والوتر

صمّت مسامعه عن غير نغمته .·. فما تمرّ به الآيات والسور

تلقاه كالعجل معبودا بمجلسه .·. له خوار ولكن حشوه خور

وحوله كلّ مغترّ وما علموا .·. أنّ الذي زخرفت دنياهم غرر

---

(1) راجع الذخيرة 1/2:253-254، ونفح الطيب 4 : 354-359 .

(2) من ذلك قول الأذفونش ملك النصارى زاريا على المعتمد بن عباد :"كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان واشتد عليّ الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عن وجهي " (نفح الطيب 4 : 358) .

(3) الذخيرة 1/2 : 256-257 .

فقل لمن نام أصبحت ، انتبه فلقد .·. مضى لك الليل بحتا وانقضى السحر (1)
وانظر الى الصبح سيفا في يدي ملك .·. في الله من جنده ، التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ .·. كما رعاها بطرف ساهر عمر
ردوا موارد قد أوردتم حنقا .·. بها الأنام ولكن مالكم صدر
كأنني بكم قد صرتم سمرا .·. ومالكم في الورى عين ولا أثر
آماتكم قبل موت سوء فعلكم .·. وكيف بالذكر اذ لم تحسن السير)) .

تستحق هذه القصيدة وقفة طويلة ، لأنه اجتمع لها من الخصائص مالم يجتمع لغيرها من نوعها ، فجاءت متميّزة فريدة .

تتألف من أربعة عشر بيتا ، وهي بذلك تختلف عما ألفناه من مقطوعات وعلى الرغم من أن غرضها المدح ، فانه لا يشغل منها سوى بيتين اثنين وهذا دليل على أن الشعور بالغضب كان أكثر سيطرة وطغيانا على نفس الشاعر من الشعور بالرضى ، ولذلك استهلها بالذم وبه ختمها .

ويبدو أن النصر العزيز الذي حققه ابن تاشفين وجنده على أرض الزلاقة كان أعظم وأكبر من أيّ مدح .

وتقوم جودتها على ثلاث ركائز اساسية هي : الصدق والعفة والمفاضلة . وهي مقاييس الهجاء الجيد عند النقاد القدماء .

أما الصدق أو الواقعية فنلمسه في تلك اللقطات المنتخبة من سير ملوك الطوائف ، المتمثلة في القعود عن الجهاد والذّب عن الاسلام وفي اهمال شئون الرعية ، والاشتغال عن الأمور المصيرية بمجالس اللهو وما يجري فيها من عبّ للخمر واستماع للغناء .

وأما العفة ، فيجسدها نكف الشاعر عن الافحاش اللفظي والمعنوي وقد تجنب الحديث عن اللهو بالنساء ، بالرغم من ذكره لشغفهم بالشرب والطرب .

---

(1) البحت : الصرف الخالص .

وأما المفاضلة ، فتبدو في المقارنة بين سيرة ابن تاشفين وسيرملوك الطوائف ، فهو "يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ" ، حتى غدا في ذلك صنو العمر ابن الخطاب ،(رضي الله عنه) ، وهم جبابرة مستبدون ، عسفوا الرعية ، فهو أفضل منهم لا يعدله منهم أحد .

لقد أقام الشاعر قصيدته على مدح يوسف بن تاشفين وذمّ ملوك الطوائف .

ومما يؤثر من هجاء القرن السابع الهجري (13م) قول الأديب أبي عبد الله محمد الفازازي (1) في مقطوعة وجدت في جيبه يوم وفاته مصوّرا محن المسلمين الشديدة ، وسوء حالهم (2) (كامل) :

((الروم تضرب في البلاد وتغنم .·. والجور يأخذ ما بقي والمغرم

والمال يورد كله فشتالة .·. والجند تسقط والرعية تسلم

وذوو التعين ليس فيهم مسلم .·. الا معين في الفساد مسلّم

أسفي على تلك البلاد وأهلها .·. الله يلطف بالجميع ويرحم)) .

يتأسف الشاعر بحرقة ، وحقّ له أن يتأسف على ما آلت اليه حال المسلمين بالأندلس في ذلك العهد من الضعف والذل والفساد . لقد أصبح الناس بين طرفة الروم وسندان الحكّام ، الروم يغيرون ويسبون ويغنمون ويقتطعون الأراضي ، وحكام المسلمين قاعدون عاجزون عن المقاومة والدفاع عن الأرض والأعراض ، ولكنهم اشداء في ابتزاز الأموال وسلبها من الرعية لتقدم جزى للروم مداراة لهم .

وكان الشاعر صادقا في تصوير حال المسلمين ، وكشف مساوئ حكامهم

---

(1) لم أعثر على ترجمته في ما وقع بين يديّ من مصادر .

(2) نفح الطيب 4 : 467 .

وابراز مظاهر الفساد في بلادهم ، ولذلك بكى حاكم بلده لما اطلع على الأبيات وقال : ((صدق رحمه الله تعالى ، ولو كان حيا ضربت عنقه)) (1) .

تهاجي العرب والمولدين من العجم .

لما دبّ الضعف والوهن الى الامارة الأموية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وبالأخصّ في عهد الأمير عبد الله بن محمد ، نجم ثوّار كثيرون ، وانتزوا على مناطق مختلفة من الأندلس (2) . وكان العرب والمولدون من العجم من أقوى الثائرين وأخطرهم على السلطة الأموية في جنوب الأندلس .

واذا كان موقف المولدين من أمراء قرطبة قد اتسم بالثورة والتمرد حينا ، وبالطاعة والمهادنة حينا آخر ، تبعا للظروف ، فان موقفهم من جيرانهم العرب القاطنين بكورة غرناطة كان عدائيا باستمرار . وقامت العصبية والأخذ بالثأر بدور بعيد في اذكاء صراعهما ، واشعال الحروب بينهما .

وشارك الشعر في ذلك الصراع الطائفي ، باعتباره وسيلة من وسائل القتال الفعالة لما للكلمة من أثر خطير في نفوس الأصدقاء والأعداء على السواء (3) . فوقف اللسان الى جانب السيف والسنان ، فكان العبلّي

---

(1) نفح الطيب 4 : 467 .

(2) راجع : البيان المغرب 2 : 125 - 149 .

(3) عبد الله أو عبد الرحمن بن أحمد العبلّي ، نسبة الى "عبلة" احدى قرى غرناطة . راجع : المغرب 2 : 125 ، والحلة السيراء 1 : 153 .

شاعر المولدين ، وكان الأسديّ (1) ، وسوّار بن حمدون (2) ، وسعيد بن جودي (3) شعراء العرب . كلّ ينافح عن حزبه ، ويتغنى بانتصاراته ، وينافض الأعداء ويذكر عيوبهم ومزائمهم . وسنذكر ما وصلنا من شعرهم في مكانه ومناسبته في هذا الموضوع .

قام بأمر العرب أول الأمر يحي بن صقالة ، الذي ((صبّ على المولدين والعجم منه ومن أصحابه أعظم آفة (4))) الى أن مكروا به وقتلوه غدرا في سنة 276 هـ/ 889 م ، فخلفه سوّار بن حمدون ، الذي انضمت اليه بيوتات العرب من البيرة وجيّان وريّة وغيرها ((فكثر أتباعه واشتدت شوكته واعتز العرب بمكانه ، فلفّف جموعها وحمى ذمارها وسعى لادراك ثارها (5)) . الى أن قتل في سنة 277 هـ/ 890 م ، فأسند العرب زعامتهم الى سعيد بن جودي ، ثم الى محمد بن أضحى من بعده (6) .

---

(1) محمد بن سعيد بن مخارق الأسديّ ، نسبة الى أسد بن خزيمة . راجع الحلة السيراء 1 : 153 .

(2) سوّار بن حمدون التيمي المحاربي ، زعيم العرب بعد يحي ابن صقالة ، قتل في سنة 277 هـ/ 890 م . راجع : المغرب 2 : 105 ، والحلة السيراء 1 : 147 ، والبيان المغرب 2 : 133 .

(3) أبو عثمان سعيد بن جودي السعدي ، زعيم العرب وشاعرها بعد سوّار بن حمدون ، قتل في سنة 284 هـ/ 897 م . راجع المغرب 2 : 105 ، والحلة السيراء 1 : 154 ، وغيرهما .

(4) (5) الحلة السيراء 1 : 148 .

(6) محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني . زعيم العرب بعد هلاك عدوّه اللدود سعيد بن جودي ، قضى الخليفة عبد الرحمن الناصر على ثورته في سنة 313 هـ/ 926 م . راجع : الحلة السيراء 2 : 378 ، والبيان المغرب 2 : 134 .

وأشهر من قام بأمر المولدين والعجم وأقواهم عمر بن حفصون (1) وأبناؤه، جعفر وسليمان وحفص من بعده .

ويرجع نجاح عمر بن حفصون في استمالة قومه ، وكسب ثقتهم وتبنيهم لمبادئه وثورته ، والتفافهم من حوله الى أسباب ثورته المقنعة وأهدافها الواضحة التي لخّصها في قوله (2) : ((طال ما عنّف عليكم السلطان ، وانتزع أموالكم ، وحملكم فوق طاقتكم ، وأذلّتكم العرب ، واستعبدتكم وانما أريد أن أقوم بثأركم ، وأخرجكم من عبوديتكم)) . فهو يسعى الى تحرير المولدين من عبودية العرب والقضاء على طغيان حكامهم وعسفهم ، ويطمح الى احداث تغيير جذريّ في نظام الحكم والعلاقات الاجتماعية . هذا بالاضافة الى حسن سيرته فيهم ، وما كان يمنيهم به من انتصارات وغنائم .

ونعرف من قادتهم كذلك ، نابلا وحفص بن المرة ، قائد عمر ابن حفصون .

وأول ما قام به العرب بزعامة سوّار بن حمدون افتكاك حصن منت شاقر (monte sacro) من المولدين بقيادة نابل واستعادته

---

(1) عمر بن حفص بن عمر بن جعفر ، من مسالمة أهل الذمة . ثار بـ " ببشتر " بالقرب من ريّة في سنة 267 هـ / 880م . وظل مصدر خطر وقلق لأمراء بني أمية والعرب عامة . أعلن نصرانيته في سنة 286 هـ / 899م بعد أن كان يسرّها ، وهلك في سنة 305 هـ / 918م . وواصل أبناؤه ثورته الى سنة 315 هـ / 928م . راجع : أخبار مجموعة ، ص : 133 ، وتاريخ ابن القوطية ، والحلة السيراء ، والبيان المغرب 2 في صفحات متفرقة ، وحركات المولدين في الجنوب الأندلسي لمحمد عيسى الحريري .

(2) البيان المغرب 2 : 114.

ثم الزحف الى جعد بن عبد الكافر ، عامل الأمير عبد الله على البيرة وقتل سبعة آلاف من رجاله ، وأسره . واستفحل أمرهم بعد ذلك ، فاستولوا على بعض الحصون التي كانت تحت سيطرة عمر بن حفصون .

وسجل سعيد بن جودي انتصار العرب على المولدين وجند البيرة وأسرهم جعدا ، في قصيدة خاطب بها المولدين . استهلها بالفخر بشجاعة العرب وأخذهم بثأر قائدهم يحي بن صقالة ، وذمّ المولدين قال (خفيف) : (1)

((قد طلبنا بثأرنا فقتلنا .·. منكم كلّ مارق وعنيد
قد قتلناكم بيحي ومن كان حكم الاله بالمردود
هجتم يا بني العبيد ليوثا .·. لم يكونوا عن ثأرهم بقعود
فاصطلوا حرها وحرّ سيوف .·. تتلظى عليكم كالوقود
لم تزالوا تبغونها عوجا حتى وردتم للموت شرّ ورود)).

ثم انتقل بعد ذلك الى مدح سوّار بن حمدون وجنده . يقول :

((جاءهم ماجد يقود اليكم .·. فتية منهم كمثل الأسود (2)
ماجد تدجرى الى المجد حتى .·. نال بالسيف غاية التمجيد
عبرزيّ مهذّب من نزار .·. وعميد ما مثله من عميد (3)
يطلب الثأر ، ثأر قوم كرام .·. أخذوا بالعهود بعد العهود (4)

---

(1) ابن حيان ، المقتبس . نشر ملشورم . انطونيه (باريس : 1937م) 3 : 58 - 60 . . نقلا عن : فصول في الأدب الأندلسي ، ص 77 - 78 . وراجع : الحلة السيراء 1 : 151 - 152 .

(2) في الحلة السيراء : زادة .

(3) عبرزيّ : شجاع مقدام .

(4) في الحلة السيراء : آزروا .

فاستباح الحمراء(1) لم يبق منهم ∴ غير عان في قيد(2) مصفود

فقتلنا منكم ألوفا وما يعـ ـدل قتل الكريم قتل العبيد

ثم عيّر المولدين باللؤم ، لأنهم قتلوا يحي بن صقالة غدرا . والغدر بعد تأكيد اليمين بالعهود مذموم ، ولا يكون الأمن اللئام . يقول :

قتلوه لما أضاف اليهم ∴ لم يكن قتله برأي رشيد

قتلته عبيد سوء لئام ∴ وفعال العبيد غير حميد

لم يصيبوا الرشاد فيما أتوه ∴ لا ، ولا كان جدهم بسعيد

قد غدرتم به بني اللؤم من بعـ ـد يمين قد أكدت بعهود

وختم قصيدته بتعداد مناقب فقيدهم يحي بن صقالة . يقول :

لئن كان قتله غدرة ما ∴ كان بالنكس(3) ، لا ولا الرعديد(4)

كان ليثا يحمي الحروب وحصنا ∴ وملاذا وعصمة المصفود

كان فيه التقى مع الحلم والبا ∴ س وجود ما مثله من جود

عال مجد الأمجاد مجدك يا يحـ ـي قديما وفتّ كلّ مجيد

فجزاك الاله جنّة عدن ∴ حيث يجزى الثواب كلّ شهيد)) .

ومن أهم الوقائع التي انتصر فيها العرب بقيادة سوّار بن حمدون على المولدين ، "وقيعة المدينة"(5) التي جرت في سنة 276هـ/ 889م(6) ، وفيها قتل الآلاف من المولدين . فقال سعيد بن جودي مفتخرا (طويل) :

---

(1) يعني بني الحمراء .

(2) في الحلة السيراء : فدّ ، .

(3) النكس من الرجال : الضعيف الدنيء . (ج) أنكاس .

(4) الرعديد : الجبان الكثير الارتعاد . (ج) رعاديد .

(5) راجع الحلة السيراء 1 : 149-150 .

(6) الحلة السيراء 1 : 150-151 .

((ولما رأونا راجعين اليهم ∴ تولوا سراعا خوف وقع المناصل

فسرنا اليهم والرماح تنوشهم ∴ كوقع الصياصي تحت رهج القساطل

فلم يبق منهم غير عان مصفد ∴ يقاد أسيرا موثقا في السلاسل

وآخر منهم هارب قد تضايفت ∴ به الأرض يهفو من جوى وبلابل)).

ومنه :

((لقد سلّ سوّار عليكم مهندا ∴ يجذّ به الهامات جذّ المفاصل

به قتل الله الذين تحزبوا ∴ علينا وكانوا أعل افك وباطل

سما لبني الحمراء اذ حان حينهم ∴ بجمع كمثل الطود آرعن رافل

أدرتم رحى حرب قد ارت عليكم ∴ لحتف قد أفناكم به الله عاجل

لقيتم لنا ملمومة مستجيرة ∴ تجيد ضراب الهام تحت العوامل

بها من بني عدنان فتيان غارة ∴ ومن آل قحطان كمثل الأجادل

يقودهم ليث هزبر غضارم ∴ محشّ حروب ماجد غير خامل

أرومته من خير فيس سمابه ∴ الى المجد قدما والعلا كلّ فاضل

له سورة غيسية عربية ∴ بها ذاد عن دين الهدى كلّ جاهل)).(1)

وجاءت بعض القصائد في شكل النقائض المشرقية ، بحيث يلتزم الشاعر الوزن والرويّ اللذين استعملهما شاعر الخصوم في قصيدته ، الا أنه ينقض معانيه ويدحضها . ومن ذلك أن العبليّ (2) شاعر الموحدين قال (وافر) :

((قد انقصفت قناتهم وذلوا ∴ وضعضع ركن عزّهم الأذلّ

---

(1) يرى حسين مؤنس محقق الحلّة السيراء أن الأبيات الخمسة الأخيرة موضوعة ، أضافها رجل لا يعرف الظروف التي أحاطت بثورة يحي بن صمادح ومن خلفه في الرياسة . راجع الحلة السيراء 1 : 151 (الهامش الأول) .

(2) الحلة السيراء 1 : 153 - 154 .

فما طلت دماؤهم لديهم .·. وهاهم عندنا في "آلبير" طل)).

فنقض يحي ابن أخي القائد يحي بن صفالة قوله بشعر يقول فيه (1) (وافر) :

((لسوار على الأعداء سيف .·. أباد ذوي النواية فاضمحلوا

سناهم كأس حتف بعد حتف .·. بها نهل العبيد معا وعلوا

قتلت بواحد ، سوّار ، ألفا .·. وألفهم بواحدنا يقل

وأكثر قتلنا لهم حلال .·. بما ارتكبوه ظلما واستحلوا

فأوردنا رقابهم سيوفا .·. تشبّ النار منها اذ تسل

ورثنا العزّ عن آباء صدق .·. وارثكم بني العبدان ذل)).

ونافسه الأسديّ شاعر العرب ، بقصيدة لم يصلنا منها سوى أبيات قليلة ، استهلها بالنسيب على عادة القدماء . يقول (2) (وافر) :

((فداحتل الأحبة واستقلوا .·. لطيتهم بليل واحزألوا (3)

فظل الدمع من جزع عليهم .·. اذا احتملوا يسحّ ويستهل

سأصرف همتي عنهم وأسلوا .·. بهجوي معشرا كفروا وظلوا

لواء النصر معقود علينا .·. بتأييد الاله فما يحل

اذا ما استلأمت أسد ونيس .·. رأيت الشرك قد خضعوا وذلوا

ومن فحطان والحيّين بكر .·. وتغلب أسد غاب ما تفل)).

وكان لما ينظمه الشعراء من قصائد تأثير خطير في نفوس الأعداء والحلفاء على السواء . اطلع العرب على قول العبليّ

---

(1) الحلة السيراء 1 : 153 - 154 .

(2) فصول في الأدب الأندلسي ، ص : 80 .

(3) احزألّوا : اجتمعوا .

شاعر أعدائهم ، (طويل) (1) :

((منازلهم منهم قفار بلا فع ∴ تجاري السفا فيها الرياح الزعازع (2)

وفي القلعة الحمراء تبديد جمعهم ∴ ومنها عليهم تستدير الوقائع

كما جدلت آباءهم في خلالها ∴ أسنتها والمرهفات القواطع)).

فاستولى على قلوبهم رعب كبير . يقول أبو رجاء عثمان بن سعيد أحد رجالهم : فاشتد ذعرنا لهذه الأبيات حتى لو أحاطت بنا عساكر أهل الأرض ما وجدنا مزيدا من الذعر ووقع منها موقع الهواتف بالنذر ، وحرّكنا شاعرنا المعروف بالأسدي ... فلما حرّكنا أسديّنا للرد عنا أخبل لشدة ذعره وكدّ خاطره فبعد لأي ما انبعث ببيتين عما طويل :

منازلنا معمورة لا بلا فع ∴ وقلعتنا حصن من الضيم مانع

وفيها لنا عزّ وتدبير نصرة ∴ ومنها عليكم تستتبّ الوقائع

حكى أنه عملها في الليل ثم أخبل وارتجّ عليه فكأنه ما قال شعرا قط . (3)

ثم لنتأمل بعد ذلك أثربيب من الشعر زعم الأسدي أنه سمعه من عاتف . يواصل أبو رجاء عثمان بن سعيد الحديث قائلا : وظل الأسدي مطرقا حتى سمع قائلا له يسمع الصوت

---

(1) المغرب 2 : 125.

(2) السفا : التراب . الرياح الزعازع . الشديدة .

(3) المقتبس 3 : 63-64. نقلا عن : فصول في الأدب الأندلسي، ص79-80.

ولا يرى شخصه : قل طويل :

ألا فادّنوا منها قريبا لوقعة .·. تشيب لها ولدانكم والمراضع .

قال : فحفظت البيت واستبشرت به ونهضت الى أضحى بن عبد اللطيف الهمداني وكان خاصتي من المشيخة فأنبأته بما سمعت فقال : ابشر بما سمعت يا ابن أخي فما أحسبه الا عاتف صدق في هؤلاء الأخابث فانهم بغوا علينا ، وقد وعد الله من بغي عليه النصر . فاتفق أن كانت للعرب عليهم الى سبعة أيام الوقيعة المشهورة التي هلك فيها منهم سبعة عشر ألفا . (1)

وفي سنة 277هـ/ 890م وقع سوار بن حمدون ، زعيم العرب ، في كمين نصبه له الأعداء فقتل . ويقال ان ثكالى نساء المولدين (2) مزّقن جثّته من شدة حقدهن عليه ، ((وأكله كثير منهن حنقا لما نالهن به المرة بعد المرة من الثكل في بعولتهن وأعليهن)) (3) وأيا ما كان نصيب هذه الرواية من المبالغة ، فانها تدل على عنف الصراع الذي دار بين العرب والمولدين ، وما خلف في النفوس من ضغائن وأحقاد .

وآلت زعامة العرب بعد ذلك الى سعيد بن جودي ، الذي اجتمعت فيه عشر خصال لم تجتمع في أحد من أهل زمانه ، وهي : (4)

(1) المقتبس 3 : 63 - 64 . نقلا عن : فصول في الأدب الأندلسي ، ص : 79 - 80 .

(2) اختلف فيمن نصب الكمين لسوّار وقتله ، فابن الأبار في (الحلة السيراء 1 : 155) يقول انه " أصيب على يد بعض أصحاب ابن حفصون ". وابن عذاري في " البيان المغرب 2 : 134) يذكر أنه جعد بن عبد الغافر . ويذكر حسين مؤنس محقق الحلة السيراء أنه حفص بن المرة ، اعتمادا على ابن حيان .

(3) (4) الحلة السيراء 1 : 155 .

الجود ، والشجاعة ، والفروسية ، والجمال ، والشعر ، والخطابة والشدة ، والطعن ، والضرب ، والرماية . وعلى الرغم من شجاعته وفروسيته وحذقه لفنون كثيرة من القتال ، الا أنه لم يسدّ مكان سوّار ، "ولا بلغ مداه في السياسة"(1) . وانتهى أمره بالقتل بأيدي بعض أصحابه في سنة 284هـ/897م(2) . ويبدو أن للأمير عبدالله يدا في اغتياله ، لتماديه في الفتنة وغمطه أمراء بني مروان في شعره ، ومنه تهديده للأمير عبد الله (رمل) :

((يابني مروان جدّوا في الهرب .·. نجم الثائر من وادي الغضب

يابني مروان خلّوا ملكنا .·. انما الملك لأبناء العرب))(3)

وآلت رئاسة العرب بعد ذلك الى محمد بن أضحى .

وخمدت الفتنة بين العرب والمولدين بموت كبار زعمائهم وانتهت ثورتهم على السلطة الأموية في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر (300 - 350هـ/ 912 - 961م) .

والخلاصة التي يمكن الخروج بها من كل ماتم عرضه ، أن الصراع السياسي الذي نشب بين العرب والمولدين من العجم في الربع الأخير من المئة الثالثة الهجرية رافقه صراع أدبيّ بين العبليّ شاعر المولدين والأسديّ وغيره من شعراء العرب .

وقد وصلنا منه مقطوعات شعرية قليلة ، لايمثّل ماقال العبليّ منها الا شيئا يسيرا .

---

(1) الحلة السيراء 1 : 155 .

(2) المغرب 2 : 106 ، والحلة السيراء 1 : 156 . وراجع خبر قتله في : البيان المغرب 2 : 134 .

(3) ع . س . ، 1 : 156 .

وامتازت تلك الأشعار من الناحية الشكلية بجزالة الألفاظ وقوّتها ، وبمجيئها على صورة النقائض المشرقية ، بحيث يدحض الشاعر مزاعم شاعر الأعداء وادعاءاته في شعر من نفس الوزن والرّوي واتسمت من ناحية المضمون بتعدد الأغراض ، بحيث تشمل القصيدة الواحدة الغزل والوصف والمدح والفخر والهجاء ، وان كان أظهرها الفخر والمدح والهجاء .

ودارت معاني المدح على القيم المحمودة كالشجاعة والاقدام وعراقة النسب ، في حين دارت معاني الهجاء على الصفات المذمومة كالجبن والغدر وضعة النسب وغيرها من المثالب .

مجاء البربر.

اضطلع البربر بدور عظيم في فتح شبه الجزيرة الايبيرية وانتقال المسلمين اليها واستيطانها . وبدأ هذا الدور بسرية الاختبار التي قادها طريف في رمضان 91هـ/ 710م . وتجلى أكثر في حملة طارق بن زياد وانتصاره، التاريخي الباهر في معركة وادي لكّة في رمضان 92هـ/ جويلية 711م .

قام البربر بمهمة الاستطلاع وتجشموا مشاق العبور وتحملوا عبء المواجهة العسكرية الأولى بشجاعة نادرة . وقدر لهم فتح الأندلس بعد أن قدموا شهداء كثيرين في ميدان المعركة .

وتلا النصر العزيز الذي حقّقه طارق بن زياد وجنده هجرات بربرية كثيرة ضاعفت من أعدادهم ، فما ان سمح سكان برّ العدوة بالانتصار ووفرة المغانم في الأندلس حتى ((أقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر))(1).

---

(1) نفح الطيب 1 : 249.

واستقروا في مختلف الأنحاء ، لأن المسلمين - عربا وبربرا - كانوا ((كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ، ونزلوه فاطنين))[1]

ولم يستمر الانسجام بين العرب والبربر طويلا ، وظهر الانشقاق بين الفئتين مبكرا لاستئثار العرب بالحكم من دونهم .[2]

ولما أحسّ الوالي عبد الملك بن قطن بخطرهم ، اضطر الى ادخال جند الشام وفائدهم بلج بن بشر المحاصرين بسبتة . وانتهت ثورة بربر الأندلس بهزيمتهم في معركة " وادي سليط " حيث انتصر عليهم العرب البلديون والشاميون ، وقتلوا الآلاف منهم .[3]

لم يتأثر البربر كثيرا بهذه الهزيمة ، وظلوا يؤلفون عنصرا بارزا من عناصر سكان الأندلس ، ويشاركون مشاركة قوية فعّالة في الأحداث . وكثيرا ما استغلوا من قبل الولاة والأمراء للقضاء على ثورات خصومهم من العرب وتمردهم .

ويعد الحاجب المنصور بن أبي عامر أبرز من قرّب البربر من الحكام وتكثر منهم واستغلهم لخدمة دولته . فبعد أن تخلص من الأكفاء للخلافة من البيت الأموي ، وبعد أن مكر بكبار رجال الحكم المستنصر ووزرائه وأسقطهم الواحد بعد الآخر ، التفت الى الجيش فاستبدل ((جند الأندلس بالبربر ... اختصّهم باستصناعه واسترفهم باحسانه ، نسخ بهم في المدة القريبة جند الخليفة))[4] ، وتسلط على الخليفة هشام المؤيد لصغر سنه ، حتى ((بلغ من ذلك مبلغا ، لم

---

(1) نفح الطيب 1 : 276 .

(2) راجع: فجر الأندلس ، ص : 195 .

(3) أخبار مجموعة ، ص : 44 ، ونفح الطيب 2 : 31 .

(4) البيان المغرب 2 : 293 .

يبلغه قط متغلب على خليفة))[1] ، واستبد بالحكم .

واستغل الحاجب المنصور أيضا الصراع القبلي الذي حدث بين صنهاجة وزناتة في المغرب ، فراسل الزناتيين المنهزمين ودعاهم الى العبور اليه ، فانتقلوا الى الأندلس ، فقربهم وأعلى منزلتهم واعتمد عليهم وأسقط العرب . وقد نقل ابن عذاري ما كتبه الفتح بن خاقان عن ذلك الانقلاب الكبير فقال[2] : ((وأذلّ المنصور قبائل الأندلس باجازة البربر ، وأخمل أولئك الأعلام الأكابر ، فانه ناوءهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم ، حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا منهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور)) .

ولقي البربر عند عبد الملك ، بعد وفاة المنصور ، من الحظوة وعلوّ المنزلة ما كانوا يلقونه عند أبيه .

ولما انتقلت الحجابة الى أخيه عبد الرحمن شنجول ، طمع في ولاية العهد ، ولم يقنع بما قنع به أخوه عبد الملك وأبوهما المنصور من قبل . وكان العهد الذي أمضاه له الخليفة المؤيد بشابة الصرارة التي أشعلت نار الفتنة الكبيرة التي أحرقته وظلت تصلي العرب والبربر سنين طويلة . وهي الفتنة التي تعرف في التاريخ بـ " الفتنة البربرية " .

تولّى محمد (المهدي) أمر القيام على عبد الرحمن شنجول حاجب المؤيد وولّي عهده . وكان يكنّ للعامريين والبربر أشدّ الحقد والكراهية لاستبداد الأولين بالحكم وقتلهم أباه ، عشما ولكون الأخيرين كانوا يمثلون اليد القوية التي يبطش بها

---

(1) البيان المغرب 2 : 276 .

(2) م . ن ، 2 : 274 .

العامريون ، والحصن المنيع الذي يحميهم .

وجدّ محمد المهدي في الأمر ، وبثّ دعوته بين الأمويين ومواليهم ووجد عند الناس منهما لسخطهم الشديد على عبد الرحمن شنجول لتهوّره وفيح سيرته .

واستغلّ محمد المهدي خروج عبد الرحمن شنجول لغزو أحد ملوك النصارى وتأديبه ، لأنه بلغه قوله مستخفا به : ((والله لوأني نائم وأقبل عبد الرحمن بجميع جيوشه ما استيقظت له)) (1) . وردّ الاعتبار الى نفسه . ووثب على القصر وخلع عثمان المؤيد . وطار الخبر الى شنجول فقطع غزوته ورجع لتدارك الأمر ، ولكن هيهات لأنه قبض عليه قبل دخوله قرطبة ، وضربت عنقه ، وبقتله انهارت الدولة العامرية .

وحاول رؤساء البربر التقرب من الخليفة الجديد المهدي الأأن هذا لم يكن يقدر على اخفاء بغضه لهم وحقده عليهم . وأساء بعض حجابه معاملتهم . وشاع بينهم أنه يريد الفتك بهم عندئذ تحققوا من ضياع مركزهم في الدولة ، فتغيرت قلوبهم عليه ، وبدأوا في السعي بجدّ للقضاء عليه .

اتصل البربر في أول الأمر بهشام (الرشيد) وبايعوه ، ثم خرجوا معه الى المهدي وحاصروه يوما وليلة ، غيرأن أهل قرطبة تصدوا لهم وأحبطوا مسعاهم ، عندئذ أمر المهدي ((أن ينادى في الناس من أتى برأس بربريّ فله كذا ، فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه ... ونهبت ديار البربر ، وهتك حريمهم وسبي نساؤهم ، وباعوهن في دار البنات ، وقتلوا النساء

---

(1) البيان المغرب 3 : 39 .

الحوامل ...))[1] .

والتفّ البربر بعد قتل الرشيد حول سليمان (المستعين) وأذكى ملوك النصارى نار الفتنة ، وأجّجوها بتقديم العون للأطراف المتناحرة مقابل التنازل لهم عن الحصون المنيعة ودفع الأموال الطائلة . وماذا يهمهم ، مادام المسلمون يقتل بعضهم بعضا ويدمرون أنفسهم بأنفسهم ؟

وأقبل سليمان المستعين نحو قرطبة بجيش من البربر والنصارى ، فخرج اليه محمد المهدي وأهل قرطبة ، ((فلم تكن الّا ساعة ، حتى قتل من أهل قرطبة نيّف على عشرين ألف رجل ، في جبل هناك يعرف بجبل قنتش ، وهي الوقعة المشهورة ، ذهب فيها من الخيار وأئمة المساجد والمؤذنين خلق عظيم))[2].

واشتد التناحر على الخلافة بين محمد المهدي وسليمان المستعين ، مع الأول أهل قرطبة ، ومع الثاني البربر والنصارى فاسم مشترك بينهما . وانتهى الفصل الأول من هذه الحرب الأهلية بقتل المهدي ودخول المستعين والبربر قرطبة منتصرين في سنة 403هـ/ 1013م ، بعد أن عاثوا في الأرض فسادا ، وزرعوا الرعب والهلع في القلوب بما ارتكبوه من فضائع .

وكانت مكافأة المستعين للبربر كبيرة ، بحجم بلائهم في حربه من أجل عرش الخلافة ، فوهب لرؤساء قبائلهم المدن والأقاليم ، ((فأعطى صنهاجة البيرة ... وأعطى مغراوة الجوف وأعطى منذربن يحي سرقسطة ، وأعطى بني برزال وبني يفرن جيّان

---

(1) البيان المغرب 3 : 81 .

(2) جذوة المقتبس ، ص: 40 . وراجع الذخيرة 1/1 : 43 .

وذواتها ، وأعطى دمّر وأزداجة شذونة وسورور ، وغيرذلك من الحصون))[1]

ومنذ ذلك التاريخ نبتت في أنحاء الأندلس المختلفة الدويلات الصغيرة أو مايعرف بـ"الطوائف" ، وبدأت الخلافة الأموية في الاحتضار .

واذا نحن فتّشنا عن صدى الفتنة البربرية وانعكاسها في الشعر وجدنا بعض النصوص يعبّر فيها أصحابها عن مشاعرهم نحو البربر[2] . من ذلك قول أحدهم يهجو سليمان المستعين والبربر (سريع) :

((لارحم الله سليمانكم ∴ فانه ضدّ سليمان
ذاك به غلّت شياطينها ∴ وحلّ عذا كلّ شيطان
فباسمه ساحت على أرضنا ∴ لهلك سكان وأوطان)) .

والأبيات تبين امتزاز صورة المستعين والبربر عند الشاعر بسبب ما ارتكبوا من جرائم فظيعة . فالبربريّ والشيطان سيان عنده .

واستغل الشاعر اسم المستعين " سليمان " واستعان بالتراث ووازن بين موقفي سليمان النبيّ عليه السلام ، وسليمان المستعين من الشياطين ، فالأول حبس الشياطين عن الأرض والخلق واستغلهم في الدعوة الى عبادة الله ، والثاني حلّ أغلال البربر "شياطين الأرض" ، فانتشروا في الأرض يفسدون فيها .

ويبدو أن سليمان المستعين استاء من أعمال حلفائه البربر ، فقال أبياتا مستريحا بها الى خواصه ، كانت من أعظم

---

(1) البيان المغرب 3 : 113.

(2) نفح الطيب 1 : 429 .

الأسباب في فساد دولته ، وهي قوله (1) (2) (طويل) :

((حلفت بمن سلى وصام وكبّرا .·. لأغمدها فيمن طغى وتجبّرا

وأبصر دين الله تحيا رسومه .·. فبدّل ما فدلاح منها وغيّرا

فواعجبا من عبشميّ مملّك .·. برغم العوالي والمعالي تبربرا

فلو أن أمري بالخيار نبذتهم .·. وحاكمتهم للسيف حكما محرّرا

فاما حياة تستلذّ بفقدهم .·. واما حمام لا نرى فيه مازرى)) .

ونحا هذه المنحى الخليفة عبد الرحمن المرتضى (408 هـ / 1017م) حين دعا صراحة الى القيام لحرب البربر قومة واحدة تكون نتيجتها اما الانتصار ومحو العار واما الهزيمة والموت . والموت في حربهم أهون عليهم وأرحم بهم من الحياة معهم أذلّة (3) . يقول (سريع) :

((قد بلغ البربر فينا بنا .·. ما أفسد الأحوال والنظما

كالسّهم للطائر لولا الذي .·. فيه من الريش لما أسمى

قوموا بنا في شأنهم قومة .·. تزيل عنا العار والرغما

اما بها نملك ، أو لا نرى .·. ما يرجع الطرف به أعمى)) .

ولا أثر للهجاء في هذه الأبيات ، وانما موضوعها الحضّ والاغراء بأسلوب "الخطب" ، وهي تدلّ على مدى غصص العرب والحكام الأمويين بالبربر .

وأما الهجاء ، فان من أخبث ما عجي به البربر ، قول السّميسر (4)

---

(1) (2) نفح الطيب 1 : 429 .

(3) م . ن ، 1 : 430 .

(4) م . ن ، 3 : 412 .

(بسيط) :

((رأيت آدم في نومي فقلت لـــه : ∴ أبا البرية انّ الناس قد حكموا :
أن البرابر نسل منك ، قال : اذن ∴ حوّاء طالقة ان كان ما زعموا)) (1) .

وفي هذا الهجاء احتقار شديد لأن انكار آدم أن يكون البربر نسلا منه وتبرأ، منهم ينزع عنهم صفة الآدمية . وأهم ما يميزه من الناحية الأسلوبية قيامه على الحوار الذي سمح للشاعر بالتعبير عن معناه بيسر .

والخلاصة أن ما وصلنا من هجاء في البربر قليل جدّا لايتناسب مع كثرة الصراع العربي البربريّ وشدته في مراحل عديدة من تاريخ الوجود العربي الاسلاميّ في الأندلس .

هجاء النصارى .

يرتبط الأدب كغيره من فنون التعبير التي تتخذ من الكلمة مادة لها ارتباطا وثيقا بالثقافة ، فلا يكون الهجاء العربيّ مؤثرا ، شديد الوقع، مصيبا للغرض الا اذا كان المهجوّ عربيا أو مستعربا . أما اذا كان أعجميا ، لايعرف اللسان العربيّ وأسراره وتراث العرب وقيمهم ، وهجاءهم وخصائصه ، فان الحاجز الثقافي - وبالأخصّ اللغة منه - يذهب كثيرا من قيمة الهجاء وحرارته ان لم نقل يفقده وظيفته ، ويصبح جهدا ضائعا لافائدة فيه لمن يريد أن يغنّي للأصم . ولذلك فان هجاء النصارى قليل في الشعر الأندلسي ، ونجده مرتبطا في الأغلب بمدح القادة والحكام المسلمين اثر انتصارهم في حرب النصارى .

---

(1) ورد البيتان في (زاد المسافر ، ص : 120) منسوبين لليكّي ، وصدر البيت الثاني كالآتي : " أن الزّراجين رهط منك ، قال : اذا " .

ولعلّ من أقدم نماذجه مقطوعة ابن عبد ربّه التي أنشدها عقب انتصار الأمير عبد الله على عمر بن حفصون ، مصوّرا فرار هذا الأخير وجنده تحت جناح الليل . يقول (كامل) : (1)

((رام ابن حفصون النجاة فلم يسر ∴ والسيف طالبه فليس بناج
في ليلة أسرت به فكأنما ∴ خيلت نقيضة ليلة المعراج
ما زال يلقح كلّ حرب حامل ∴ فالآن أنتجها بشر نتاج
ركبوا الفرار بعصبة قد جرّبوا ∴ غبّ السرى وعواقب الأدلاج
واذا سألتهم موالي من هم ∴ قالوا : موالي كل ليل داج)).

ويلاحظ استلهام الشاعر للتراث الديني (ليلة الاسراء والمعراج) وتوظيفه لابراز معناه وتوضيحه .

وفي سنة 314 هـ / 927م احتبس المطر فصلّى أهل قرطبة صلاة الاستسقاء مرارا ، فوافى نزول المطر مع قتل سليمان بن عمر ابن حفصون وصلب جثته ، فقالت الشعراء أشعارا كثيرة ، منها قول بعضهم (طويل) : (2)

((سحاب يمور الغيث فيها وديمة ∴ دماء العدى تهمي بها وتفور
غياث غنا واكفان من الحيا ∴ ولدنّ ذا رجس وذاك طهور
وذاك نجيع ليس يقبله الثرى ∴ وذا ناجع يسري به ويغور
تدنّست الدنيا به فتطهرت ∴ بلون لها من رجسه وظهور)) .

فدم سليمان بن حفصون المسفوح رجس دنّس الأرض ولم يطهر ظاهرها وباطنها منه سوى المطر المنهمر .

وكان النصر العزيز الذي حققه المسلمون في معركة الزلاقة

---

(1) البيان المغرب 2 : 132 .

(2) م . ن ، 2 : 192 .

(sagrajas) في سنة 479هـ/1086م ، بقيادة يوسف بن تاشفين والمعتمد ابن عباد حدثا عظيما ، ومناسبة كبيرة قالت الشعراء فيها أشعارا كثيرة ، من ذلك ميمية عبد الجليل بن وهبون (1) (ت 480هـ/1087م) التي مدح بها قائدي المسلمين ، وهجا ألفونس السادس (alphonse 6) ملك ليون (leon) وقشتالة (castille) وغاليسيا (galice) ، وقائد النصارى في الزلاقة . ومطلعها (2) (وافر) :

((أظن خطوبها قالت سلام .·. فلم يعبس لها منك ابتسام)).

وانتقل بعد مدح ابن عباد ويوسف بن تاشفين الى هجاء ألفونس بأسلوب عفيف ، ولكنه شديد الوقع عميق الدلالة . وكان ألفونس قد فر من المعركة لما استعر القتال ، واستخفى في الجبال حتى أجنه الليل فرجع الى طليطلة . فرماه بالعجب والغرور ، ونصحه بالتنازل عن العرش ، لأنه مازال غلاما نزقا ، قليل الحنكة والتجربة يقول (3) :

((فيا أدفنش يا مغرور هلا .·. تجنّبت المشيخة يا غلام (4)

---

(1) أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي . من أعلام الشعراء في عصر ملوك الطوائف. توفي في حدود 480 هـ / 1087 م . راجع القلائد ، ص 278، و الذخيرة 1/2 : 473 ، و الخريدة 2 : 95 ، و بغية الملتمس، ص: 374 (ترجمة رقم 1101)، و المطرب ، ص : 118، و الرايات، ص : 109 ، و نفح الطيب 3، 4 في صفحات متفرقة .

(2) القلائد ، ص : 14 .

(3) م .ن ، ص : 15 .

(4) صدر البيت في الذخيرة 1/2 : 246 : " فأين العجب يا أذفونش هلا " .

ستسألك النساء ولا الرجال (1) .·. فحدّث "ما وراءك يا عصام" (2)))

ثم يواصل هجاءه مستهزئا به عند ذكر رجاله الذين ضربت أعناقهم وحزّت رؤوسهم ،ورفعوا على الأخشاب (3) . يقول :

((وراقبها بأرض طالعات .·. كما تهدي صواعقها الغمام

جياد تستفيد الفتح منها .·. ويفرق في مسارحها النعام (4)

أقمت لدى الوغى سوقا فخذعا .·. مناجزة ،وعون ما تسام

فان شئت اللجين فشم سام .·. وان شئت النضار فشم حام

جلالك فوق ما يعطيك وهم .·. وفعلك فوق ما يسع الكلام

وأنت النعمة البيضاء فاسلم .·. لنا وليطرد فيك التمام

رأيت الضرب تصليبا فصلب .·. فأنت على صليبك لا تنام

أنام رجالك الأشقون؟ كلا .·. وهل يحلو بلا رأس منام

رفعنا هامهم في كل جذع .·. كما ارتفعت على الأيك الحمام

سيعبد بعدها الظلماء لما .·. أتيح له بجانبها اكتتام

ولا ينفكّ كالخفّاش يغضي .·. اذا ما لم يباشره الظلام

نضا أدراعه واجتاب ليلا .·. يود لو أن طول الليل عام

---

(1) صدر البيت في الذخيرة 1/2 : 246 ، والخريدة 2 : 100، والمطرب ص : 121 : " ستسألك النساء ولا رجال " .

(2) انظر المثل : "ماوراءك يا عصام ؟" في مجمع الأمثال للميداني رقم 3759، ولسان العرب مادة "عصم" ، وديوان النابغة الذبياني قافية الميم ،وفيه :

" ألم أقسم عليك لتخبرنّي .·. أمحمول على النعش الهمام

فاني لا ألام على دخول .·. ولكن ماوراءك يا عصام ؟ "

(3) القلائد ، ص : 15 .

(4) لم يرد البيت في القلائد ،والزيادة من الخريدة 2 : 100 .

وليس أوان لأ يم انسلاخ .·. ولكن في ضمائره احتدام (1)

ويقول عبد الجليل بن وهبون في المناسبة نفسها من قصيدة أخرى (2) (بسيط) :

((أتنكر العجم أنّ العرب سادتها .·. وتشهد البيض والخطية السمر

لما تعارض دون الشكر كفرهم .·. عادت بوادر فيهم تلكم البدر

وعبّ عن كلّ دينار لهم بطل .·. كخالص التبر مسبوك ومختبر

فليقبلوها ألوفا من أسود وغى .·. تزكو على السبك لاجبن ولا خور

وليرقبوا من أمير المسلمين ومن .·. مؤيد الدين ليلا ماله سحر

لم يهشموا الثغر اذ عاثت أكفهم .·. لو يعقلون ، ولكن تلكم الثغر

وليس ما غيروا الاّ لأنفسهم .·. كأنما نبهوا اذ نامت الغير)) .

ويقول ابن جمهور في موقعة الزلاقة (3) (بسيط) :

((لم تعرف العجم اذ جاءت مصممة .·. يوم العروبة أن اليوم للعرب)).(4)

ومن القصائد التي يمتزج فيها مدح حكام المسلمين وقادتهم وجيوشهم بهجاء النصارى ، لامية أبي بكر بن بقّي (ت 540هـ/1146م) التي أثبت ابن بسام أبياتا منها .

يقول ابن بقّي مخاطبا أحد القادة المسلمين (5) (بسيط) :

((أقبلت بالجيش ملموما كتائبه .·. كأنك البدر تحت العارض الهطل)) .(6)

---

(1) لم ترد الأبيات في القلائد ، والزيادة من الذخيرة 1/2: 247 .

(2) الذخيرة 1/2 : 255 .

(3) م . ن ، 1/2: 256 .

(4) يوم العروبة : يوم الجمعة ، ووقعت معركة الزلاقة يوم الجمعة .

(5) م . ن ، 2/2 : 620 .

(6) العارض الهطل : السحاب الماطر .

وأما هجاء النصارى فيها فقليل ولكنه مؤثر ومؤلم كوخز الابر . وقد أحسن ابن بسّام التعبير عن جبن النصارى وادبارهم عن المسلمين وفرارهم منهم . يقول : (1)

((يا معشر الروم قد شالت نعامتكم .·. اما من الحين أو من شدة الفشل (2)

لم يكسكم من ثياب الخزي أسبغها .·. الا اتقاؤكم للصدر بالكفل

يا ويلكم معشرا بل ويل أمكم .·. فانها ولدت للثكل والهبل)).

وكان هجاء النصارى يتخلل في بعض الأحيان القصائد التي يصف فيها القادة لقاءاتهم معهم . من ذلك قول القائد الشاعر أبي بكر بن وزير ، بعد انتصاره هو وأصحابه على جماعة من الفرنج في لقاء صعب شديد (طويل) : (3)

((ولما تلاقينا جرى الطعن بيننا .·. فمنا ومنهم طائحون عديد

وجال غرار الهند فينا وفيهم .·. فمنا ومنهم قائم وحصيد

فلا صدر الا فيه صدر مشقف .·. وحول الوريد للحسام ورود

صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا .·. كلانا على حر الجلاد جليد

ولكن شددنا شدة فتبلدوا .·. ومن يتبلّد لا يزال يحيد

فولوا وللسمر الطوال بهامهم .·. ركوع وللبيض الرقاق سجود)).

والخلاصة أن شعراء الأندلس لم يهجوا النصارى بقصائد مستقلة وانما كان ذلك يتم في ثنايا قصائد المدح التي ينشدونها عقب انتصارات حكامهم وقادتهم العسكرية على النصارى ، أو يتخلل بعض القصائد الحربية التي يصور فيها القادة الشعراء لقاءاتهم

---

(1) الذخيرة 2/2 : 621 .

(2) شالت نعامة القوم : أخلوا منازلهم وتفرقوا ، أو تفرقت كلمتهم وذهب عزمهم .

(3) نفح الطيب 4 : 381 ، 465 ، والحلة السيراء 2 : 273 .

معهـــا .

والهجاء في الحالة الأولى مدح ثان غير مباشر للحاكم أو القائد وفي الثانية تأكيد للفخر بالذات والمجموعة .

وقد دارت معاني الهجاء على الجبن والفرار من ميدان المعركة وغيرها من المعاني التي تنقص من روح النصارى القتالية .

هجاء المرابطين .

أبرز من هجا المرابطين من الأندلسيين - فيما أعلم - اثنان : الأبيض واليكّي . والراجح أنهما فعلا ذلك بدافع الحميّة والتعصب لعدوتهما الأندلس .

أما الأبيض فقد لهج بهجاء الزبير بن عمر أحد أمرائهم على قرطبة وأفحش عليه ، ودفع حياته ثمنا لثباته على المبدأ، حتى عدّه أحد الباحثين بطلا من أبطال الأندلس وشهدائها (1) . ولم يذكر المؤلفون الذين ترجموا للأبيض وأثبتوا شيئا من شعره في مصنفاتهم السبب اليقين الذي دعاه الى هجاء أمير قرطبة وعليه يمكن أن نتساءل . هل كان ذلك الهجاء بدافع التكسب ؟ أو أنه بدافع الحمية والتعصب لأهل قرطبة بسبب عبث الأمير واستهتاره ؟ أو أنه تعبير عن سخط الأندلسيين عامة ، وأهل قرطبة خاصة على سلطان المرابطين ، ممثلا في شخص أميرهم على قرطبة ؟

لنحاول أن نتلمس الاجابة عن هذه الأسئلة من هجائه . فمما قال فيه (2) (بسيط) :

((يا سائلي عن زبير أين مسكنه ؟ .·. عيهات تطلب شمسا مالها وضح

---

(1) محمد رضا الشبيبي ، أدب المغاربة والأندلسيين (ط2، بيروت : دار اقرأ، 1404هـ/ 1984م) ، ص 90 .

(2) الخريدة 2 : 259 .

لا تطلبنّ زبيرا في مساكنه ∴ واسأل (غرابة)[1] عنه حين يصطبح

نشوان يكرع في فرج وفي قدح ∴ والملك تحت لبان العود مطّرح (2)

يا ضيعة الجيش لم يبقى لهم سبد ∴ أودى السماع ببيت المال والقدح (3)

والهندية (؟) في حلي وفي حلل ∴ بها يتم المنى واللهو والفرح)).

يرمي الأبيض الأمير في هذه الأبيات بالشغف بالنساء والخمر والغناء وبأنّ ولعه بهذا الثالوث جعله يمد يده الى بيت المال حتى أتلف ما فيه . وكان من الواجب عليه أن ينفق المال في تسديد رواتب الجند واعداد القوة .

وقد أحسن الشاعر تصوير شغف الأمير بالخمر والنساء وتهتكه وذلك باستعمال الفعل "يكرع" الذي يستعمل في الغالب للدلالة على شرب الماء بعد ظمأ شديد .

ويحمله مسئولية ما نزل بالأندلس عامة من ويلات وانحطاط الأخلاق ، وينعى عليه تقاعسه عن الجهاد واقباله على طلب لذّاته في قوله (بسيط)[4] :

((أما زبير فقد أودى بأندلس ∴ ما كان من حرمة فيها وصديق

وصدّه عن قراع الدارعين بها ∴ قرع القواقيز (؟) أفواه الأباريق)).

---

(1) في الخريدة 2 : 160 (طبعة مصر) : عدانة . وعلّق المحققان على الكلمة في الهامش قائلين : "ولعله اسم علم لصاحبه حانة" .

(2) كرع في الماء أو الاناء : مدّ عنقه وتناول الماء بفيه من موضعه . اللبان : الصدر .

(3) السبد : القليل من الشعر . ويقال : ماله سبد ولا لبد ، أي ماله قليل ولا كثير ، أو : ماله ذو وبر ولا صوف متلبد ، يكنى بهما عن الابل والغنم . (ج) أسباد .

(4) زاد المسافر ، ص : 112 .

وأفحش الأبيض على الأمير في بعض هجائه ، من ذلك قوله (كامل)[1] :

((قالوا: الزبير مبرّص ، فأجبتهم ∴ لاتنكروه ، فداؤه من عنده

رضعت مباعره ... فأكثرت ∴ حتى بدا رشح ... بجلده)).

وذكر المقري أن الزبير بن عمر قتل الأبيض لما هجاه بمثل قوله (كامل)[2] :

((عكف الزبير على الضلالة جاهدا ∴ ووزيره المشهور كلب النار

مازال يأخذ سجدة في سجدة ∴ بين الكؤوس ونغمة الأوتار

فاذا اعتراه السهو سبّح خلفه ∴ صوت القيان ورنّة المزمار)).

وفي هذه الأبيات تهكم شديد نابع من استعمال الشاعر ألفاظا أو مصطلحات مرتبطة بالعبادة وبالصلاة خاصة ، كالاعتكاف والسجود ، والسهو ، والتسبيح ، للدلالة على مجون الأمير وتهتكه بحيث أبرزه في صورة امام ، ولكنه ليس امام مسجد وانما امام ملهى فيه الغناء والخمر والفجور .

وضرب الأبيض أروع الأمثلة في رباطة الجأش والثبات على المبدأ في أحرج المواقف ، روي أنه قبض عليه ، وأوقف بين يدي الأمير فسأله : ((ما دعاك الى هذا ؟ فقال : اني لم أر أحقّ بالهجو منك ، ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت نفسك انصافا ، ولم تكلها الى أحد))[3] ، فلما سمع الأمير ذلك استشاط عليه وأمر بقتله .

يستبعد أن يكون هجاء الأبيض للزبير بن عمر صادرا عن عداء شخصي بسبب الحاجة والحرمان ، لأنه لاتوجد في المقطوعات الهجائية

---

(1) المغرب 2 : 128 ، وزاد المسافر ، ص : 112.

(2) (3) نفح الطيب 3 : 489 - 490 .

السابقة أية اشارة الى بخل الأمير أوعدم اكتراثه بالشعر وتقديره للشعراء ، وانما تنقل صورا من بعض تصرفاته القبيحة كتبذير مال المسلمين في طلب لذاته ، واهمال مصالح الرعية وغير ذلك .

واما أن يكون مجاؤه تغييرا عن نقمة الأندلسيين عامة من سلطان المرابطين ، فهو احتمال وارد مقبول ، وله ما يبرره تاريخيا لأن المرابطين كانو يمرون آنذاك بمرحلة الانحدار ، ان لم تقل يعانون الاحتضار ، فاضطربت الأحوال في أيامهم الأخيرة . قال عبد الواحد المراكشي : ((فظهرت في البلاد مناكير كثيرة ، واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت اليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من آكابر لمتونة مشتملة على كل مفسد وشرير ، وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ...)) (1) .

وأما أرجح الاحتمالات وأقواها - في نظري - فهو أن مجاء الأبيض للزبير بن عمر كان بدافع العصبية لأهل قرطبة ، لأن سلوكات الأمير القبيحة كانت تستفزّ مشاعرهم وتضر بمصالحهم ، فشنئوه لذلك وذكروه بسوء . ولعل في اجابة الأبيض على سؤاله قبل أن يأمر بقتله ويسكت صوته الى الأبد دليلا آخر يسند هذا الاحتمال ويرجّحه .

وأما رسيله اليكّي فانه مدح المرابطين حتى بلغ غاية رضاهم بقوله (كامل) (2) :

((قوم لهم شرف العلا في حمير .. واذا انتموا منهاجة فهم هم

---

(1) المعجب ، ص : 175 . نقلا عن : ظهر الاسلام 3 : 38 - 39 .

(2) المغرب 2 : 268 .

لما حووا احراز كلّ فضيلـــــــة ∴ غلب الحياء عليهم فتلثّـــموا)).

ثم غير موقفه منهم لأمر ما وهجاهم . ويختلف هجاء الأبيـــض للمرابطين عن هجاء اليكّي لهم في الأسلوب ، فبينما جنح الأول الى التخصيص وقصر هجاءه على هجاء أمير قرطبة ، جنح الثاني الى التعميم ، ومن ذلك قوله (كامل) (1) :

((في كل من ربط اللثام دناءة ∴ ولو أنه يعلو على كيـــوان (2)

ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا ∴ من بطن زانية لظهر حصان (3)

المنتمون لحمير لكنهـــــم ∴ وضعوا القرون مواضع التيجان

لاتطلبنّ مرابطا ذا عفـــــة ∴ واطلب شعاع النار في الغدران)).

وهكذا أصبح اللثام رمزا للمذامّ بعد أن كان رمزا للمحامد، وأصبح الملثّم - حقيرا كان أم عظيما - لايخلو من مغمز ، والملثمـــون زناة دون استثناء ، وشرخلف لخير سلف . وقد أبدع اليكي في التعبير عن الاستحالة الشديدة حين جعل المرابط والعفـــة لايلتقيان وان التقت الأضداد كالتقاء الماء والنار .

ولما اجتمع عمر بن ينستان الملثّم باليكي عتب عليه تغيير موقفه بقوله : لقد مدحتنا فبلغت غاية رضانا ثم بلغنا أنـــك هجوتنا ، وذو الوجهين لايكون عند الله وجيها . فقال اليكي : انـــي لم أقل ذلك ، ولكني أقول (كامل) (4) :

((ان المرابط لايكون مرابطا ∴ حتى تراه اذا تراه جبانـــا

---

(1) المغرب 2 : 267 - 268 .

(2) كيوان : اسم زحل بالفارسية .

(3) الحصان : المرأة العفيفة .

(4) المغرب 2 : 266 .

تحلو الرعية من مخافة جـ ـــور ، ∴ لجلاء اذ يلتقي الأفـــرانا

ان تظلمونا ننتصف لنفوسنـــا ∴ تجني الرجال فنأخذ النسوانا)).

فالحاكم المرابطي جبان وظالم . جبان أمام الأعداء (الأباعد) وظالم جبار في الرعية (الأقارب) . وفي البيت الأخير اشارتان مهمتان : تكمن الأولى في عبارتي "ان تظلمونا" و " ننتصف لنفوسنا " أي في الشرط وجوابه والتي تدل على انقسام مسلمـــي الأندلس في ذلك الوقت الى فئتين غير منسجمتين : فئة قليلة حاكمة يمثلها المرابطون ، وفئة كثيرة محكومة يمثلها الأندلسيون ، وعلى تغير نظرة أهل الأندلس الى المرابطين من الاعجاب والاكبار الى الكره والاحتقار باعتبارهم دخلاء بسطوا سلطانهم عليهم بالقوة .

وتكمن الاشارة الثانية في جواب الشرط " ننتصف لنفوسنا " والتي تدل على استعداد الأندلسيين وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهـــم ورفع الضيم عنهم ، بل والتنكيل بالأعداء واذلالهم بسبي نسائهم فالرغبة في المقاومة والثورة تسري في نفوسهم .

عجـاء اليهـــود .

تغلغل كثير من اليهود في اسبانيا وجنوب غالة (lagaule) واستقروا بهما منذ ازمنة بعيدة ، واشتغلوا بالتجارة وببعـــض الأعمال اليدوية الأخرى (1) .

وتعرضوا في العهد القوطي الى ألوان مختلفة من العســـف واضطهاد ، ولاقوا أشد البلاء ، وبالأخص بعد تحول القوط الغربيين (les wisigoths) الى الكاثوليكية سنة 586م (أو 587م) على عهد الملك ريكارد الأول (586-601م) (reccarde 1) .

---

(1) E . altamira y crevea , histoire d'espagne (4 ed , librairie Armand colin , 1965) , P . 37 -38 .

وقد تولى اصدار القرارات المناهضة لليهود بعض الملوك والمجامع الطليطلية (les conciles de tolede) التي كان تأثير رجال الدين فيها قويا ، فاختار كثير من اليهود الهجرة فرارا بدينهم ، كما تقتضي بذلك بعض القرارات ، وتظاهر من بقي منهم باعتناق المسيحية (1) .

وقد أثمر ذلك الاضطهاد الديني حقدا وكراهية في نفوس اليهود فراحوا يتآمرون ويسعون للقضاء على الدولة القوطية . وكانت عقوبتهم تشتد وعذابهم يتضاعف كلما اكتشفت دسيسة من دسائسهم

ولما فتح المسلمون اسبانيا وقضوا على الدولة القوطية ، تنفس اليهود الصعداء لأنهم وجدوا في المسلمين المنقذ مما كانوا يعانونه من الاضطهاد الديني والمعاملة السيئة .

ويذكر بعض المؤرخين أن الجيش الذي سيّره طارق بن زياد لفتح البيرة قد ضم يهودها الى قصبتها بعد فتحها ، ((وعاهدهم ذلك سنة متبعة ، متى وجدوا بمدينة فتحوها يهودا ، يضمونهم الى قصبتها ، ويجعلون معهم طائفة من المسلمين يسدونها)) (2) .

وساعد اليهود المسلمين في الفتح ، بحيث تولى بعضهم حراسة المدن المفتوحة مع المسلمين ، وقام بعضهم بدور الأدلاء للجيوش ، بحكم معرفتهم طبيعة البلاد ومسالكها ، ونقاط ضعف القوط (3) .

ولما توقفت أعمال الفتح واستتبت الأمور انتشر اليهود في أرجاء

---

(1) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص : 521 - 523 .

(2) الاحاطة 1 : 101 ، وأخبار مجموعة ، ص 22 - 25 .

(3) ع . س ، ص : 523 .

الأندلس كلها تقريبا ، وأضحوا يكونون أحد عناصر السكان البارزة وقد كفل لهم المسلمون اقامة شعائرهم الدينية بحرية ، مقابل دفع الجزية كما تقتضي بذلك الشريعة الاسلامية ، وعدّوهم من أهل الذمة .

وكان من ثمار مالقيه اليهود في ظل الحكم العربي الاسلامي من تسامح دينيّ ومعاملة حسنة اقبال عدد كثير منهم على تعلم اللغة العربية وعلومها ، بل ومنهم من ارتد عن دينه واعتنق الاسلام عن قناعة ذاتية ودون اكراه .

وبعد مدة من الأخذ والتحصيل والنهل من ينابيع العلوم والمعارف العربية الاسلامية ، نبغ كثير من اليهود في ميادين كثيرة مختلفة كالأدب والطب والفلسفة والموسيقى وغيرها . فمن أعلامهم في الشعر ابراهيم بن سهل الاشبيلي (ت 649 هـ / 1251 م) ، وفي الكتابة أبو الفضل بن حسداى واسماعيل بن النغرالة وابنه يوسف ، وفي الطب حسداي بن شبروط طبيب الخليفة عبدالرحمن الناصر ، وفي الفلسفة موسى بن ميمون (ت 607 هـ / 1204 م) ، وفي الموسيقى والغناء منصور مغني الحكم بن هشام واسحاق بن شمعون وغيرهم كثير .

وبلغ اليهود في عصر ملوك الطوائف من العزّ والجاه والنفوذ السياسي مالم يبلغوه في أيّ عصر آخر ، بحيث ترقّت حالهم حتى بلغ بعضهم منصب الوزارة ، وشاركوا ملوك المسلمين في تصريف شئون دولهم ، كالأديب أبي الفضل بن سحداي في دولة بني هود في سرقسطة ، واسماعيل بن النغرالة وابنه يوسف في دولة بني زيري في غرناطة .

والحق أن اليهود في عصر ملوك الطوائف شهدوا مرحلتين متباينتين مرحلة صعود واشراق ، ومرحلة هبوط وأفول . ففي المرحلة الأولى اتسع نفوذهم وأسندت لهم الوظائف فكسبوا الأموال ،ونالوا الجاه ولكنهم بطروا وكفروا النعمة ، واستخفوا بالمسلمين وتطاولوا عليهم ، وطعنوا في دينهم جهرا ، وتجرأوا على بعض ملوكهم :

ومن الآثار الشعرية التي تصور هذه المرحلة من تاريخ اليهود قول ابن الجد (واقر) (1) :

((تحكمت اليهود على الفروج ∴ وتاهت بالبغال وبالسروج

وقامت دولة الأنذال فينا ∴ وصار الحكم فينا للعلوج

فقل للأعور الدجال : هذا ∴ زمانك ان عزمت على الخروج)).

وتصور الأبيات كذلك - كما هو واضح - ما أصاب المسلمين من ضعف وانحطاط سياسي .

وقد عكف بعض الشعراء المسلمين على مدح اليهود بسبب ما بلغوه من منزلة رفيعة ، ولهم تأثير واسع في الحياة ،كالأديب عبد العزيز بن خيرة القرطبي المشهور بالمنفتل . ومن مدائحه في في اسماعيل بن النغرالة رائيته التي مطلعها (طويل) (2) :

((أحاجيكم هل يموا الضال والسدرا ∴ أبى قلبي المعمود أن يسكن الصدرا)).

ونال اليهود في المرحلة الثانية جزاء ما اكتسبوا ، فتعددت نكباتهم ، وذاقوا خلال ذلك الذل والهوان .

سعة نفوذ اليهود في مملكة بني زيري ونكبتهم .

أعقب سقوط الدولة العامرية في سنة 399 هـ/ 1008م -كما رأينا -

---

(1) الذخيرة 2/2 : 562 .

(2) م . ن ، 1 / 2 : 763 .

فتنة شنعاء بين أهل قرطبة والبربر بسبب عجز محمد المهدي وعبثه وتناحره مع سليمان المستعين على الخلافة ، انتهت بسقوط الدولة الأموية وظهور ملوك الطوائف .

وكانت غرناطة وضواحيها من نصيب زاوي بن زيري ، شيخ بني زيري الصنهاجيين وزعيمهم . وقد تميزت عن عواصم الطوائف الأخرى بكثرة اليهود ، حتى عرفت بـ" غرناطة اليهود " .

والحق أن اليهود هم العنصر الوحيد من بين عناصر السكان الأخرى الذي لم يكن له نصيب من ارث الدولة الأموية الآفلة ولذلك سعى الكاتب يوسف بن اسماعيل بن النغرالة وزير باديس ابن حبوس الى تأسيس مملكة يهودية ، الا أن أمره اكتشف في اللحظة الأخيرة وأحبط مسعاه .

آلت زعامة بني زيري الصنهاجيين بعد عودة شيخهم زاوي الى المغرب في سنة 421هـ / 1030م ، الى ابن أخيه حبوس بن ماكسن ولما احتاج حبوس الى وزير يتقن اللغة العربية ، لم يجد في قومه من تؤهله مواهبه وامكاناته لذلك ، فعين اسماعيل بن النغرالة اليهودي لاتقانه اللسان العربي كاتبا له ووزيرا ، وأعرض عن العرب لعدم ثقته فيهم واطمئنانه الى جانبهم .

ولما توفي حبوس في سنة 429هـ / 1038م ، خلفه ابنه باديس وأبقى اسماعيل بن النغرالة في منصبه حتى توفي في سنة 448هـ/1045م فعين ابنه يوسف مكانه .

وراود يوسف حلم كبير ، طمح الى تأسيس دولة يهودية تجمع شمل اليهود وشتاتهم ، ويكون هو أول ملوكها . ولم لا ، وكل شيء ممكن جائز في ذلك العصر المتقلب ، المتميز بالتناحر والمكائد

والمؤامرات ، فما عليه سوى استغلال ذكائه وحبك خطته .

وقام يوسف ببعض الاجراءات للتسلط على باديس والاستبداد بالحكم دونه ، فقرب أهل نحلته وأسند اليهم الأعمال ، وأحسن الى نساء القصر وفتيانه ، وجعلهم عيونا له على باديس يرصدون حركاته وسكناته كلها ويوافونه بها كاملة ، ((فكان لايخفى عليه شيء من أمور باديس من كلّ ما يجري في منزله من شراب ولهو وجدّ وهزل الا ويعلمه ويعلم اليهود به ، فلايكاد باديس يتنفّس الا ويعلم اليهوديّ ذلك))(1).

ونجح يوسف في سنة 456هـ/ 1064م في التخلص من بلّكين بن باديس ووليّ عهده ، وذلك بسمه وايهام والده بأن جواري بلكين وفتيانه هم الذين دبّروا جريمة قتله وارتكبوها .

وحزن باديس حزنا شديدا على فقد ابنه ،فأقبل على الخمر يعبّ من دنانها ليتسلى وينسى . واغتنم وزيره محنته تلك وشجعه على الاستمرار في ذهوله، وعمل على حجره عن الناس حتى ارتابوا في أمره .

وعلى الرغم من نجاح تلك الخطوات كلها فانها لم تكن كافية لأن الانقلاب يحتاج الى قوة ، الى جيش ينفذ المؤامرة . ووجد يوسف ضالّته في المعتصم بن صمادح صاحب المرية (443 - 484 هـ / 1052 - 1091م) فاتفق معه أن يدخله غرناطة ويأخذ عو المرية (2).

وكانت قصيدة الفقيه الزاهد أبي اسحاق الالبيري الناهضة لليهود تتناقل في تلك الأثناء على الألسن وتشحذ العزائم .

---

(1) البيان المغرب 3 : 265 .

(2) م . ن ، 3 : 266 .

والحق - كما قال المستشرق الاسباني اميليو غرسيه غومث (e.garcia gomez) (1) - "((أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولانعرف الا في القليل النادر أن أبياتا من الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم ، فكهربت العزائم ودفعت بها في سرعة خاطفة الى اشعال الحرائق، وشحذت السيوف للقتل ،كالدور الذي لعبته هذه القصيدة)) .

تتكون القصيدة من سبعة وأربعين بيتا موزعة على قسمين رئيسين : يتألف القسم الأول من ثلاثة عشر بيتا توجّه بها الشاعر الى الصنهاجيين مبيّنا لهم "زلة" سيدهم باديس ، وما ترتّب عنها من نتائج ايجابية لليهود سلبية للمسلمين ،وكيف لايقفو فيهم آثار الأولين وينزلهم المنزلة التي تجدر بهم حتى لايتطاولوا على المسلمين . يقول (2) (متقارب) :

((ألا قل لصنهاجة أجمعين ∴ بدور الندي وأسد العرين (3)
لقد زلّ سيدكم زلّة ∴ تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ∴ ولو شاء كان من المسلمين
فعزّ اليهود به وانتخوا ∴ وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى ∴ فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلم فاضل قانت ∴ لأرذل قرد من المشركين (4)

---

(1) مع شعراء الأندلس والمتنبي . ترجمة الطاهر أحمد مكي (ط3، القاهرة :دار المعارف 1403هـ/1983م) ،ص : 97 .

(2) ديوان أبي اسحاق الالبيري . تحقيق محمد رضوان الداية (ط1 ، بيروت :مؤسسة الرسالة ، 1396هـ/ 1976م) ، ص: 96-100 .

(3) النّديّ: النادي . العرين :مأوى الأسد والضبع والذئب والحية .(ج)عرائن .

(4) قنت فلان لفلان : ذلّ وانقاد .

وما كان ذلك من سعيهم ∴ ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالألى ∴ من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستاهلون ∴ وردّهم أسفل السافلين
وطافوا لدينا بأخراجهم ∴ عليهم صغار وذل وهون
وقموا المزابل عن خرقة ∴ ملوّنة لدثار الدفين
ولم يستخفوا بأعلامنا ∴ ولم يستطيلوا على الصالحين
ولاجالسوهم وهم عجنة ∴ ولا واكبوهم مع الأقربين)).

ويشغل القسم الثاني بقية القصيدة . ويمكن تقسيمه الى ثلاثة مقاطع فرعية : يتكون الأول من اثني عشر بيتا (14 - 25)، منها ثلاثة في المدح (14، 24، 25) والباقي عتاب رقيق لباديس **لأنه يحب اليهود ، واستنامه الى فاسق منهم وقارنه وانفرد** بتقريبهم ،وهم ليسوا أهلا للمحبة والتكريم ،وفسادهم في الأرض وفسقهم يشهد على ذلك . يقول :

((أباديس ،أنت امرؤ حاذق ∴ تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم ∴ وفي الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحبّ فراخ الزنا ∴ وهم بغّضوك الى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى ∴ اذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت الى فاسق ∴ وقارنته وهو بيس القرين (1)
وقد أنزل الله في وحيه ∴ يحذر من صحبة (2) الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادما ∴ وذرهم الى لعنة اللاعنين
فقد ضجّت الأرض من فسقهم ∴ وكادت تميد بنا أجمعين
تأمل بعينيك أقطارها ∴ تجد لهم كلابا بها خاسئين

---

(1) استنام اليه : سكن اليه ،سكون النائم .
(2) في الديوان : عن .

وكيف انفردت بتقريبهم ∴ وهم في البلاد من المبعدين

على أنك الملك المرتضى ∴ سليل الملوك من الماجدين

وأنّ لك السبق بين الوري ∴ كما أنت من جلة السابقين)) .

ويتكون المقطع الثاني من ثلاثة عشر بيتا (26 - 38) ، يقدم فيه الشاعر لباديس والصنهاجيين تقريرا يكاد يكون شاملا عن تسلط اليهود كالأخطبوط على غرناطة ، بناء على معايشة ومعاينة ميدانية و"ليس من سمع كمن رأى " . بدأه بذكر حال اليهود عامة ، فأشار الى سلوكهم ووظائفهم ولباسهم ومأكلهم ، وختمه بذكر حال الوزير اليهودي ولكنه لم يسمه بل نعته بـ"القرد" احتقارا له ،فأشار الى تأنقه في بناء دار، ، وتزاحم الناس على بابه لأنه أصبح قلب المملكة النابض ورأسها المفكر ،واستطالته على المسلمين و" ضحكه " منهم واستخفافه بدينهم ، وشرائه الفاحش الذي لايقل عن شراء باديس . يقول :

((واني احتللت بغرناطة ∴ فكنت أراهم بها عابثين

وقد قسموها وأعمالها ∴ فمنهم بكل مكان لعين

وهم يقبضون جباياتها ∴ وهم يخضعون وهم يقضمون (1)

وهم يلبسون رفيع الكسا ∴ وأنتم لأوضعها لابسون

وهم أمناكم على سركم ∴ وكيف يكون خؤون أمين؟

ويأكل غيرهم درهما ∴ فيفصى ،ويدنون اذ يأكلون

وقد ناعضوكم الى ربكم ∴ فما تمنعون ولا تنكرون

وقد لابسوكم بأسحارهم ∴ فما تسمعون ولا تبصرون

وهم يذبحون بأسواقها ∴ وأنتم لأطرافها آكلون

---

(1) خضمه : قطمه وأكله بجميع فمه ،أوبأقصى أضراسه . قضم الشيء : كسره بأطراف أسنانه .

ورخّم قرد عم داره ∴ وأجرى اليها نمير العيون

فصارت حوائجنا عنده ∴ ونحن على بابه قائمون

ويضحك منا ومن ديننا ∴ فانا الى ربّنا راجعون

ولو قلت في ماله انه ∴ كمالك كنت من الصادقين)) .

ويتألف المقطع الثالث من تسعة أبيات (39 - 47) ويحضّ فيه الشاعر باديس على قتل وزيره اليهودي ، والضغط على رهطه ومصادرة أموالهم ، مقدما الأسباب والمبررات التي تجعل من الفتك به واجبا ، وليس غدرا ، ويدعوه في الأخير الى الحد من تسلطهم وألا يغضّ الطرف عن اساءاتهم ، لأنه مسئول عن أعمالهم . يقول :

((فبادر الى ذبحه قربة ∴ وضحّ به فهو كبش سمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه ∴ فقد كنزوا كل علق ثمين

وفرق عداعم وخذ مالهم ∴ فأنت أحق بما يجمعون

ولا تحسبن قتلهم غدرة ∴ بل الغدر في تركهم يعبثون

وقد نكثوا عهدنا عندهم ∴ فكيف تلام على الناكثين

وكيف تكون لهم ذمة ∴ ونحن خمول وهم ظاهرون

ونحن الأذلة من بينهم ∴ كأنا أسأنا وهم محسنون

فلا ترض فينا بأفعالهم ∴ فأنت رهين بما يفعلون

وراقب الله في حزبه ∴ فحزب الاله هم الغالبون)) .

عرفنا قبل قليل أن يوسف وجد عند المعتصم بن سمادح موافقة وقبولا لتنفيذ مؤامرته الدنيئة ، وقد تحرك الجيش الصمادحيّ بالفعل قاصدا غرناطة حتى بلغ مشارفها ، ثم وقف ينتظر قدوم الليل ليتسلل تحت ستاره الى المدينة ويباغت المنهاجيين وهم على غير استعداد . ولكن رجالا منهم اكتشفوا المؤامرة قبل

زوال النهار ((فأعلنوا بالصياح وثاروا الى السلاح وأتى الصريخ بقية الجند وعامة أهل البلد ونادى مناديهم : غدر اليهودي وخان، وطاح المظفر - يعنون باديس - وخان))[1] ، واندفعوا كالسيل الجارف الى دار يوسف فأخرجوه ،ولم يفنه تنكره شيئا ، وقتلوه ، ورجعوا بعد ذلك الى اليهود فقتلوا منهم الآلاف ونهبوا دورهم ،واجتاحت أنغام نونية أبي اسحاق الالبيري ((حية ، متوهجة أعماق المدينة مع زفير النيران وحشرجة الموتى))[2] .

ان الدافع على انشاء هذه القصيدة الفذة هو "الاباء الاسلامي" وهي صرخة مدوية من فقيه زاهد في ظرف حالك ، متقلب ، شهد انطفاء المسلمين بعد توهجهم ، وهوانهم بعد بعد عزهم وغرضها الأساسي اغراء باديس بوزيره اليهودي وقومه ، الى جانب بعض المدح والهجاء .

وقد أجاد أبو اسحاق الالبيري في جوانب متعددة منها ،من ذلك اختياره لأبسط الألفاظ وأسهلها مراعاة للمقام ، لأن فهم البربر للعربية كان محدودا ، ومن ذلك ايضا وضوح أفكارها وقرب معانيها وكان كل من المدح والهجاء على قلتهما - عميق الدلالة ، فأما الصنهاجيون فكرماء شجعان ، وملكهم باديس ذكيّ فطن، من أرومة كريمة راسخة القدم في الملك والسيادة ، وأما اليهود فـ" أرذل القرود " و" عجنة " و " فراخ الزنا " و" كلاب خاسئون" "وخونة"، والوزير يوسف "فاسق " و" بئس القرين " و"فرد " .

ومن الجوانب الجيدة للقصيدة كذلك دقة منهجيتها في الاتجاهين

---

(1) الذخيرة 1/2 : 769 .

(2) مع شعر الأندلس والمتنبي ، ص : 98 .

الأفقي والعمودي ، فالشاعر توجه بخطابه الى الصنهاجيين أولا لأنه يعرف أنهم أول من يتلقى قصيدته ،وأنهم قادرون بحكم كثرتهم على الفعل والتغيير ، أو لتهيئتهم نفسيا وماديا للحدث اذ اتخذ ملكهم اجراء مناهضا لليهود ، ووضح لهم زلة سيدهم باديس الفادحة وما ترتب عليها من نتائج ايجابية لليهود وسلبية للصنهاجيين والمسلمين عامة .

ثم توجه بالحديث بعد ذلك الى ملكهم باديس ، وتعجب كثيرا من تقديمه اليهود على الرغم من ذكائه الحاد وحزمه الشديد وعلمه بأنهم ممقوتون مبعدون في كل أصقاع الأرض بسبب فسادهم وفسقهم . واستعمل كثيرا اسم الاستفهام " كيف " الذي أفاد في الأغلب معنى التعجب ، وأكثر في تقريره " من الجمل الحالية ذات المعاني المتضادة ، ايجابية لليهود وسلبية للصنهاجيين خاصة والمسلمين عامة .

ومن خصائص القصيدة كذلك واقعيتها ومجيئها في شكل "رسالة مفتوحة " ، وقد حققت بالفعل غرضها ، فكانت بمثابة عود الثقاب الذي أشعل لهيب الثورة ،ثورة الصنهاجيين على اليهود في غرناطة .

وقد انكفأ اليهود بعد هذه النكبة ، فلم نكد نسمع بهم أو نعرف لهم دورا ما في الأندلس باستثناء انتفاضتهم في اشبيلية حوالي 462هـ / 1070م .

ومن عجائبهم في عصر مملكة بني الأحمر بغرناطة قول لسان الدين بن الخطيب في طبعهم الذميم وأحد مطاعرهم (طويل) (1):

---

(1) ديوان السيب والجهام والماضي والكهام . تحقيق محمد الشريف فاعر ودراسته (ط1، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1973م)،ص:652 .

خاتمة الفصل

عالجت في هذا الفصل " الهجاء السياسي " في شعر الاندلس ، بربطه بالظروف و الاسباب الداعيه اليه .

وقد دار هذا الاتّجاه من الهجاء على محورين كبيرين : الحكّام و عناصر السّكان الاصليه و الطارئه .

أمّا هجاء " الحكّام " على اختلاف ألقابهم فقد ارتبط ارتباطا وثيقا بضعف الحكم و الانحطاط السياسي ، وينقسم قسمين : قسم جنح الى التخصيص و قسم جنح الى التعميم .

فأمّا القسم الاول فظهر في آخر عصر الامارة الأمويه و في عهد الدوله العامريه و الفتنه البربريه . هجا فيه الشعراء حكّاما معيّنين ، بعد أن أخفوا أسماءهم خوفا من سيوف المهجوين و انتقامهم ، مركّزين في أهاجيهم على قبح سيره الحكّام واخفاقهم في الاضطلاع بمسؤلياتهم لعدم كفاءتهم و أهليتهم لمناصبهم . وتميّز هذا القسم في الاغلب بالافحاش و " بالمباشره " و بساطه التعبير و القصر و ضيق الخيال .

و أمّا القسم الثاني فاهتمّ بالأخصّ في عصر ملوك الطوائف ، وفيه أنحى الشعراء بالذّمّ على الملوك ، ناعين عليهم شغفهم باللهو و المجون و التأنّق في البناء وتكليف العناصر الأجنبيه ببعض الأعمال و الولائف و الجري وراء الألقاب الضّخمه . و بالجمله نعوا عليهم ركونهم الى حياه الدّعه و تفريطهم في واجباتهم نحو الرّعيّه و الدّين . ويختلف هذا القسم عن الأول في كون أصحابه معروفين في الأغلب ، و في طول نصوصه و جوده لغته و أسلوبه .

و أمّا هجاء عناصر السكّان الأخرى من مولّدين و بربر و نصارى و مرابطين ويهود فقط ارتبط على العموم بصراع العرب السياسي و العسكري معها . فصراع العرب والمولّدين من العجم وازاه صراع أدبي بين شعراء العرب و الحبلّي شاعر المولّدين . واتّسم ذلك التهاجي بقوه الألفاظ و حزالتها ، وبمجيئه في بعض الأحيان على شكل " النقائض "

و بتنوّع أغراض القصيده الواحده بين غزل و فخر و مدح و هجاء. وفيه أثبت شعراء العرب للعرب و قادتهم كلّ الفضائل و للمولّدين كلّ الرذائل كصمه النسب واللؤم و الجبن و الغدر.

وحين اشتدّ الصراع بين أهل قرطبه و البربر في عهد "الفتنه البربريه" بسبب تناصر أفراد الأسره الأمويه و تنافسهم على الخلافه، انبرى بعض الشعراء للبربر بالهجاء، مصرّحين حينا و معرّضين حينا آخر، بسبب ما نال قرطبه و أهلها على أيديهم من قتل و تخريب و دمار، وأبرزوا البربر في أبشع الصّور و أقبحها.

وهجا بعض شعراء الأندلس النّصارى وقادتهم، ولكن هجاءهم لم يكن مستقلّا وانما كان يمرّ في ثنايا قصائد المدح التي ينشدونها اثر انتصارات المسلمين عليهم. و أهمّ المعاني التي دأر حولها هجاءهم: الجبن و الفرار من ميادين القتال.

وكان الأبيض و اليكّي أشهر من هجا المرابطين من الأندلسيين، لهج الاول بهجاء أميرهم على قرطبه الى أن ظفر به وقتله. وتراوح هجاؤه فيه بين العفّه والافحاش. و أهمّ ما عيّره به: الشغف بالشرب و الغناء و النساء و تبذير أموال المسلمين في طلب لذّاته. ونهج رسيله اليكّي في هجائهم الى التعميم، فأثبت لهم في مقطوعتين أقبح الصّفات كالدّناءه و الجبن أمام الاعداء، وعسف الرّعيه.

ولمّا علت منزله اليهود في مملكه بني زيري بغرناطه، و استخفّ الوزير يوسف بالمسلمين و طعن في دينهم أنشأ أبو اسحاق الالبيري تونيته يحرّض فيها الملك باديس و قومه الصنهاجيين على الفتك باليهود و الوزير يوسف. و القصيده في المقام الأول اغراء و تحريض، و أمّا الهجاء فجاء فيها عرضا، بحيث نال الشاعر من اليهود عامه و الغرناطيين منهم و وزيرهم يوسف خاصه.

ولم يسر هذا الاتّجاه من الهجاء الأندلسي من حيث لغته و أساليبه و فق خط أفقي واحد لا انحراف فيه، وانما كان "متموّجا" في كل شيء. فتباينت نصوصه في الطول و القصر، و الضعف و الجوده، وتراوحت لغته بين البساطه

والوضوح والفخامة والجزالة، وتأرجحت أساليبه بين العفّة والافحاش.

وللهجاء السياسي الاندلسي أهميه كبرى. يضاف الى قيمه بعض نصوصه الادبيه والفنيه قيمه توثيقيه تاريخيه كبيره قد لا نجدها في الاغراض الأخرى، فهو يمدّنا بمعلومات قيّمه عن سير الحكّام وعلاقه العرب بغيرهم من عناصر سكان الاندلس، في أطوار كثيره من تاريخ وجودهم في الأندلس.

خاتمة البحث

خاتمة البحث

عالجت في هذا البحث الهجاء في الشعر الأندلسي ، وهو أحد فنون الأدب العربي التقليدية . عالجته باعتماد أكبر قدر من الأشعار الوارده في الدواوين و المبثوثه في المصادر المختلفه . و قد وزّعت النّصوص الشعريه على ثلاثه اتّجاهات موضوعيه كبرى : الاتّجاه الشّخصي و الاجتماعي و السّياسي ، متدرّجا فيه من أبسط صور الهجاء الى أهمّها و أعقدها . ومادمت قد أشرت في ثنايا الفصول و خواتمها الى دوافعه و أغراضه المختلفه ، ودرست لغته و أساليبه المتنوّعه ، و بيّنت الظواهر الفنيّه العامه لكلّ اتجاه سأخصص هذه الخاتمه العامه لتفسير ظواهر الهجاء الأندلسي العامه ، و تسجيل أبرز النتائج التي توصّلت اليها .

1- محاوله لتفسير الظواهر الفنيّه العامه للهجاء الأندلسي .

اشتركت أغلب نصوص الهجاء الأندلسي على اختلاف اتّجاهاته في بعض الخصائص الفنيّه حتى غدت ظواهر عامه مميّزه له ، منها : بساطه التعبير و القصر و الافحاش و الاستعانه بالتّراث الثقافي .

أ - بساطه التعبير :

اتّسمت لغه الهجاء الأندلسي في الغالب بالبساطه و الوضوح ، حتى اقتربت في بعض النصوص من لغه الحديث اليومي . و يبدو أن تلك البساطه ضروره اقتضتها "غائيه" الهجاء و "خصوصيه" الوضع اللّغوي في الأندلس. فأمّا غائيّه الهجاء ، فلأنّ أيّ شاعر يهدف - في الأغلب - الى تحقيق غرضين متلازمين : التنفيس على النّفس و التّشهير بالخصم . ولا يستطيع أن يضمن لهجائه قدرا معيّنا من الذّيوع و السّيران الاّ اذا كانت لغته سهله واضحه لا غرابه فيها و لا غموض ، فيسهل بذلك حفظها و علوقها بالنّفس .

و أمّا "خصوصيه" الوضع اللغوي ، فلأنّ العربيه كان لها وضع خاص في الأندلس ، لأنّ الانتصار السريع و الباهر الذي حقّقه العرب و المسلمون

في الجانبين العسكري و السّياسي ، في جنوب شبه الجزيره الأيبيريه في أواخر القرن الأول الهجري (أوائل الثامن الميلادي) لم ترافقه غلبه لغويه بنفس السّرعه و السهوله ، و كانت تزاحمها في العقود الأولى التي تلت الفتح اللغتان البربريه و الرومانثيه . وزاد وضع اللغه العربيه حرجا اختلاط العرب بغيرهم بالمصاهره و السكنى و المعاملات . ونشأت الأجيال التاليه تتكلّم لغه وسطى ، متحلّله من قواعد الاعراب ، و ان ظلت السياده للعربيه في بعض المجالات كالخطب و التعليم و التأليف و المراسلات . وعن انحراف كلام خواصّ الأندلس و عوامّهم ، و تسرّب ذلك الانحراف حتى الى حلقات الدرس ، يقول المقّري (1) : ((... مع أنّ كلام أهل الأندلس الشائع في الخواصّ و العوامّ كثير الانحراف عمّا تقتضيه أوضاع العربيه ، حتى لو أنّ شخصا من العرب سمع كلام الشّلوبيني أبي علي المشار اليه بعلم النحو في عصرنا الذي غرّبت تصانيفه و شرّقت و هو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدّه التحريف الذي في لسانه ، والخاصّ منهم اذا تكلّم بالاعراب و أخذ يجري على قوانين النحو استثقله واستبرده)) .

وكان هذا الوضع اللغوي من عوامل ظهور فنّين أدبيين أندلسيين خالصين هما : التوشيح و الزّجل .

غير أنّ هذا لا يعني انقراض الاتّجاه القديم أو تقهقره أمام زحف الاتّجاهين المحدث و الشّعبي ، و انّما تعايشت الاتّجاهات الثلاثه على أرض الأندلس ، و كان لكلّ منها ميدانه و فرسانه .

ولم يعدم الشعراء الأندلسي مقاطيعات و قصائد تتّسم بجزاله الأسلوب و قوّته ، ولكنّها قليله : نجدها عند كبار الشّعراء كابن زيدون و ابن عمار و المعتمد بن عبّاد و لسان الدين ابن الخطيب و غيرهم من الموهوبين . وقد وردت نماذج منها في شعراء الحكّام و الوزراء .

---

(1) نفح الطيب 1 : 221- 222 .

ب - القصـــــر:

تباينت نصوص الهجاء الأندلسي في الطول و القصر ، بحيث نجد فيها القصيده و المقطوعه و البيت و البيتين . ولكن القصر هو السّمه الغالبه عليها ، اذ جاء أكثرها على شكل مقطوعات .

و الايجاز مستحسن في الهجاء ، فالشعراء القدماء كلهم متّفقون على أنّ ((قصر الهجاء أجود ، و ترك الفحش فيه أصوب))[1] ، الآخريرا فانّه قال لبنيه[2] : ((اذا مدحتم فلا تطيلوا المماد حه ، و اذا هجوتم فخالفوا)) . وتابعه على طريقته في الاسهاب ابن الرّومي .

و يروى أنّ عقيل بن علّفه (ت نحو 100هـ/718م) سئل[3] : ((مالك لا تطيل الهجاء ؟ قال : يكفيك من القلاده ما أحاط بالعنق)) .

و واضح أنّ ميل الشعراء القدماء الى الاقتصاد في الهجاء دليل على ادراكهم أنّ القصر أحد العوامل الدّاعيه الى ذيوعه و انتشاره .

وينبغي ألّا يغيب عن أذهاننا أنّ أمحى الأهاجي و أخلدها في نظر معظم الأدباء العرب أبيات مفرده كقول الحطيئه في الزّبرقان بن بدر[4] (بسيط):

((دع المكارم لا ترحل لبغيتها . . واقعد فانّك أنت الطاعم الكاسي)) .

---

(1) (2) ابن رشيق ، العمده في محاسن الشعر و آدابه و نقده . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ط 5 ، بيروت : دار الجيل ، 1401هـ/1981م) ، 2 : 172 . (نشير اليه بـ" العمده") .

(3) العقد الفريد 5 : 296 .

(4) راجع : لسان العرب . (ماده كسا) .

ومثله قول جرير[1] في الرّاعي النّميري (وافر) :

((فغضّ الطّرف انّك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا)) .

وقد يتوفّر للبيت الواحد من عناصر الابتكار أو من الخصائص المعنويه والأسلوبيه ما لا يتوفّر للقصائد الطّوال ويقوم بما تعجز عن القيام به ، ويكون وقعه على نفس المتلقّي من وقع السّيوف والنّبال .

ولكن الى أيّ شيء يرجع قصر الهجاء الأندلسي ؟

يرجع الايجاز في الهجاء الأندلسي - في نظري - الى سببين : أولهما أنّ بعض الشعراء اختاروا القصر أسلوبا لهجائهم ، كالسّميسر[2] وابن ساره الذي ((أولع بالقصار فأرسلها أمثالا ، ورشق بها نبالا))[3] ، وثانيهما - أنّ مؤلّفي كتب الأدب العامه وكتب التراجم كانوا يثبتون في مصنّفاتهم ما وقف أزواقهم من قصائد الهجاء ، ونجد في بعض المؤلّفات اشارات الى ذلك الاجتزاء من مثل ((قال فلان من قصيده)) ، وأحيانا نحسّ بالاقتضاب دون اشاره اليه ، أو يوردون ما أسعفتهم به ذاكرتهم أو ذاكره من نقلوا عنه .

جـ - الافحـــاش :

كان الافحاش احدى الظواهر الكبرى المميّزه للهجاء الأندلسي وبالأخصّ في القرنين الخامس والسّادس الهجريين ، وقد انساق وراء هذا التيّار كثير من الشعراء وبعض الشواعر المواجن ، فذكروا من بذيء اللفظ وفاحش القول ما يؤذي السّمع ويخدش الحياء .

والهجاء الفاحش مذموم عند أغلب خبراء الشّعر القدماء . فخير الهجاء في نظر عمرو بن العلاء (ت 151هـ/770م) ((ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها))[4] ، وأجوده في رأي خلف الأحمر (ت 180هـ/796م) ((ما عفّ

---

(1) الصاوي ، شرح ديوان جرير (د.ط ، بيروت : دار مكتبه الحياه ، د.ت) ، 1 : 75 .
(2) الذخيره 1/2 : 882-883 .
(3) م.ن ، 2/2 : 834 .
(4) العمده 2 : 170 .

لفظه و صدق معناه)) (1).

ويستمرّ التأكيد على عفّه الهجاء حتى القرن الرّابع الهجري حيث نجد علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 366هـ/ 976م) يسدّ القذف والافحاش في الهجاء شتما و سبابا محضا ((وليس للشاعر فيه الاّ اقامه الوزن و تصحيح النظم)) (2). ويرى ابن رشيق (ت 456هـ / 1034م) أنّ التعريض أحسن من التصريح بشرط أن ((يكون الممجوّ ذا قدر في نفسه و حسبه)) (3). و يحمل بذلك المسؤله الاجتماعيه للممجوّ احدى العوامل التي تحدّد مذهب الهجاء . وهو - في نظري - مصيب في ما ذهب اليه ، و يذكّرنا باعتراض النابغه الذبياني على شعراء قومه لمّا أنشدوه هجاءهم في عامر بن الطفيل ، و قوله لهم: ((أفحشتم على الرّجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك)) (4). و أنشأ فيه شعره الذي منه (وافر) (5):

((فان يك عامر قد قال جهلا . . فانّ مايّه الحمل السّباب)).

ولمّا بلغ شعره عامرا تأثّر كثيرا وقال (6): ((ما هجاني أحد حتى هجاني النّابغه ، جعلني القوم رئيسا ، و جعلني النّابغه سفيها و تحكّم بي !)).

ولكن ما تفسير ظاهره الافحاش في الهجاء الأندلسي ؟.

أشير في البدايه الى أنه ينبغي ألاّ نقلّل من قيمه هجاء الفاحش وأهميّته ، و ألاّ ننظر اليه على أنّه شرّ كلّه ، لأنّه جزء من الهجاء الأندلسي أولا ، و من التراث الهجائي العربي عامه ثانيا . ثمّ لأنّه يمثّل مرحله من

---

(1) العمده 2 : 171 .

(2) الجرجاني ، الوساطه بين المتنبّي و خصومه . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي (د . ط ، صيدا - بيروت : منشورات المكتبه العصريه ، د . ت) ، ص: 24 .

(3) ع . ن ، 2 : 173 .

(4) (5) م . ن ، 2 : 171 .

(6) م . ن ، 2 : 172 .

مراحل تطوّر الهجاء العربي في اقليم معيّن ، و في حقبه زمنيه محدّده ، حتى وان بدا هذا التطور - في نظرنا - تغيّرا سلبيّا . وربّما كان " تغيّره " هو الذي يحضّنا على جمعه و دراسته و البحث - وهو الأهمّ - عن الأسباب التي دعت اليه فانحطّ ولم يرتفع .

وكيفما كان موقف الدّارس من هذا الهجاء فانّه لا يستطيع انكار قيمته التوثيقيّه .

تنحصر عوامل الافحاش في الهجاء الأندلسي - في رأيي - في تفاعل أطراف ثلاثه : شخصيّه الشاعر و قيم المجتمع و تأثير الشعر المشرقي .

انّ كثيرا ممن مارس هذا اللّون من الهجاء كان يعاني من التأزم النّفسي وعدم التكيّف الاجتماعي بسبب الشّعور الحادّ بالنّقص أو بالتّمزق العائلي والمجتماعي أو بضغوط الحاجه الماديه . ولا شكّ أنّ البحث العميق المتأني - لو تسعفت المصادر بذلك - في شخصيه كلّ شاعر و حياته الخاصه ، و علاقته بالمجتمع ، يكشف عن أسباب جنوحه الى الافحاش في الهجاء .

ثمّ انّ " تركيبه " المجتمع الأندلسي ، و ما أصاب حياته من تطور ، و قيمه من تغيّر ، و بالأخص في القرن الخامس الهجري ، كلّ ذلك كان يدفع الشاعر الى البذاء . و الشّعر شاهد العصر و مرآته و ان كانت غير صقيله .

لقد كان المجتمع الأندلسي مكوّنا من عناصر بشريه كثيره ، مختلفه الأصول و الثقافات . وبلغ في عصر ملوك الطوائف - على الرغم من تفتّت وحدته و ضعفه العسكري و السّياسي - مستوى لا بأس به من الرقيّ الاجتماعي و الحضاري . وكان من آثار اختلاط عناصر السكان المختلفه في السكنى ، و بالأخص في المدن الكبيره ، و تحرّر المرأه ، و ازدهار حركه الغناء ، و شيوع مجالس الشراب ، ظهور بعض الآفات أو الظواهر الاجتماعيه السيئه ، و تغيّر بعض القيم .

وكان المجتمع الأندلسي ينعم في ظلّ الحكّام و الفقهاء بجوّ يسوده تسامح كبير ، ((لأنهم لم يروا في عبث الشاعر و مجونهم ، ما يخشى منه على الدين

مادامت له الحرمه في النفوس ، ولعهم السلطان العزيز ، فأرخوا عنان التساهل ، وأباحوا حريّه القول و العمل ، فساءت الاخلاق ، و أبرزت الخلاعه معصميها))(1) .

و من الطبيعي أن تتعكس أخلاق المجتمع و قيمه على لغه الهجاء ومعانيه .

ولم يكن الهجاء في الأقاليم العربيه الأخرى ، و بخاصه الشّام و العراق منها ، خلوا من الافحاش . فقد أخذ هجر القول طريقه الى الهجاء قبل فتح الأندلس وبعده . نجد ذلك في أهاجي الحائيه (ت نحو 59هـ/678م) وأبي نواس (ت 198هـ/814م) ودعبل الخزاعي (ت 246هـ/860م) والحسين ابن الضّحاك (ت 250هـ/864م) . كما تفشّى السّخف و المجون بشعر ابن لنكك وابن سكّره الهاشمي (ت 385هـ/995م) و ابن الحجّاج البغدادي (ت 391هـ/1001م) .

و تشكّل تدريجيا ما يعرف بـ " الذّوق العام " . و أصبح الناس لا يتحرّجون من سماع الهجاء الطافح بالافحاش و السخف و المجون و روايته . وكان يتردّد على الالسنه في بغداد : ((انّ زماننا حماد بابن سكّره و ابن حجّاج لسخيّ جدا))(2) .

ولا يتحلّى قبول هذا اللون من الهجاء في الاستحسان الشّعبي الشّفوي نحسب ، وانّما تعداه الى الجمع و التّسجيل ، حيث نجد أبا منصور الثّعالبي يخصّص صفحات كثيره في " يتيمته " لتراجم أصحاب هذا اللّون من الهجاء وأشعارهم .

ولم يكن أهل الأندلس منغلقين على أنفسهم ، منعزلين في شبه جزيرتهم ، وانّما كانوا متفتّحين على الأقاليم العربيه الأخرى ، و بخاصه الحجاز و الشّام و العراق ، يتابعون ما يحدث فيها من تطوّرات سياسيه و فكريه و أدبيه ، ويتأثرون ، قليلا أو كثيرا ، بها .

---

(1) أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث ، ص : 36 .

(2) الثعالبي ، يتيمه الدهر في محاسن أهل العصر . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ط 2 ، بيروت : دار الفكر ، 1393هـ/1973م) ، 2/3 : 3 .

و يتجلّى تأثير الشعر البغدادي في الشعر الأندلسي في انتقال مذهب ابن حجّاج الى الأندلس ،و تأثر ابن حزمون به في موشّحاته (1) .

أن الافحاش في الهجاء الأندلسي - في نظري - أثر من آثار تأثر الشعراء بأخلاق المجتمع الأندلسي و قيمه و بمذهب بعض شعراء المشرق في غياب صرامة الرّقابه الذّاتيه .

د - الاستعانـــه بالتراث الثقافي :

من المظاهر العامه التي ميّزت الهجاء الأندلسي ،و بالأخصّ الشّخصي منه ،استعانه الشعراء بالموروث الثقافي . و أبرز المناهل التي استقى منهـــا الشعراء ثلاثه : القرآن الكريم و الشعر المشرقي و التاريخ . وهذه الاستعانه دليل على ارتباط الأندلسيين الوثيق بجذورهم من جهه ،و على سعه اطلاع شعرائهم من جهه أخرى .

- القـــرآن الكريـــم :

لقد كان القرآن - و مازال - أحد المصادر الثرّه التي ينهل منها الشعراء غير أنّ النهل منه في الهجاء عليه صعبه و معقّده ،لأنهما لا تحتاج الى حفظه أو الالمام الواسع به فقط ،و انما تحتاج كذلك الى خيال واسع و ذكاء ثاقب قادر على ايجاد العلاقه التي ترسط بين معنى الهجاء و ما يستقى من القرآن في النّص الهجائي .

و تتجلّى استعانه شعراء الاندلس بالقرآن في أهاجيهم في ذكر أسماء بعض السّور و المصاحف و في استغلال قصص بعض الأعلام ،من أجل ابراز معانيهم و توضيحها .من ذلك ذكر يحي الغزال لاسمي سورتين في هجاء القاضي يخامر الشّعباني للتعبير عن جهله بكتاب الله الذي هو أوّل مصدر من مصادر التشريع،و من ثمّه عدم أهليته للقضاء .

---

(1) المعجب (اختيار أحمد بدر) ،ص : 195 .

- الشعر المشرقي :

كان الشعر المشرقي أحد المصادر التي نهل منها شعراء الاندلس واستعانوا بها في هجائهم . و يتحلّى تعلقهم من أشعار بعض الفحول في مظاهر عديده منها : الاقتباس و التضمين و النظم في نفس البحر (الوزن) و بنفس الرّوي . وقد تجتمع هذه المظاهر كلّها في قصيده واحده ، كما هو الشأن في مقطوعه ابن ساره التي تحكم فيها من " ثنايا" أحدهم و فمه ، حيث يبدو تأثّره و اعجابه فيها واضحا بداليه النابغه الذبياني ، لذلك اختار لمقاوعته البحر البسيط وزنا و الدّال رويّا ، و ضمّن منها و اقتبس .

و اذا أردنا حصر الشّعراء الذين استعين بأشعارهم و ترتيبهم زمنيا وجدناهم كالآتي : النابغه الذبياني و جرير و ذو الرّمّه و أبو العتاهيه والمتنبي ، وكلّهم من الفحول ، وقد عاش آخرهم في النصف الأول من الرابع الهجري .

ان استعانه الشعراء الأندلسيين بأشعار الفحول كانت بمثابه تلقين لأشعارهم و تتلمذ لها ، أكسبها قوّه و ثقلا ، لأنّ تصرّفهم فيها كيّفها بأغراضهم ، و جعلها ذات أثر جمالي خلّاب في أشعارهم ، ونأى بها عن الحشو والاقحام .

- التاريخ :

استعان بعض شعراء الأندلس بالتاريخ . و أقصد بالتاريخ بعض الشخصيات التاريخيه المشهوره التي ارتبطت أسماؤها ببعض الصفات و القيم أو الاحداث الكبرى .

و الغرض من ذكر الأعلام في الهجاء اقامه المفارقه و التهكّم بالممدوح ، لما يرتبط بذكر الشّخصيات التاريخيه من " معان مصاحبه" . من ذلك ذكر ابن عمار لـ " عامر الخيل" و " زيد الخيل" في هجاء المعتمد بن عبّاد للتهكّم به .

2 - نتائج البحث :

أ - كان الهجاء أحد الأغراض الرائجه في الشعر الأندلسي ، و هذا عكس ما

اليه أصحاب الدراسات العامه . و أدلّتنا على ذلك :

- كثره الشعراء الذين مارسوا هذا الفن ، منهم تسعه من الهجّائين : أبو المخشي و مؤمن بن سعيد و القلفاط السميسر و ابن ساره و المخزومي والأبيض و اليكّي و ابن حزمون .

- وفره النصوص ، على الرغم من ضياع دواوين الهجّائين ، و تنزّه بعض المؤلفين عن روايه الهجاء في مصنفاتهم .

- جوده الهجاء : و اذا كانت العبره في الجوده و ليس في الكثره ، فان قرائح الأندلسيين أبدعت كثيرا من النصوص الهجائيه التي تتوفر فيها عناصر الهجاء الجيّد كما حدّدها خبراء الشعر و نقاده .

ب - كان الهجاء عند بعض الشعراء أثرا لأحداث عارضه و عند بعضهم " احترافا " و امتصاصا متواصلا .

ج - شاركت بعض شواعر الأندلس في الهجاء .

د - لم يكن الشكل التقليدي للقصيده العربيه القالب الوحيد الذي أفرغ فيه الشعراء معانيهم و انما كان الى جانبه " فن التوشيح " .

هـ - و بالاضافه الى أهميه نصوص الهجاء الأدبيه لها أهمّيه توثيقيه و تاريخيه عظيمه تفيد في دراسه شخصيات الشعراء و أخلاق المجتمع و تعزيز آراء المؤرخين في سير بعض الحكام و علاقات العرب بغيرهم من عناصر سكّان الأندلس.

و في الختام أبادر الى القول بأنني لا أدّعي أنني أحطت بـ " الهجاء في الشعر الأندلسي " من كل جوانبه ، و استوفيت حقّه ، لأن ذلك - في نظري - مالب عسير المنال بسبب ضياع دواوين هجّائي الأندلس من جهه ، وسعه الموضوع و تشعّبه من جهه ثانيه . وما قمت به ما هو الا مساهمه بسيطه و متواضعه لاستجلاء صوره الهجاء الأندلسي .

و على الرغم من أنني وصلت بالموضوع الى نهايته مازال " في نفسي شيء منه " .

و الهجاء في الشعر الأندلسي من المواضيع الواسعه " المفتوحه"، التي تبقى تبوح بأسرارها و كنوزها كلّما حقّق ديوان شعر أو مصنّف من المصنفات القديمه .وهو بذلك مازال في حاجه الى البحث و الدراسه في ضوء المعطيات المتوفّره أو التي ستعدّ ،و ذلك بدراسه الهجّائين افراد ى أو مجتمعين في فتره زمنيه محدّده .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا - المصادر والمراجع العربية والمعرّبة :

أ - الكتب :

- ابن الأبّار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله . (ت 658هـ/1260م) :

1- الحلّة السّيراء . تحقيق حسين مؤنس . ط 1 ، القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ، 1963م.

2 - ديوان ابن الابّار . قراءة عبد السلام الهراس وتعليقه . تونس : الدار التونسية للنشر ، 1405هـ/1985م.

- احسان عباس :

3 - تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين . ط 6 ، بيروت : دار الثقافة ، 1981م.

- احسان عباس وود داد القاضي وألبير مطلق :

4 - دراسات في الأدب الأندلسي . ليبيا - تونس : الدار العربية للكتاب، 1396هـ/1976م.

- أحمد أمين :

5 - ظهر الاسلام . ط 5 ، بيروت : دار الكتاب العربي ، 1388هـ/1969م.

- أحمد خالد :

6 - ابن الرّومي . تونس : الشركة التونسية للتوزيع والجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د.ت. (الطرائف ، 2).

- أحمد هيكل :

7 - الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة . القاهرة : دار المعارف، 1385م.

- أبو اسحاق الالبيري ، ابراهيم بن مسعود . (ت نحو 460هـ/1068م) :

8- ديوان أبي اسحاق الالبيري الأندلسي . تحقيق محمد رضوان الداية . ط 1 ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، 1396هـ/1976م.

- أسعد حومد :

9 - محنه العرب في الاندلس . ط 1 ، بيروت : المؤسسه العربيه للدراسات و النشر ، 1400هـ/1980م .

- ايليا حاوي :

10- فن الهجاء و تطوّره عند العرب . بيروت: دار الثقافه ، د . ت .

- البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل . (ت 256هـ/870م) :

11- صحيح البخاري . بيروت: دار احياء التراث العربي ، 1958م .

- بروكلمان ، كارل : (Brockelmann , K.)

12- تاريخ الأدب العربي . ترجمه عبد الحليم النجار . ط 4 ، القاهره: دار المعارف ، د . ت .

- ابن بسام ، أبوالحسن علي . (ت 542هـ/1147م) :

13- الذخيره في محاسن أهل الجزيره . تحقيق احسان عباس. ليبيا - تونس: الدار العربيه للكتاب ، 1981م .

- ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك . (ت 578هـ/1183م) :

14- الصّله . القاهره : الدار المصريه للتأليف و الترجمه ، 1966م .

- بطرس البستاني :

15- أدباء العرب في الاندلس و عصر الانبعاث . ط 6 ، بيروت : دار المكشوف و دار الثقافه ، 1958م .

- بل ، ألفريد : (Bel , A.)

16- الفرق الاسلاميه في الشمال الافريقي من الفتح حتى اليوم . ترجمه عبد الرحمن بدوي . ط 2 ، بيروت: دار الغرب الاسلامي ، 1981م .

- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد . (ت 429هـ/1038م) :

17- يتيمه الدهر في محاسن أهل العصر . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط 2 ، بيروت : دار الفكر ، 1393هـ/1973م .

- الجرجاني ،أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي . (ت 366هـ/ 976م) :

18- الوساطه بين المتنبي و خصومه . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي . صيدا - بيروت: منشورات المكتبه العصريه ،د . ت .

- جودت الركابي :

19- في الأدب الأندلسي . القاهره : دار المعارف ،د . ت.

- ابن حزم ،أبو محمد علي بن أحمد . (ت 456هـ/ 1064م) :

20- جمهره أنساب العرب . تحقيق عبد السلام محمد هارون . ط 5 ،القاهره : دار المعارف ،د . ت.

- حسين مؤنس :

21 - فجر الاندلس . ط 2 ،جدّه : الدار السعوديه للنشر و التوزيع، 1405هـ/ 1985م.

- حكمه علي الأوسي :

22- فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني و الثالث للهجره . ط 2، بغداد : مكتبه النهضه ، 1974م.

- الحميدي ،أبو عبد الله محمد بن أبي نصر . (ت 488هـ/ 1095م) :

23- جذوه المقتبس في تاريخ علماء الأندلس . تحقيق ابراهيم الأبياري . ط 2، القاهره : دار الكتب الاسلاميه و دار الكتاب المصري و بيروت: دار الكتاب اللبناني ، 1403هـ/ 1983م.

- ابن حيّان ،أبو مروان حيّان بن خلف . (ت 469هـ/ 1076م) :

24 - المقتبس من أنباء أهل الأندلس. تحقيق محمود علي مكّي . بيروت: دار الكتاب العربي ، 1393هـ/ 1973م.

- الخشني ،أبو عبد الله محمد بن الحارث. (ت 361هـ/ 971م) :

25- قضاه قرطبه . تحقيق ابراهيم الأبياري . ط 1 ،القاهره: دار الكتب الاسلاميه و دار الكتاب المصري و بيروت : دار الكتاب اللبناني ، 1402هـ/ 1982م.

- ابن خفاجه ،أبو اسحاق ابراهيم . (ت 533هـ/1137م) :

26- ديوان ابن خفاجه . بيروت: دار صادر للطباعه و النشر، 1400هـ/1980م.

- ابن خلدون ،أبوزيد عبد الرحمن . (ت 808هـ/1406م) :

27- تاريخ ابن خلدون . ط 2 ،بيروت : مكتبه المدرسه و دار الكتاب اللبناني ، 1967م.

- ابن خلّكان ،أبو العباس أحمد بن محمد . (ت 631هـ/1282م) :

28- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزّمان . تحقيق احسان عباس .بيروت: دار الثقافه ،د.ت.

- ابن دحيه ،أبو الخطاب عمر بن حسن . (ت 633هـ/1236م) :

29 - المطرب من أشعار أهل المغرب . تحقيق ابراهيم الأبياري و حامد عبد المجيد و أحمد أحمد بدوي .بيروت: دار العلم للجميع ،د.ت.

- ابن رشيق ،أبو الحسن علي . (ت 456هـ/1064م) :

30- العمده في محاسن الشعر و آدابه و نقده .تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط 5 ،بيروت: دار الجيل ، 1401هـ/1981م.

- الزبيدي الأندلسي ،أبوبكر محمد بن الحسن . (ت 379هـ/990م) :

31- لبقات النحويين و اللغويين . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. ط 2، القاهره: دار المعارف ،د.ت .

- الزركلي ، خير الدين :

32 - الأعلام.ط 5 ،بيروت : دار العلم للملايين ، 1980م.

- ابن زيدون ،أبو الوليد أحمد بن عبد الله . (ت 463هـ/1070م) :

33 - ديوان ابن زيدون و رسائله . تحقيق علي عبد العظيم . القاهره: مكتبه نهضه مصر ، 1957م.

- ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى . (ت 685هـ/ 1286م) :

34- رايات المبرّزين و غايات المميّزين . تحقيق النّعمان عبد المتعال القاضي .

الطبعه لجنه احياء التراث الاسلامي . القاهره : 1393هـ/1973م .

- ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى و آخرون :

35- المغرب في حلى المغرب . تحقيق شوقي ضيف . ط 3 ، القاهره : دار المعارف ، د . ت .

- السّلفي ، أبو طاهر أحمد بن محمد . (ت 576هـ/ 1180م) :

36- أخبار و تراجم أندلسيه مستخرجه من معجم السّفر . تحقيق احسان عباس .

ط 1 ، بيروت : دار الثقافه ، 1963م .

- شاكر الفحام :

37 - مختارات من شعر الأندلس . دمشق : المطبعه التعاونيه ، 1399هـ/ 1979م .

- الصّاوي ، محمد اسماعيل عبد الله . :

38- شرح ديوان جرير . بيروت : دار مكتبه الحياه ، د . ت .

- الصّفدي ، أبو الصفاء خليل بن أيبك . (ت 764هـ/ 1362م) :

39 - تمام المتون في شرح رساله ابن زيدون . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . بيروت : دار الفكر العربي ، 1389هـ/ 1969م .

- صفوان بن ادريس التجيبي ، أبو بحر . (ت 598هـ/ 1202م) :

40- زاد المسافر و غرّه الأدب السّافر . اعداد عبد القادر محداد و تعليقه . بيروت : دار الرائد العربي ، 1980م .

- الضّبّي ، أحمد بن يحيى . (ت 599هـ/ 1202م) :

41- بغيه الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس . مجريط : مطبعه روخس ، 1884م .

- الطاهر أحمد مكي :

42- دراسات أندلسيه في الأدب و التاريخ و الفلسفه . ط 2 ، القاهره : دار المعارف، 1404هـ/1983م.

- ابن ظافر الأزدي ، علي . (ت 613هـ/1217م) :

43 - بدائع البدائه . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهره : مكتبه الانجلو المصريه ، 1970م.

- عباس بيومي عجلان :

44- الحمراء الحاملي : صوره و أساليبه الفنيّه . القاهره : دار المعارف، 1982م.

- ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد . (ت 328هـ/940م) :

45- العقد الفريد . تابعه لجنه التأليف و الترجمه و النشر . بيروت: دار الكتاب العربي ، 1402هـ/1982م.

- عبد الواحد المراكشي . (ت 648هـ/1250م) :

46- المعجب في تلخيص أخبار المغرب . اختيار أحمد بدر و تقديمه . دمشق : منشورات وزاره الثقافه و الارشاد القومي ، 1978م. (المختار من التراث العربي ، 6) .

- ابن عذاري المراكشي . (القرن 7 هـ/13م) :

47- البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب . الجزء الاول و الثاني و الثالث تحقيق ج . س . كولان و ا . ليفي - بروفنسال . و الجزء الرابع تحقيق احسان عباس . ط 2 ، بيروت: دار الثقافه ، 1400هـ/1980م.

- العماد الأصفهاني ، أبو عبد الله محمد بن محمد . (ت 597هـ/1200م) :

48- خريده القصر و جريده العصر ، قسم شعراء المغرب و الأندلس . تحقيق آذرتاش آذرنوش و تنقيح محمد المرزوقي و محمد المروسي المطوي و الجيلاني بن الحاج يحي . تونس: الدار التونسيه للنشر ، 1971 - 1972 م.

- عمر فروخ :

49- تاريخ الأدب العربي : الأدب في المغرب و الأندلس عصر المرابطين والموحدين . ط 1 ، بيروت : دار العلم للملايين ، 1982م.

- غرسيه غومث ، اميليو: (Garcia Gomez , E .)

50- مع شعراء الأندلس و التنبي . ترجمه الأمير أحمد مكّي . ط 3 ، القاهره : دار المعارف ، 1403هـ/1983م.

- الفتح ابن خاقان ، أبو نصر. (ت 529هـ/ 1134م) :

51- قلائد العقيان في محاسن الأعيان . قدّم له و وضع فهارسه محمد العنابي . تونس: المكتبه العتيقه ، 1386هـ/1966م.

52- مطمح الانفس و مسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. تحقيق محمد علي شوابكه . ط 1 ، بيروت : مؤسسه الرساله ، 1403هـ/1983م.

- فوزي سعد عيسى :

53- الهجاء في الأدب الأندلسي . القاهره : دار المعارف، د . ت .

- ابن قتيبه ، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (ت 276هـ/ 889م) :

54- الشعر و الشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط 2 ، القاهره : دار المعارف، د . ت .

55- عيون الأخبار . بيروت : دار الكتاب العربي ، د . ت . (طبعه مصوره عن طبعه دار الكتب المصريه لسنه 1343هـ/1925م) .

- ابن القوطيه ، أبو بكر محمد بن عمر. (ت 367هـ/977م) :

56- تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق ابراهيم الابياري . ط 1 ، القاهره : دار الكتب الاسلاميه و دار الكتاب المصري و بيروت : دار الكتاب اللبناني ، 1402هـ/1982م.

- ابن الكتّاني ، أبو عبد الله محمد .

57- كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس . تحقيق احسان عباس. ط 2 ، بيروت : دار الشروق ، 1401هـ/1981م.

- لسان الدين ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. (ت 776هـ/1374م) :

58- الاحاطه في أخبار غرناطه . تحقيق محمد عبد الله عنان . ط 2 ، القاهره : مكتبه الخانجي ، 1393هـ/1973م.

59- ديوان الصيّب و الهمام و الماضي و الكهام . دراسه محمد الشريف قاهر و تحقيقه . ط 1 ، الجزائر : الشركه الوطنيه للنشر و التوزيع، 1973م.

60- الكتيبه الكامنه في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائه الثامنه . تحقيق احسان عباس . بيروت : دار الثقافه ، 1983م.

-ليفي -بروفنسال ، افاريست : (Lévi - provençal, E.)

61 - الحضاره العربيه في اسبانيا . ترجمه الطاهر أحمد مكي . ط 2 ، القاهره : دار المعارف ، 1405هـ/ 1985م.

- محمد رضا الشبيبي :

62- أدب المغاربه و الأندلسيين في أصوله المصريه و نصوصه العربيه . ط 2 ، بيروت : دار اقرأ ، 1404هـ/ 1984م.

- محمد رضوان الدايه :

63- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس . ط 2 ، بيروت: مؤسسه الرساله ، 1401هـ/ 1981م.

- محمد عبد الله عنان :

64- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي . ط 1 ، القاهره : مطبعه لجنه التأليف و الترجمه و النشر ، 1380هـ/ 1960م.

- محمد عيسى الحريري :

65- حركات المولّدين في الجنوب الأندلسي في عصر الاماره الأمويه بالأندلس. الأزاريطه (مصر) : دار المعرفه الجامعيه ، 1985م.

- محمد محمد حسين :

66 - الحجاء و الهجّاءون في الجاهليه . ط 4 ، بيروت : دار النهضه العربيه للطباعه و النشر، 1391هـ/ 1971م.

- محمد المنتصر الرّسوني :

67- الشعر النسعي في الأندلس ، بيروت: منشورات مكتبه الحياه ، 1978م.

- مصطفى الشكعه :

68- الأدب الأندلسي : مجموعاته و فنونه، ط 5 ، بيروت: دار العلم للملايين ، 1983م.

- المعتمد بن عباد ، أبو القاسم محمد بن عباد . (ت 488هـ/ 1095م) :

69- ديوان المعتمد بن عباد . جمع رضا الحبيب السويسي و تحقيقه . تونس: الدار التونسيه للنشر ، 1975م.

- المقّري ، أبو العباس أحمد بن محمد . (ت 1041هـ/ 1631م) :

70- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق احسان عباس . بيروت: دار صادر ، 1388هـ/ 1968م.

- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم . (ت 711هـ/ 1311م) :

71- لسان العرب . تحقيق عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله و هاشم محمد الشاذلي . القاهره: دار المعارف ، د . ت.

- النابغه الذبياني ، زياد بن معاويه بن ضباب . :

72- ديوان النابغه الذبياني . تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور. تونس : الشركه التونسيه للتوزيع و الجزائر: الشركه الوطنيه للنشر و التوزيع، 1976م.

- ابن نباته ، جمال الدين . (ت 768هـ/ 1363م) :

73- سرح العيون في شرح رساله ابن زيدون . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. بيروت : دار الفكر العربي ، 1383هـ/ 1964م.

- النباهي ، أبو الحسن علي بن عبد الله . (ت [illegible] 793 /1370)

74- كتاب المرقبه العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا . تحقيق لجنه احياء التراث العربي في دار الآفاق الجديده ، ط 5 ، بيروت : دار الآفاق الجديده ، 1403هـ/ 1983م.

- ياقوت الحموي ، أبو عبد الله . (ت 626هـ/ 1229م) :

75- معجم البلدان . بيروت: دار صادر و دار بيروت، 1376هـ/ 1957م.

- مجهول المؤلف:

76- أخبار مجموعه . تحقيق ابراهيم الأبياري . ط 1 ، القاهره : دار الكتب الاسلاميه و دار الكتاب المصري و بيروت : دار الكتاب اللبناني ، 1401هـ/ 1981م.

ب- الدوريات :

77- مجله عالم الفكر . الكويت : وزاره الاعلام . المجلد الثاني عشر ، العدد الاول . (أبريل - مايو - يونيو 1981م) .

انيا : المصادر و المراجع الأجنبيه :

ا- الكتب :

- Altamira y Crevea , Rafael .:
- 78 - Histoire d'Espagne. 4é éd , Paris : librairie Armand colin, 196
- Pérès , Henri . :
  79 - la poesie andalouse en arabe classique au xié sicle. 2é éd, Paris Adrien - maisonneuve ,1953.

ب- الدوريات

80 - Hesperis.

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ ـ خ
مدخل	1 ـ 8
الفصل الأول : الهجاء الشخصي	9 ـ 80
هجاء الحكّام وأعوانهم	11
ـ هجاء الحكّام	11
ـ هجاء الوزراء	23
ـ هجاء القضاة	31
هجاء أصحاب العاهات الجسدية	37
هجاء شواعر الأندلس	47
ـ ولّادة بنت المستكفي بالله وهجاؤها	47
ـ مهجة بنت التياني وهجاؤها	57
ـ نزهون بنت القلاعي وهجاؤها	58
هجاء الشعراء وتهاجيهم	64
هجاء الذات والأهل والأقارب	74
خاتمة الفصل	79
الفصل الثاني : الهجاء الاجتماعي	81 ـ 118
هجاء الفقهاء	82
هجاء الفلاسفة	92
هجاء الشعراء	97
هجاء البخلاء	98
هجاء المشغولين بعيوب الآخرين	102
هجاء المدن	103

ـاء أبي بكر اليكّي لمدينة فاس 108
ـاء النســـاء 111
ـاء المجتمـــع والبشـرية عامة 112
تمة الفصل 116
فصل الثالث : الهجاء السياسي ..... 119 ـ 185
ـاء الحكّام 122
ـاجي العرب والمولّدين من العجم 142
ـاء البربـــر 152
ـاء النصـارى 159
ـاء المرابطيـــن 165
ـاء اليهـــود 170
ـة نفـــوذ اليهـــود في مملكة بني زيري ونكبتهم 173
اتمة الفصل 183
اتمة البحث ..... 186 ـ 197
ـ محاولة لتفسير الظواهر الفنية العامة للهجاء الأندلسي 187
ـ بساطة التعبير 187
ـ القصر 189
ـ الافحاش 190
ـ الاستعانة بالتراث الثقافي 194
القـــرآن الكـــريم 194
الشعر الشرقي 195
التاريـــخ 195
ـ نتائج البحث 195
ائمة المصادر والمراجع 198
ائمة المحتويات 209